الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 140 - September 2010   مجلة شهرية العدد ١٤٠ – السنة الثانية عشرة – سبتمبر ٢٠١٠ – الثمن عشرة جنيهات

من أوسلو إلى واشنطن ... حكايا الدائرة المفرغة

أيمن الصياد - نصير عرورى - عزام التميمى - عبدالله إبراهيم - إليز أغازريان

كافكا على الشاطئ: الرحلة، والخطيئة.. والموت / خيرى شلبى

النشر أو الموت.. كيف يمكن انقاذ صناعة الكتاب / كين أوليتا

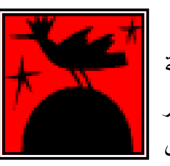
عبد الناصر فى ذكراه الأربعين .. رؤية غربية

وليد محمود عبد الناصر

السنة الثانية عشرة
العدد ١٤٠
سبتمبر ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

ـ اليز اغازريان .. كاتبة وباحثة فلسطينية مقيمة فى هولندا
ـ أيمن الصياد .. صحفى
ـ خيرى شلبى .. روائى
ـ سلطان بن محمد القاسمى .. حاكم الشارقة، ويحمل درجتى دكتوراه الفلسفة فى التاريخ من جامعة إكسيتر، والجغرافيا السياسية من جامعة درم ـ المملكة المتحدة
ـ عبدالله إبراهيم .. كاتب وأكاديمى عراقى
ـ عزام التميمى .. مدير معهد الفكر الإسلامى بلندن
ـ على جمجوم .. باحث فى فلسفة الرياضيات
ـ غازى القصيبى .. أديب سعودى (راحل)
ـ فكرى أندراوس .. كاتب مصرى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية
ـ كين أوليتا .. كاتب متخصص فى المعلوماتية بمجلة «نيويوركر»
ـ محمد المهدى .. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت
ـ معتز خورشيد .. نائب رئيس الجامعة البريطانية فى مصر
ـ نصير عرورى .. أستاذ فخرى للعلوم السياسية بجامعة ماساشوستس، دارتموث
ـ نيكولاس شتيرن .. أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية فى LSE ورئيس معهد Grantham للبحوث البيئية
ـ وليد محمود عبدالناصر .. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى ـ Angel Boligan - Ares - Milt Priggee





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

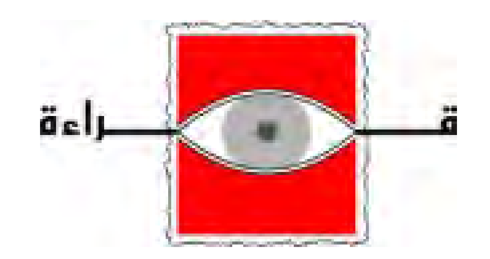
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



مـن أوسـلو إلـى واشـنطن

حكـايا الدائـرة المفرغـة

أيـمـن الـصـيـاد



«الـدولة» التى يبحـث عنهـا أكثـر الفلسـطينيين اعتدالا و«يأسا»، لاعلاقة لها البتة بالدولة التى يتحـدث عنهـا الإسـرائيليون



■■ مرتدياً كوفيته التقليدية، وزيّه العسكرى الذى لم يخلعه أبدا، صعد ياسر عرفات إلى منصة الأمم المتحدة بنيويورك صباح الثالث عشر من نوفمبر ١٩٧٤ ليلقى «الخطاب الفلسطينى الأول» أمام المجتمع الدولى. معلنًا: «جئتكم أحمل غصنَ الزيتون فى يد، وبندقية الفدائى فى اليد الأخرى، فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدى..» ومؤكدا: «الحربُ تندلع من فلسطين.. والسلمُ يبدأ من فلسطين».

قديمة هى بداية القصة التى تبدو بلا نهاية. فى ١٣ ديسمبر ١٩٨٨، سافر عرفات إلى جنيف (مباشرة من الرياض) ليلقى خطابه الثانى أمام جلسة خاصة للجمعية العامة، انعقدت فى المدينة السويسرية بعد أن رفض جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكى منحه تأشيرة دخول تمكنه من تلبية دعوة المنظمة «الدولية».

فى خطابه، وكان السادات قد ذهب إلى القدس، وكانت مصرُ - الرقم الأصعب - قد خرجت من المعادلة، كما كان عرفات نفسه قد أُخرج من بيروت (آخر حدوده مع العدو والوطن) أعلن عرفات قبوله قرار الجمعية العامة «المجحف» رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧ والقاضى بتقسيم فلسطين[1]، وقرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و٣٣٨ (الأرض مقابل السلام) كأساس للتفاوض مع إسرائيل فى إطار مؤتمر دولى.

Peace Is Possible: Conversations with Arab and Israeli Leaders from 1988 to the Present
by S. Daniel Abraham, with a foreword by former U.S. President Bill Clinton. Newmarket Press.
March 13, 2006

السلام ممكن: حوارات متصلة مع قادة عرب وإسرائيليين
دانيال إبراهام
المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية مدار
رام الله ٢٠٠٧

■ ■ ■

سلام متخيل
ليف جرينبرج
ترجمة:جواد الجعبرى
المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية مدار
رام الله - ٢٠٠٧

فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، وكانت حربُ الخليج الأولى قد أطاحت بكل المتبقى من الثوابت العربية، ذهب زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى واشنطن ليوقع مع إسحاق رابين إعلان المبادئ الذى تبلور فى «أوسلو»، ولتلف العالم كله صورة المصافحة الأولى بين الرجلين فى حديقة البيت الأبيض.

السـلام «الممكـن»

فى العام ذاته ١٩٨٨ الذى ذهب فيه عرفات إلى جنيف ليبدأ معركته «الدبلوماسية»، بدأ دانيال إبراهام Danial Abraham.S، وهو رجل أعمال أمريكى (يهودى) شملته قائمة Forbes 400 لأكثر الأمريكيين ثراء، مهمته «المقدسة» للبحث عن السلام فى الشرق الأوسط. وعلى مدى خمسة عشر عاما تفرغ فيها للمهمة، قام إبراهام برفقة عضو الكونجرس الأمريكى عن ولاية يوتا «المورمونى الملتزم» وين أوينز Wayne Owens، بأكثر من ستين رحلة إلى المنطقة، التقى فيها بعدد كبير من القادة العرب، منهم حسنى مبارك وحافظ الأسد وعبد الله بن الحسين وولى العهد السعودى آنذاك (الملك حاليا) عبدالله بن عبد العزيز، وبالطبع ياسر عرفات ومحمود عباس. بالاضافة إلى رؤساء وزراء إسرائيل من اليمين واليسار؛ إسحاق شامير وإسحاق رابين وشيمون بيريز وبنيامين نتنياهو وايهود باراك وكذلك أريل شارون.

فى لقاءاته ورحلاته المكوكية، استخدم رجل الأعمال الناجح، والذى يعتبر نفسه «صهيونيًا ملتزمًا» كل خبرته ومهاراته فى مجال الأعمال ومفاوضات الـ «بيزنيس» لدفع «الصفقة» قدما سواء فى لقاءاته مع القادة، والتى حرص وقتها على أن تظل بعيدا ما أمكن عن الاهتمام الإعلامى، أو تلك المطولة والأقل رسمية (على طاولات العشاء أو فى ملاعب الجولف) مع اللاعبين المؤثرين فى الكواليس من أمثال بندر بن سلطان وأسامة الباز.



رجل الأعمال الناجح، والمؤمن بأنه لا صفقة مستحيلة وبالتالى فـ«السلام ممكن» اختار التعبير التقريرى عنوانا لكتاب مهم ضمنه قصص لقاءاته ورحلاته، والتى تحكى تفاصيلها جانباً من قصة «الدبلوماسية الموازية» التى تعددت مساراتها فى البحث عن حل لمشكلة تبدو - على بساطتها - مستعصية على الحل. صدرت الطبعة الأولى للكتاب بتقديم من الرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون فى ٢٠٠٦، كما صدرت ترجمة عربية له فى رام الله فى فبراير / شباط ٢٠٠٧ عن المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار». وهو أحد كتابين (مختلفين فيما يذهبان إليه) فضلتُ أن أعود إليهما استعدادا لمتابعة الجولة القادمة من المفاوضات، والتى بالتأكيد لن تكون الأخيرة، رغم المهلة التى أعطتها هيلارى كلينتون للطرفين، «للانتهاء من كل التفاصيل»، ورغم كل الأجواء الاحتفالية، ورغم أنهم أطلقوا عليها رسميا مفاوضات «الحل النهائى».

قد تختلفُ مع مايذهب إليه إبراهام «الصهيونى الملتزم» فى كتابه من ناحية تكييفه لطبيعة الصراع وأسبابه، وهذا طبيعىٌ ومفهوم. ولكن الأكثر إثارة أنك - من واقع حكاياته، ومن قراءة واجبة لما بين السطور - ستختلف معه أيضا فيما يذهب إليه من تفاؤل مفرط بأن السلام «بالطريقة التى يفهمونها» ممكنٌ ووارد.

يحكى ملياردير الوجبات السريعة[2] كيف أنه ورفيقه عضو الكونجرس فشلا فى إقناع صائب عريقات (والذى كان عرفات واقفا فوق رأسه) فى الإقرار بأن «المسجد المقدس لدى المسلمين بنى على أنقاض الهيكل اليهودى» وأن عليهم التسليم بذلك. ويوضح كيف أن

٦٣ عاما على قرارالتقسيم ١٨١ , و٤٣ عاما على قرار مجلس الأمن ٢٤٢ , و٢١ عاما على مؤتمر مدريد، و١٧ عاما على أوسلو، و١٠ أعوام على فشل كامب دافيد الثانية، و٧ أعوام على نشر خارطة الطريق. ثم.. لاشىء يبدو فى الأفق



اسحاق رابين وموشى ديان يدخلان الى مدينة القدس «القديمة» ـ يونيو١٩٦٧ © Str Old / Reuters

الحل ـ على طريقة عرفات ـ سيؤدى عمليا إلى أن تصبح إسرائيل دولة ذات أقلية يهودية وسط أغلبية عربية، وهو الأمر الذى لايمكن لإسرائيلى واحد أن يقبله.

يقول دانيال أنه صُدم فى عرفات بعد أن انهارت محادثات كامب دافيد ٢٠٠٠ التى استضافها الرئيس كلينتون فى محاولة لتحقيق تسوية نهائية. وأنه بدأ يتذكر ماكان الإسرائيليون يقولونه دائما من أن زعيم منظمة «التحرير» الفلسطينية، لم يكن غير مراوغ «تكتيكى» ماكر عندما ادعى رغبته فى السلام بذهابه إلى أوسلو. ويتذكر كيف أنه كان يكتم غيظه كل مرة يصر فيها عرفات على أن «يحكى لنا عن طفولته فى القدس»، وكيف أنه ـ أى عرفات ـ أخبر دينيس روس وفريقه المفاوض المكون بشكل أساسى من اليهود: «لقد صليت هناك عند حائط المبكى أكثر منكم».

من حواراته مع أكثر من ألف شخصية من الجانبين على مدى الأعوام الخمسة عشر، يكتشف رجل الأعمال «المتفائل» أن الفلسطينيين والإسرائيليين يسكنون فى عالمين مختلفين كلية. فكل جانب يؤمن تماما أنه يملك الحق، وأن أى شىء يقدمه للطرف الآخر، يمثل تضحية من جانبه.

أوسلو ــ واشنطن

أيا ماكان الأمر، فالعائدون إلى واشنطن اليوم، بدعوة/ تعليمات من كلينتون «الزوجة»، بحثا عما تبقى من أوسلو، يعرفون لماذا انهارت كامب دافيد ٢٠٠٠ رغم الجهود المحمومة لكلينتون «الزوج». كما يعرفون أكثر من غيرهم أننا اليوم ـ وبغض النظر عن مهلة وزيرة الخارجية الأنيقة الطموح ـ أبعد مانكون عن الاتفاق. فالإسرائيليون المطمئنون فى «جيتواهم» خلف الجدار، فقدوا أى إحساس بالإلحاح فيما يتصل بالمشكلة الفلسطينية. «وكأنما هى تحدث على الجانب المظلم من القمر» كما يقول مستنكرا وزير خارجيتهم الأسبق شلومو بن عامى فى مقال أخير له.

والفلسطينيون المستقطَبون فى خلافاتهم، فقدوا عمليا «القدرة على الإيلام» الكفيل بإيجاد «الحاجة» إلى الاتفاق لدى الطرف الآخر.

ثم إنهم بالضرورة يذكرون، كما نذكر متى ذهبنا فى البداية إلى أوسلو.. وعلى ماذا تم الاتفاق هناك. كانت أوسلو التى تم توقيعها فى ديسمبر ١٩٩٣ بعد مباحثات ماراثونية مضنية، تقضى بأن يتم الاتفاق على الحل النهائى فى غضون خمسة أعوام.. أكرر «خمسة أعوام». الآن، وقد مرت سبعة عشر عاما كاملة، أين أصبحنا..؟ دماءٌ كثيرة جرت فى النهر.. لا «ماء» كما يقول التعبير الشهير.

ذهبت بنا معظم التصريحات الرسمية (على الجانبين)، والتعليقات غير الرسمية (أيضا على الجانبين) إلى الاكتفاء دوما بتعليق الجرس فى رقبة الآخر، أو فى رقبة من نرغب. لسبب أو لآخر ـ أن نلومه؛ عرفات الذى رفض أن يوقع فى كامب دافيد «مضيعًا الفرصة الأخيرة» (!) أو شارون الذى دخل بسنابكه إلى الأقصى، مستفزا و«هادما للمعبد» على من فيه. أو حماس التى رفضت أوسلو منذ البداية، ثم تمسكت بنتائج انتخابات «ديموقراطية»، لم يرغب فى الالتزام بها أى من الأطراف ذات العلاقة.

وربما لم يكن هناك جهد كاف (إلا من بعض الأكاديميين هنا أو هناك) لفهم وتفسير الواقع الذى من شأن معطياته (لا أوهامه وتخيلاته) أن يؤدى حتما إلى هذه النتيجة. رغم مئات الصور والابتسامات فى شرم الشيخ أو واشنطن، وعشرات التفاهمات وخرائط الطرق التى لم تؤد بكل من وثق بها إلا إلى قفار «التيه».

من بين أولئك ليف جرينبرج Lev Grinberg وهو أكاديمى إسرائيلى (يسارى) متخصص فى علم الاجتماع السياسى أعد دراسة مهمة حول ديناميات الفضاء السياسى فى إسرائيل وفلسطين، نشرها فى كتاب ترجمه إلى العربية المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية ـ مدار، ويصل فيه إلى أن أوسلو أتاحت لكل طرف أن «يتخيل السلام» وفق ما يريده، رغم البون الشاسع بين مايريده كل منهما. الأمر الذى أدى فى نهاية المطاف بالطرفين إلى مواجهة عنيفة ومتجددة، أشد شراسة ربما من أى وقت مضى.

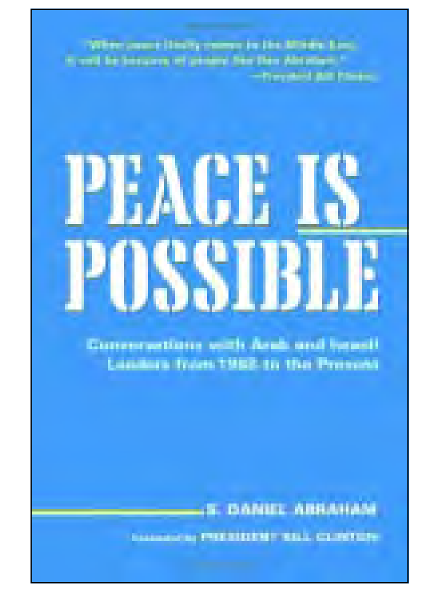
لأكاديميتها، تغرق الدراسة الوافية المتعمقة (٦٠٦ صفحات) فى التفاصيل. إلا أنك لابد أن تخرج منها بأن أوسلو لم تكن ضحية من عارضوها فقط، بل كانت فى الأغلب ضحية من «حلموا» بقدرتها على الإتيان بمعجزات فى غير زمن المعجزات. أولئك الذين ساعدهم «إرجاء البت فى كل شىء» للانطلاق بخيالاتهم الخاصة، وتوقع أن الحل النهائى الذى يرغبون فيه (أو بالأحرى الذى يقبلونه) هو الذى ستأتى به المسيرة فى نهاية المطاف.

حلم الفلسطينيون ـ أو معظمهم على الأقل ـ بدولة مستقلة ذات سيادة، ولم يرغب «الحالمون» أن يعكِّروا صفو أحلامهم بحقيقة تلك المئات من البؤر الاستيطانية «السرطانية»[٣] وبخرائط الجدار الأفعى (٧٢٥ كم) الذى يقطع أوصالَ الدولة «المفترضة». كما رفضوا أن يفسدوا هدوءَ أحلامهم بالاستماع إلى «نشاز» ماقاله رابين «عراب السلام» منذ اليوم الأول للمسيرة وبوضوح قاطع: «أيا ما كان الأمر فلا عودة لحدود ٦٧».



على مدى ١٥ عاما التقى دانيال بكل الزعماء العرب المعنيين، كما حرص على على الاقتراب من المؤثرين فى الكواليس، مثل «الأمير» بندر، و«المستشار» أسامة الباز





على الضفة الأخرى من نهر الأردن، أو بالأحرى من الجسر الذى أسمته فيروز، ومعها جيلنا كله «جسر العودة»، بنى الإسرائيليون «خيالاتهم» على القول القديم لـ Alexander Keith (١٧٩٥ ـ ١٨٧٣): «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»[٤] وبدوا كأنهم اطمأنوا إليه.. وصدقوه. فباتوا يتحدثون عن دولة «يهودية خالصة» (!) وعن حقوق توراتية لاتقبل المساومة فى «يهودا والسامرة»[٥]

لم يكن هناك أبداً طريق واحد، ولا خريطة لذلك الطريق.



فور أن قام رابين بمصافحة يد عرفات «الممدودة» فى صباح ذلك اليوم من عام ١٩٩٣، انطلق آلاف الفلسطينيين فى شوارع القدس الشرقية يحملون أعلاما فلسطينية، لايعرف أحدٌ أين كانوا يخبئونها، ولأية مناسبة. وبدا واضحا تماما أن السلام الذى يحتفلون به فى واشنطن يعنى لدى هؤلاء الذين انطلقوا إلى الشوارع «الاستقلال».. ولا شىء غيره. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، حمائمهم مثل صقورهم، فلم يكن يعنى ذلك بالضبط. وذلك ماسمحت به الاتفاقات المكتوبة التى كان جرى توقيعها، والتى تركت كل المسائل مفتوحة للمفاوضات المستقبلية؛ الأرض، والحدود. واللاجئين، فضلا عن وضع القدس التى هى «العاصمة» فى الخطاب السياسى لكلا الطرفين. وحسب الاتفاق، فكل تلك الأمور كان يفترض أن يتم حسمها نهائيا فى غضون خمسة أعوام لاغير (!)

جرى اغتيال رابين (نوفمبر ١٩٩٥)، وبغض النظر عما إذا كان ذلك قد غير من الأمر شيئا، فسرعان ماذهبت «سكرة» أنخاب التوقيع فى البيت الأبيض. وبدأ الجميع يتعثر فى «صخور الحقائق» على الأرض. كان طبيعياً أن يستمر النضال / البحث الفلسطينى عن «الدولة» التى وُعدوا بها فى أوسلو. وخاصة أنهم يعتقدون أن رابين لم يذهب إلى هناك إلا مضطرا بعد أن فشلت سياسته فى «تكسير العظام» فى إجهاض الانتفاضة الأولى. وكان أن أدى استمرار الإذلال اليومى للاحتلال، وعجرفة المستوطنين، وسياسة مصادرة الأراضى وتدمير المنازل، بالفلسطينيين إلى اليأس من تحقيق السلام الذى وعدت به أوسلو. وبعد سبعة أعوام كاملة (كان يفترض أن يكون قد انتهى فيها كل شىء) اندلعت الانتفاضة الثانية. وسرعان ماجرى توصيفها والتعامل معها إسرائيليا ـ حتى بين أوصاف النخبة الثقافية ـ بوصفها «حربا على البيت». مماكشف بوضوح أن الإسرائيليين «الذين حلموا بالسلام» لم يكونوا على استعداد أبدا لأن يعتبروا أن ثمنه هو عودة الأرض التى لم يتخلوا أبدًا عن فكرة أنها باتت «جزءا من بيتهم». وسرعان مابدا أن لافارق «محسوسا» هناك بين الصقور والحمائم. فاليمينيون الذين عارضوا أوسلو منذ البداية، اعتبروا أن الانتفاضة «ضد الاحتلال» دليلُ على أن «لا أمن» مع الفلسطينيين. أما اليساريون الذين بنوا أوهامهم على أن الفلسطينيين سيكتفون بماهو «أقل من دولة ذات سيادة»، فقد أعلنوا أنهم «أفاقوا» من أوهامهم بخصوص الفلسطينيين.

صيغة بيجين

الحاصل إذن أن رابين اغتيل (رغم تعهده القاطع بعدم العودة إلى أراضى ٦٧)، وساد وقتها فى المجتمع الإسرائيلى «الهش» والذى يستمد قوته من «وحدته» أن الاغتيال كان نتيجة للاستقطاب داخل الشعب. وعليه فقد أصبحت هناك ضرورة لاستعادة اللحمة، كما يذهب جرينبرج فى تحليله. وكان الأسهل بالطبع الاحتماء «بالميثولوجيا». والأساطير هنا لاتنحصر فى ما هو شائع من مفاهيم عقيدية حول «الوعد التوراتى» وأرض إسرائيل الكبرى.. إلخ، بل تمتد إلى ماهو أبعد من ذلك. كما يشرح جرينبرج ـ لتشمل الإيمان الراسخ بأن اليهودى «مهدَّد دائما» بمن حوله، الأمر الذى يجعل من هاجس الأمن أسطورة حاكمة لايتورع السياسيون عن استغلالها فى كل مناسبة.

هل من أفق إذن أمام شعار «الأرض

مقابل السلام»، كما نفهمه، والذى ترتكز عليه العملية السلمية برمتها، منذ بدأها الرئيس السادات قبل ثلاثة عقود؟ على الذين يحاولون إجابة واقعية على هذا السؤال أن يعودوا إلى وثائق «كامب دافيد» المصرية، ليروا كيف أن المفهوم الإسرائيلى الثابت للتعامل مع «الأراضى» التى احتلتها عام ١٩٦٧ أو «المناطق» باللغة الإعلامية الإسرائيلية الرسمية، بدا واضحا (أو ربما مخفيًا) فى الصياغة التى حاكها مناحيم بيجين «الداهية» فى اتفاقات السلام مع مصر. تعترف نصوص «إطار السلام فى الشرق الأوسط» الذى جرى توقيعه فى كامب دافيد فى السابع عشر من سبتمبر/أيلول ١٩٧٨ بالحقوق المشروعة «للشعب» الفلسطينى. وأنه سيجرى توفير حكم ذاتى «لسكان» الضفة الغربية وغزة (البند: أولا-أ)

كان الحكم الذاتى الذى اقترحه بيجين للسكان «دون السيطرة على الأرض». وهنا تكمن المشكلة، ومن ثم كل تداعياتها؛ استمرت إسرائيل فى الإتيان بكل الممارسات البغيضة للاحتلال على «الأرض»، دون أى مسؤولية قانونية حيال سكانها. كما استمرت فى بناء المستوطنات فى الضفة وغزة، وهى الصخرة التى يبدو أن المفاوضات ستنهار عليها هذه المرة. لقد كانت «صياغة بيجين» للاتفاق الإطارى فى كامب دافيد، حلا بارعا للتناقض الداخلى لأسطورة الوعد المتعلقة بالأرض، والتى بموجبها تعهد الليكود «بفرض السيادة الإسرائيلية على كل أراضى يهودا والسامرة». كما أنها تقدم حلا للهاجس الديموجرافى المؤرق لمستقبل الدولة الصهيونية. فالسيطرة الكاملة على الأرض دون الضم القانونى للمناطق «تكفينا شر الديموجرافيا، وتعفينا حرج الأبارتهايد، حيث لن نكون مضطرين لأن يتمتع السكان بأى من حقوق المواطنة» وستبقى إسرائيل فى التحليل النهائى «ديموقراطية» كما يريد العلمانيون. كما ستبقى «بلاحدود» نهائية، كما يريد الدينيون الذين لن يقبلوا التنازل عن حقهم فى «أرض الميعاد».

(يعتبر جرينبرج أن وجود الحدود قبل ١٩٦٧ كان من الممكن أن يسمح عمليا، من زاوية الرؤية الإسرائيلية بتخيل السلام دون أن «نعتبره الآن مهددًا لأرض إسرائيل التاريخية»)

تكشف القراءة المتأنية للفكر الإسرائيلى متمثلة فى كتابات المثقفين الإسرائيليين من اليمين واليسار عن أننا صرنا بصدد أسطورتين تبرران استمرار السيطرة على «المناطق». احداهما يمينية دينية تستند إلى «الوعد التوراتى»، والأخرى يسارية علمانية تستند إلى «الأمن». وفى الحالتين فالدولة «يهودية» وينبغى أن تظل كذلك، كما أن «المناطق هى ممتلكات لنا». الأمر الذى من شأنه بالضرورة أن يطرح اشكالية «الديموجرافيا»، بسؤالها المحرج لأولئك الحداثيين: «كيف ستتم المحافظة على الديموقراطية؟ وكيف سيمكن تعريف الحقوق المدنية والسياسية للسكان الفلسطينيين، فى حال جرى ضم «أرض إسرائيل» لدولة إسرائيل؟

وجد الإسرائيليون الحل دائما فى صيغة «بيجين - كامب دافيد» الجهنمية. وتتضح لنا من قراءة جرينبرج كيف تعاملت الحكومات المتعاقبة، دون فارق بين يسار ويمين، بطريقة مزدوجة على الدوام مع المناطق «يهودا والسامرة وغزة يشع». حيث استمرت بالإبقاء على الحدود، و«طمسها» فى آن واحد. أبقى الإسرائيليون على وصف «المناطق» - بلغتهم - كخارجية عن الدولة، وبالتالى لايصبح لسكانها أية حقوق مدنية، إلا أنها فى الوقت ذاته، طمست الحدود عن طريق بناء شبكة هائلة من المستوطنات، يسكنها اليهود «المواطنون» والذين هم بالتالى «المسيطرون»، والتعبير للكاتب الإسرائيلى ذاته. والذى يعتقد أن ذلك الوضع لابد أن يدفع بالفلسطينيين «المقهورين» إلى العنف. الأمر الذى من شأنه بالتالى أن يعزز إيمان الإسرائيليين - الخائفين تاريخيا من الإبادة - بأسطورة الأمن. وهكذا تدور الحلقة الجهنمية بلا نهاية.

عشية سفره إلى واشنطن لاستئناف «المسيرة»، ووسط اجتماع «تحضيرى» لمجلس وزرائه، قال نتنياهو مستنكرا أن يطالبه الفلسطينيون بتجميد البناء فى المستوطنات: «إننا نتركهم يبنون مدينة بكاملها فى يهودا والسامرة (يقصد الضفة)، ومعنا ينازعون فى كل بيت». نتنياهو إذن الذاهب إلى واشنطن بزعم البحث عما



«صياغة بيجين» فى كامب دافيد، قدمت للإسرائيليين حلا عبقرياً للتناقض الداخلى بين أسطورة الوعد المتعلق بالأرض، والهاجس الديموجرافى المتعلق بالمكان



تبقى من أوسلو، يعتبر أن أرض الضفة «أرضه» يبنى فيها مايشاء وقتما يشاء. وهو «يَمُن» على الفلسطينيين/ السكان أنه سمح لهم بالبناء (!) عقيدة «بيجين» هى إذن التى سبق أن ترسخت فى «كامب دافيد».

على أية حال لابد أن نلاحظ أن حكومات الليكود لم تعمل أبدا على تنفيذ وعدها الانتخابى بضم «يهودا والسامرة»، لأنها إذا فعلت، كانت ستقيم بيدها «دولة ثنائية القومية»، وهى إطارٌ سيكون بمقدور الفلسطينيين فى داخله المطالبة بالمساواة فى الحقوق على غرار صيغة جنوب أفريقيا، الأمر الذى سيؤدى فى نهاية المطاف عمليا إلى نهاية إسرائيل كدولة يهودية.

هذا المفهوم «غير الطبيعى» للحدود، القائم على صيغة «بيجين - كامب دافيد» يبدو أنه سيكون محورا للصيغة الإسرائيلية التى سيتم تسويقها للحل النهائى فى الجولة القادمة. مما سيجعلنا فى النهاية بصدد «بنتوستانات» مثلما كان قائما فى أواخر عهد التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا؛ أى دولة - أو بالأحرى - دويلات، محاطة فى كل حدودها من جانب الدولة الأم البيضاء.

ماذا سيبحث إذن العائدون إلى واشنطن «دون شروط مسبقة»؟

أغلب الظن أن هذا هو كل ماسيقدمه الإسرائيليون إلى الفلسطينيين الذاهبين إلى المفاوضات (مع مكافأة ترويجية Promotional Offer فى موضوع الأسرى وربما أجزاء من ضواحى القدس) وإن كان من غير المستبعد إعادة إحياء الأفكار القديمة لعبد السلام المجالى وطاهر المصرى حول الصيغة الأردنية. وفى المقابل، وك «حل نهائى» سيكون على الفلسطينيين (ومعهم كل العرب) الاعتراف بإسرائيل «كدولة يهودية»، الأمر الذى ينتفى معه عمليا الكلام عن «حق العودة»، وإن كان من الوارد الحديث عن تعويضات. كما سيكون على الفلسطينيين التخلى عن أى مطالب فى المستقبل، واعتبار أن القضية «منتهية».

أن تحصل على شىء، أفضل من أن لا تحصل على أى شىء على الإطلاق»، منطقٌ قديم لاجديد فيه. ولاغبار عليه، ولكن أن يصبح ذلك مقابل أن تتنازل نهائيا عن «كل شىء»، يصبح الأمر بالضرورة مدعاة للسؤال. وربما لما هو أكثر. ■

هوامش

(١) أعطى القرار ٥٦,٥٪ من مساحة فلسطين التاريخية لليهود الذين لم يكن عددهم يتجاوز ٣٣٪ من السكان ولايملكون أكثر من ٧٪ من الأرض

(٢) دايال إبراهام هو المؤسس والرئيس السابق لشركة Slim-Fast للوجبات السريعة، وإليها تعود ثروته.

(٣) ٢١٧ بؤرة استيطانية إسرائيلية داخل الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ وحوالى نصف مليون مستوطن (Land Research Center LRC & the Applied Research Institute - Jerusalem ARIJ)

(٤) اشتهرت العبارة بعد أن رددها الكاتب البريطانى اليهودى Israel Zangwill (١٨٦٤-١٩٢٦)، ثم جولدا مائير وغيرها من زعماء الصهيونية.

(٥) «يهودا والسامرة» هو الاسم الذى يطلقه اليهود على «الضفة الغربية»، فى إطار سياسة التهويد المستمرة، ونحن نستخدمه هنا أحيانا للتوثيق وحسب مقتضيات السياق.

لن تكون سياسة الولايات المتحدة قادرة على التوفيق بين الطموحات المعلنة لجورج ميتشل والتى تسعى إلى تسوية عن طريق التفاوض، وطموحات الجنرال كيث دايتون الذى كان يعمل على تصعيد الحرب الأهلية بين حماس وفتح



المحــو!!



نصـــير عـــروری

Naseer Aruri

■■ فى حين لا يزال هناك الكثير ممن يؤمنون بإمكانية تطبيق فكرة دولتين لكل منهما سيادتها: إسرائيل وفلسطين، بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط؛ إلا أن التاريخ والسياسة والجغرافيا جعلت هذا الحل بعيد المنال بالنسبة لبعض الناس؛ مهما كانت تغيرات الصيغ اللغوية البلاغية فى السياسة الخارجية الأميركية والتى قد تأتى بها إدارة أوباما. ـ فى الواقع، إذا ما كان تعامل أوباما وسفيرة بلاده فى الأمم المتحدة سوزان رايس مع تقرير جولدستون (حول جرائم الحرب الإسرائيلية على غزة) مثالا، فإن الفارق بين بوش وأوباما فى مسألة فلسطين/إسرائيل ربما يكون محض خيال.

نجد الآن أن الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية فى المراحل الأخيرة من تحقيق السيادة الفعلية على كل أراضى فلسطين التاريخية تقريبا. كانت ملكية اليهود للأراضى الفلسطينية بأكملها شرطا أساسيا لا غنى عنه للدولة الإسرائيلية ومؤسسيها من قادة الحركة الصهيونية ومنذ البداية. ـ كان هذا الهدف الرئيس يتوارى باستمرار بين حيل وقضايا أخرى كثيرة منها: «الأمن»، والاعتقاد الأبدى بكونهم ضحايا، والمحرقة النازية، ومطالب «الاعتراف» بكل من حق إسرائيل فى الوجود عموما، وبوصفها دولة يهودية تحديدا.

دخل المصطلح اليهودى «تهويد» الأرض لأول مرة إلى الخطاب العام فى عام ١٩٧٦، خلال المصادرات الهائلة للأراضى من مواطنى البلاد الفلسطينيين فى الجليل. ـ ويجب أن نعترف بأننا نشهد الآن تهويد ما تبقى للفلسطينيين من فلسطين التاريخية (مع استثناء محتمل لقطاع غزة).

إن الفشل فى فهم عملية التهويد، من جهة، وما يصاحبه من محو للوجود الفلسطينى بجميع أشكاله من جهة أخرى، يحكم علينا جميعا بأن نواصل منح إسرائيل وأنصارها القوة لإنجاز عملية إلغاء الهوية الفلسطينية وحلم إقامة الدولة الفلسطينية؛ حيث تواصل إسرائيل اقتلاع وتجريد أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين من أراضيهم وحقوقهم. ـ فى حين يستمر الحكم الذاتى محض وهم، تبقى المناورات «القانونية» والمصادرة والطرد واستخدام القوة الغاشمة هى الحقيقة الواقعة.

فى نيتى أن اجتنب الرطانة التقليدية والعبارات المستهلكة والتأكيد على الحقيقة التى نواجهها الآن، وذلك من خلال: أولا، دراسة وإلقاء الضوء على الوجود الفلسطينى الراهن فى فلسطين التاريخية؛ وثانيا، بواسطة التتبع النزيه للعملية التاريخية لتهويد البلاد؛ وثالثا، من خلال استكشاف الأدوار المتاحة للناس الذين يسعون لتحقيق العدالة للشعب الفلسطينى.

ومن ثم فإننا لا نبحث عن مانشيتات العناوين المثيرة، فى محاولة منا لأن نظل «ملتزمين بالموضوع الذى نتحدث فيه»؛ ولكن الالتزام الحقيقى بالموضوع يجب أن يقتصر على جوهر الأهداف الصهيونية بصرف النظر عما يختار نتنياهو أن يقوله ذات يوم عن الدولة الفلسطينية، أو ما قد يقوله أوباما عن بناء إسرائيل للمستعمرات (فى القدس والضفة الغربية).. قبل نحو تسعة أشهر، طلب الرئيس الأميركى الجديد من قادة إسرائيل تجميد بناء المستوطنات. ووفقا لصحيفة هآرتس الإسرائيلية، كانت إدارة أوباما قد وافقت فى نهاية أغسطس/آب (٢٠٠٩) على طلب اسرائيل باستثناء القدس الشرقية من المفاوضات الجارية بشأن التجميد «الوشيك» للمستوطنات. ـ وبحسب مسؤولين إسرائيليين ودبلوماسيين غربيين على حد سواء، اعترف جورج ميتشل المبعوث الأميركى للشرق الأوسط بحقيقة أن رئيس الوزراء الاسرائيلى بنيامين نتنياهو لن يعلن عن تجميد الاستيطان فى القدس الشرقية. ـ وقال المسؤولون أن الولايات المتحدة لن تؤيد بناء مستوطنات جديدة هناك، لكنها لن تطلب من تل أبيب أن تعلن عن تجميدها.



مصطلح تجميد المستوطنات غير موجود فى قاموس نتنياهو ولا فى قواميس أى من وزراء حكومته؛ فبرنامجهم الذى حجر الأساس فيه هو الاستيطان الاستعمارى والتطهير العرقى يحول دون التوصل إلى تسوية فيما يتعلق بالأرض. ـ فهم يؤمنون أن الأراضى الممتدة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط لا مكان فيها إلا لدولة واحدة فقط هى إسرائيل.. ومن ثم، فإن انتظار ما سيفعله أوباما ليحصل للفلسطينيين على استقلالهم يعد ضربا من العبث.

وهذا بالفعل هو ما نتعلمه من استعراض سياق التاريخ الصهيونى قبل وبعد عام ١٩٦٧.. فقد كانت الاهتمامات الأساسية لدى إسرائيل هى الأرض والماء والخصب والمواقع الاستراتيجية وأقل عدد ممكن من السكان الأصليين لصالح «الأمن» الديموغرافى.. ومرة أخرى نجد أن التسوية فيما يتعلق بالأرض لا تلوح فى الأفق.

فى الوقت نفسه، لن تكون سياسة الولايات المتحدة قادرة على التوفيق بين الطموحات المعلنة لجورج ميتشل والتى تسعى إلى تسوية عن طريق التفاوض، وطموحات الجنرال كيث دايتون الذى كان يعمل على تصعيد الحرب الأهلية بين حماس وفتح، وتدريب ميليشيات حركة فتح لتكون قوى مكافحة للمقاومة. كما لم تتخل الولايات المتحدة عن أساليب ومكائد إليوت أبرامز التى تنتمى لزمن فضيحة إيران كونترا، رغم تغير الشخصيات الفاعلة فى البيت الأبيض. ـ تولى الجنرال دايتون التأكد من أنه بينما تواصل إسرائيل التوسع ويصير الاحتلال أشد وأقسى، ـ يتم تحويل المقاومة الفلسطينية إلى عملاء للعدو.. الهدف من تكوين ميليشيات دايتون ومحمد دحلان ليس مواجهة الاحتلال؛ وإنما التصدى للمقاومة، وهذا ما يوصف رسميا بأنه فرض للقانون والنظام.

ومع عدم وجود توجهات نحو تسوية سلمية حقيقية، لاتزال إسرائيل مستمرة فى الاستيلاء على الأراضى، ولايزال الفلسطينيون يعانون من نكبة مستمرة، قد يفضل البعض تسميتها بالنكبة الثانية. ـ فما هى النكبة الأولى فى الأصل؟ ألم تكن فقدان الأرض والماء، والتطهير العرقى، والاقتلاع، والتهويد؟ ـ هذا هو بالضبط ما يجرى فى الوقت الحاضر... استمرارا لما حدث عام نكبة ١٩٤٨.. فاستعمار مناطق رأس العمود والشيخ جراح فى القدس الشرقية عام ٢٠٠٩ لا يختلف كثيرا عن استعمار قطمون وشارع يافا والطالبية وباقى ما أصبح يعرف باسم القدس الغربية بعد عام ١٩٤٨.

خلال الأسبوع الأخير من أغسطس ٢٠٠٩، وافقت السلطات الإسرائيلية على خطط لبناء مئات الوحدات الاستيطانية فى قلب القدس الشرقية العربية.. تقع المستعمرات الجديدة فى هذه الخطط فى قلب حى رأس العمود العربى المكتظ بالسكان ولذلك فهى تستبعد أى احتمال لأن تصير القدس الشرقية عاصمة المستقبل للدولة الفلسطينية المرتقبة.. ومن هنا تأتى أهمية أحداث ١٩٤٨ والحاجة لدراسة التوسع الإسرائيلى الراهن فى سياق النكبة. ـ كذلك، لم يحدث أى تحسن جدى فى رد فعل القادة الفلسطينيين المعنيين ذاتيا تجاه هذا الاستعمار الاستيطانى والتطهير

Naseer Aruri is an American professor and author of several books on the Israeli-Palestinian conflict. He is the Chancellor Professor (Emeritus) of Political Science at the University of Massachusetts, Dartmouth. He is the author of Dishonest Broker: Americas Role in Israel and Palestine (South End Press, 2003)

ترجمة: مازن النجار

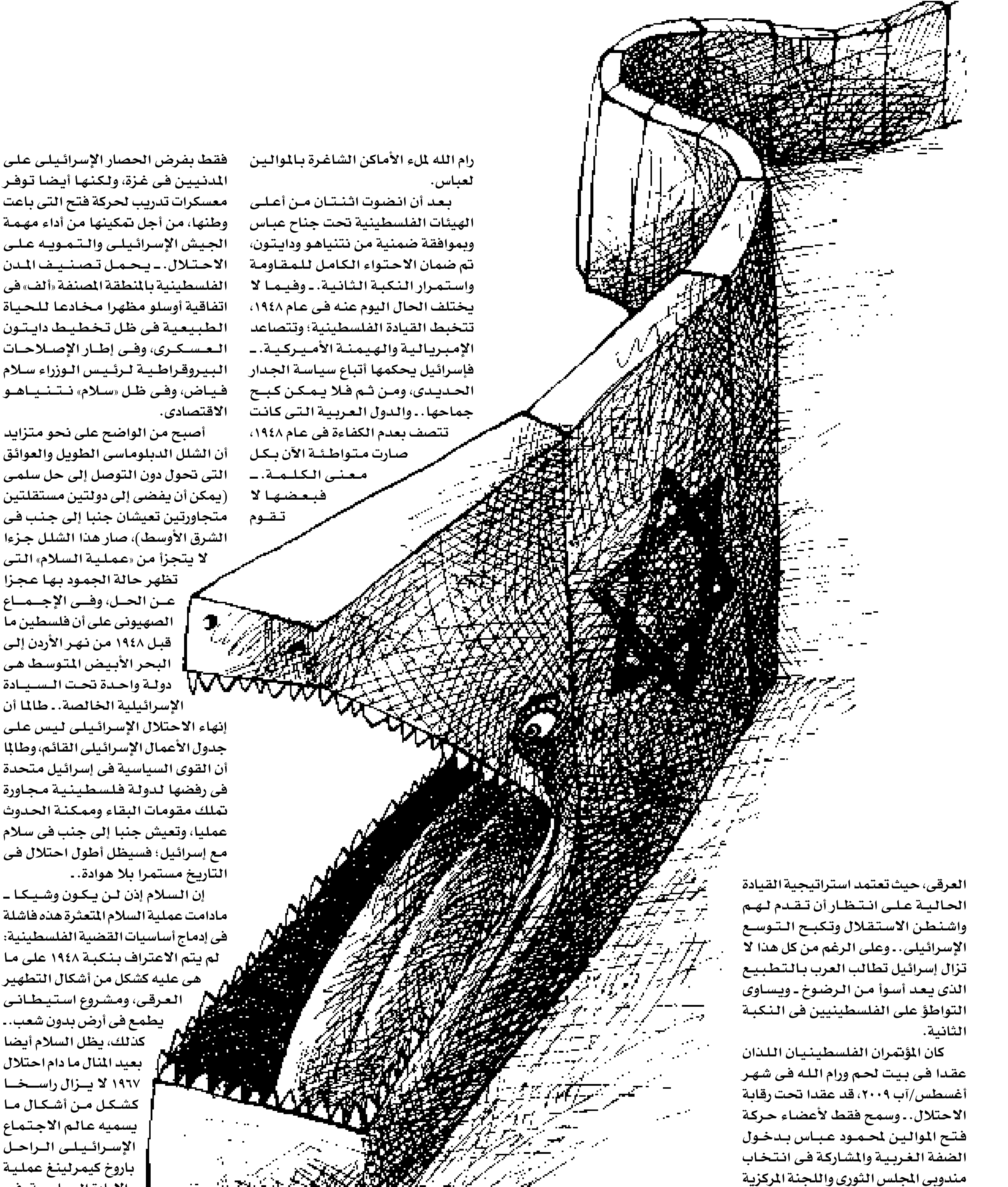
العرقى، حيث تعتمد استراتيجية القيادة الحالية على انتظار أن تقدم لهم واشنطن الاستقلال وتكبح التوسع الإسرائيلى.. وعلى الرغم من كل هذا لا تزال إسرائيل تطالب العرب بالتطبيع الذى يعد أسوأ من الرضوخ - ويساوى التواطؤ على الفلسطينيين فى النكبة الثانية.

كان المؤتمران الفلسطينيان اللذان عقدا فى بيت لحم ورام الله فى شهر أغسطس/آب ٢٠٠٩، قد عقدا تحت رقابة الاحتلال.. وسمح فقط لأعضاء حركة فتح الموالين لمحمود عباس بدخول الضفة الغربية والمشاركة فى انتخاب مندوبى المجلس الثورى واللجنة المركزية لحركة فتح. - وعلى نفس النحو، تم السماح فقط للموالين بحضور اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى الذى عقد على عجل فى رام الله لملء الأماكن الشاغرة بالموالين لعباس.

بعد أن انضوت اثنتان من أعلى الهيئات الفلسطينية تحت جناح عباس وبموافقة ضمنية من نتنياهو ودايتون، تم ضمان الاحتواء الكامل للمقاومة واستمرار النكبة الثانية. - وفيما لا يختلف الحال اليوم عنه فى عام ١٩٤٨، تتخبط القيادة الفلسطينية؛ وتتصاعد الإمبريالية والهيمنة الأميركية. - فإسرائيل يحكمها أتباع سياسة الجدار الحديدى، ومن ثم فلا يمكن كبح جماحها.. والدول العربية التى كانت تتصف بعدم الكفاءة فى عام ١٩٤٨، صارت متواطئة الآن بكل معنى الكلمة. - فبعضها لا تقوم فقط بفرض الحصار الإسرائيلى على المدنيين فى غزة، ولكنها أيضا توفر معسكرات تدريب لحركة فتح التى باعت وطنها، من أجل تمكينها من أداء مهمة الجيش الإسرائيلى والتمويه على الاحتلال. - يحمل تصنيف المدن الفلسطينية بالمنطقة المصنفة «ألف» فى اتفاقية أوسلو مظهرا مخادعا للحياة الطبيعية فى ظل تخطيط دايتون العسكرى، وفى إطار الإصلاحات البيروقراطية لرئيس الوزراء سلام فياض، وفى ظل «سلام» نتنياهو الاقتصادى.

أصبح من الواضح على نحو متزايد أن الشلل الدبلوماسى الطويل والعوائق التى تحول دون التوصل إلى حل سلمى (يمكن أن يفضى إلى دولتين مستقلتين متجاورتين تعيشان جنبا إلى جنب فى الشرق الأوسط)، صار هذا الشلل جزءا لا يتجزأ من «عملية السلام» التى تظهر حالة الجمود بها عجزا عن الحل، وفى الإجماع الصهيونى على أن فلسطين ما قبل ١٩٤٨ من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط هى دولة واحدة تحت السيادة الإسرائيلية الخالصة.. طالما أن إنهاء الاحتلال الإسرائيلى ليس على جدول الأعمال الإسرائيلى القائم، وطالما أن القوى السياسية فى إسرائيل متحدة فى رفضها لدولة فلسطينية مجاورة تملك مقومات البقاء وممكنة الحدوث عمليا، وتعيش جنبا إلى جنب فى سلام مع إسرائيل؛ فسيظل أطول احتلال فى التاريخ مستمرا بلا هوادة..

إن السلام إذن لن يكون وشيكا - مادامت عملية السلام المتعثرة هذه فاشلة فى إدماج أساسيات القضية الفلسطينية: لم يتم الاعتراف بنكبة ١٩٤٨ على ما هى عليه كشكل من أشكال التطهير العرقى، ومشروع استيطانى يطمع فى أرض بدون شعب.. كذلك، يظل السلام أيضا بعيد المنال ما دام احتلال ١٩٦٧ لا يزال راسخا كشكل من أشكال ما يسميه عالم الاجتماع الإسرائيلى الراحل باروخ كيمرلينغ عملية «الإبادة السياسية» فى كتابه الذى يحمل عنوانه نفس التعبير، حيث يعرفها بأنها عملية هدفها النهائى هو إنهاء وجود الشعب الفلسطينى ككيان وطنى



المحـــــــــــــــــو!!

واجتماعى واقتصادى مشروع، وهو ما قد يتضمن أيضا التطهير العرقى الجزئى أو الكلى.

الإبادة السياسية التى تكمل عملية المحو هى عملية تتضمن نطاقا واسعا من الأنشطة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والبيروقراطية تهدف إلى تدمير الوجود السياسى والوطنى لمجتمع بأسره ومن ثم تنكر عليه حقه فى تقرير مصيره. هذا هو ما ظلت إسرائيل تفعله بالشعب الفلسطينى بإصرار منذ عام ١٩٤٨ وإلى الآن.- حيث تقوم بتدمير نسيج الشعب الفلسطينى وطمس الوجود الفلسطينى.- يلخص جارى زاتسمان الفارق الرئيسى بين نظام الفصل العنصرى وبين الصهيونية فى مجلة Dissident Voice (٢٠٠٥)، قائلا:

«على الرغم من كل الشرور الخطيرة المؤكدة والجرائم العديدة ضد الإنسانية التى ارتكبت باسم نظام الفصل العنصرى الأبيض فى جنوب أفريقيا، بما فيها المجازر الفعلية، إلا أنه لم يكن قائما على ارتكاب الإبادة الجماعية.. أما الصهيونية من الجهة الأخرى فقد عمدت منذ البداية إلى إنهاء التواجد الاجتماعى والثقافى والسياسى والاقتصادى للشعب الفلسطينى؛ أى إبادته إبادة جماعية، على الأقل منذ الوقت الذى أوصى فيه ثيودور هرتزل فى يومياته أن يتم نقل السكان الفلسطينيين المعدمين إلى مكان آخر بسرية وحذر».

لاتزال هذه العملية جارية، حيث تم تضمينها فى حروب ١٩٦٧، ١٩٧٦، و١٩٨٢، و٢٠٠٢ (مجزرة جنين)، ٢٠٠٦ (الحرب على لبنان)، وفى الآونة الأخيرة مجزرة غزة (٢٠٠٨/٢٠٠٩).- فعلى مدار ثلاثة أسابيع، قدر كم المتفجرات التى ألقتها إسرائيل بأكثر من مليون ونصف طن على قطاع غزة الذى يقطنه ١.٥مليون نسمة، وهو ما يعد من أكثر مناطق العالم كثافة سكانية حيث يكون من الصعب التمييز بين المدنيين والمقاتلين.

خلال ٢٢ يوما من قصف بلا هوادة، قدر المركز الفلسطينى لحقوق الإنسان عدد القتلى الفلسطينيين بنحو ١٤١٧ منهم ٩٢٦ مدنيا، فيهم ٣١٣ طفلا و١١٦ من النساء..وكان عدد القتلى من رجال الشرطة المدنية ٢٥٥، وعدد المقاتلين ٢٣٦ وهو ما يمثل نسبة ١٦.٧٪ من إجمالى الوفيات.- يشمل عدد القتلى من المدنيين ١٦ مسعفا وأربعة صحفيين.. فى حين يقدر عدد المصابين بما يقرب من ٥٥٠٠ جريح، ثلثاهم من المدنيين.. وتعرضت للتدمير الكامل العديد من المدارس والمساجد والمستشفيات والمبانى السكنية والتجارية والمرافق التابعة للأمم المتحدة.

فى تقرير مطول لمجموعة الأزمات الدولية (ICG) من ٤٩ صفحة تحت عنوان «المهمة التى لم تكتمل فى غزة» والذى نشر يوم ٢٣ أبريل/نيسان ٢٠٠٩، حذرت فيه المجموعة من أن الموقف فى غزة سيصل مرة أخرى إلى ذروته.. فغزة -على حد وصف التقرير- عبارة عن انفجار وشيك الوقوع.. يسجل التقرير ضحايا الهجوم الإسرائيلى العنيف الذى استمر لمدة ٢٢ يوما فى ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٨ ويناير/كانون الثانى ٢٠٠٩ قائلا أنه خلف ١٤٣٠ قتيلا من سكان غزة و٥٣٠٠ جريح و٩٠ ألفا بلا مأوى.. كما أورد التقرير أنه تم تدمير سبعة مصانع كبيرة للمنسوجات فى غزة مما أدى إلى إغلاقها، بالإضافة إلى تدمير ٢٢ من أصل ٢٩ مصنعا للخرسانة، ودكت مناطق صناعية كاملة، وتم تخريب ٦٠ بالمائة من الأراضى الزراعية المحاذية للحدود مع إسرائيل، مما أدى إلى توقف فعلى للنشاط الزراعى بها.

يجب أن ينظر إلى رد إسرائيل الذى تعمدت أن يكون غير متناسب مع صواريخ حماس المحلية الصنع على أنه محاولة منها لكسر إرادة المقاومة لدى الفلسطينيين.. إذا ما كان هذا هو الهدف بالفعل، فقد منى بالفشل، بيد أن حلم قيام الدولة الفلسطينية لم يقترب أيضا من التحقق.. ما حدث فى العدوان على غزة فى ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ليس إلا نكبة أخرى. إلا أنها هذه المرة تمت بتصريح من أكبر قوة عظمى فى العالم.

لطالما عارضت الولايات المتحدة الأمريكية حل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى بما يتفق مع الإجماع الدولى المتمثل فى: الانسحاب الكامل إلى حدود ١٩٦٧، إقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة متصلة الأراضى، والإقرار الفعلى لحل الدولتين وليس فقط بالخطاب والتصريحات السياسية، وإلغاء ضم القدس الشرقية. لكن على النقيض من ذلك، لم تأخذ أى حكومة إسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ ولا أى إدارة أميركية مسألة الانسحاب الكامل على محمل الجد، ولم تستجب للمطالبات العالمية فى هذا الصدد.

قال القاضى غولدستون أمام لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان أثناء تقديم تقريره: «استمرت ثقافة الإفلات من العقاب لفترة طويلة للغاية.. ووصل عدم المساءلة عن جرائم الحرب والجرائم المحتملة ضد الإنسانية إلى حد الأزمة». - وأضاف قائلا: «إن إدارة أوباما، ووسائل الإعلام الأميركية وكلا القياديتين فى الكونغرس الأميركى جميعهم جزء من المشكلة.. لذلك فإن أمريكا لم تكن ولن تكون جزءا من الحل». ■

فـــى المـــكـــتـــبـــــــــة

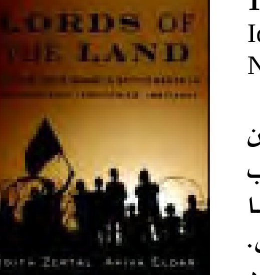
Dishonest Broker: The role of the United States in Palestine and Israel
Nasser Aruri
South End Press; 2nd edition (April 1, 2003)

آخر أعمال نصير عرورى Naser Aruri، يركز الكتاب على فشل «عملية السلام» فى الشرق الأوسط. فى كتابه، يحلل عرورى العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والخصمين الأساسيين. الفلسطينيين وإسرائيل. ويجادل بأن سياسة الولايات المتحدة الرافضة للمشاركة الفلسطينية والحقوق الفلسطينية انخرطت فى التركيز على «عملية» السلام مما ألهاها عن التركيز عن السلام فى حد ذاته.

يجادل عرورى أيضا بأن العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، والتى تحولت إلى تحالف استراتيجى بعد حرب ١٩٦٧أدت إلى استبعاد دور الولايات المتحدة كوسيط محايد من جهة. وإلى إقصاء كل الآخرين الذين كان من الممكن أن يلعبوا دورا فى صنع السلام. وللأسف، لايزال احتكارا للولايات المتحدة الدبلوماسى يمثل الوسيلة الأكثر فاعلية لتحقيق أهداف إسرائيل. إنها تحافظ على إسرائيل وتحميها من المساءلة الدولية وتُهندس الجمود السياسى الذى يسمح للحكومة الإسرائيلية بالتفاوض إلى ما لا نهاية.

وقد قامت أحداث ١١/ سبتمبر (أيلول) بتعزيز موقف الولايات المتحدة فى صالح إسرائيل حتى تقاربت السياستان إلى حد التطابق، فأصبحت سياسة إسرائيل هى بعينها سياسة الولايات المتحدة.

■



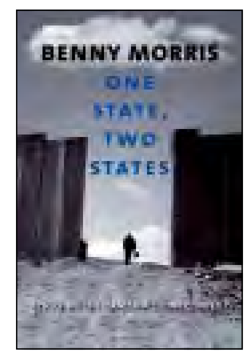
Lords of the Land: The War for Israel's Settlements in the Occupied Territories, 1967-2007
Idith Zertal
Nation Books (25 Oct 2007)

يحكى الكتاب القصة المأسوية للاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية وقطاع غزة. فى أعقاب حرب ١٩٦٧ وانتصار إسرائيل المدمر على جيرانها العرب، حين حلت كارثة على روح ونفس دولة إسرائيل.

استناداً إلى سنوات من البحث، يركز هذا السرد على المستوطنين أنفسهم، ويظهر الدور الذى لعبته الدولة الإسرائيلية فى رعايتهم من خلال مساعدات اقتصادية وقانونية واسعة النطاق. يعتبر الكاتب بأن الاحتلال قد غير أُسس المجتمع الإسرائيلى، اقتصاده، جيشه، تاريخه، لغته ومكانته الدولية. يلاحظ زيرتال Zertal أن: «الغالبية العظمى من الـ٥,٦ مليون إسرائيلى الذين يعيشون فى بلدهم لا يعرفون أى واقع آخر». ويضيف: «الغالبية العظمى من الـ٥,٣ مليون فلسطينى الذين يعيشون فى المناطق المحتلة لا يعرفون أيضا أى واقع اخر». الاحتلال العسكرى المطول، والمستوطنات اليهودية المعززة إياه، أطاحت بحكومات إسرائيلية وأودت بالديمقراطية الإسرائيلية وثقافتها السياسية إلى حافة الهاوية.

■

One State, Two States: Resolving the Israel/ Palestine Conflict
Benny Morris
Yale University Press (March 23, 2010)



«أكثر ما هو لافت فى أعمال موريس Morris كمؤرخ أنه لا يجامل، ولايجمل من تحيز أى شخص، وبالأخص تحيزه هو» هكذا وصفه دافيد ريمنيك David Remnick فى مقالته فى الـ New Yorker،

والتى تزامنت مع نشر موريس Morris لكتابه «١٩٤٨: A History of the First Arab-Israeli War».

الآن، وبنفس الالتزام والموضوعية التى طالما ميزت نهجه، حول موريس Morris اهتمامه إلى تراث أحداث ١٩٤٨، والإختيارات الملموسة لمستقبل فلسطين وإسرائيل.

يتناول الكتاب ويدقق فى تاريخ أهداف الحركة الوطنية الفلسطينية والحركة الصهيونية، ثم ينظر فى مختلف الاقتراحات سواء المروجة لدولة واحدة أو لدولتين، والتى تتبناها تيارات مختلفة داخل الحركتين. وينظر أيضاً الكتاب فى رغبة (أو عدم رغبة) الحركات المختلفة على إيجاد حل مبنى على التضحية. يقيم موريس Morris امكانية تحقيق وعملية الحلول المقترحة فى ظل الوقائع المعقدة والقاسية.

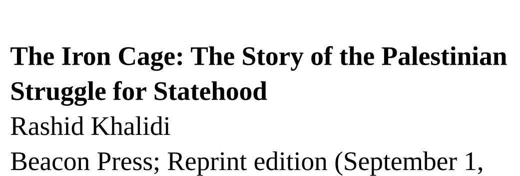
طوال حياته المهنية الرائدة، قام موريس Morris بتشكيل فهم الصراع العربى الإسرائيلى. وهنا، مرة أخرى، يصل إلى طريقة جديدة فى التفكير فى الخلاف، موجداً بصيصا من الأمل فى منطقة هى فى أمس الحاجة إليه.

■

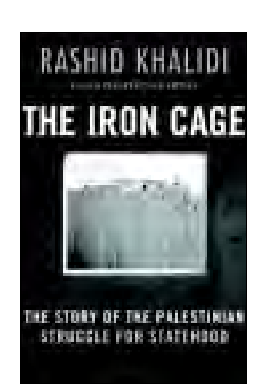
A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples
Ilan Pappe
Cambridge University Press; 2nd edition (July 31, 2006)

كتاب ايلان بابيه Ilan Pappe هو قصة فلسطين، أرض يسكنها شعبان وهويتان وطنيتان. تبدأ القصة بالعثمانيين فى أوائل القرن التاسع عشر، فى عهد محمد على، وتتتبع مسار المنطقة مع قدوم الصهاينة الأوائل، مروراً بالانتداب البريطانى، وإنشاء دولة إسرائيل فى ١٩٤٨، حتى الحروب والنزاعات اللاحقة والتى بلغت ذروتها فى الانتفاضتين (١٩٨٧و٢٠٠٠). تقدم هذه الاحداث الخلفية اللازمة لسرد وشرح بناء «القوميتين» الصهيونية والفلسطينية، ولكن تظل القصة فى الأساس قصة أناس عاشوا خلال هذه الأوقات. إنها قصة معنى التعايش والتعاون، كما انها قصة عن القمع والاحتلال. اشتهر ايلان بابيه Ilan Pappe بكونه من المؤرخين الجدد ومعلق سياسى فى القضية الفلسطينية الاسرائيلية. كتابه هذا هو مساهمة فريدة من نوعها فى تاريخ هذه الارض التى كثر عليها النزاع، وهو كتاب مهم لكل المعنيين بأمور المنطقة. يُدرس ايلان بابيه Ilan Pappe السياسة بجامعة حيفا بإسرائيل، وقد كتب على نطاق واسع فى قضايا السياسة فى الشرق الأوسط، وهو شهير بكونه من المؤرخين الجدد وبانتقاده لسياسة إسرائيل تجاه الفلسطينيين. من بين مؤلفاته The Making of the Arab-Israeli Conflict,1951 The Israeli-Palestine Question.

■



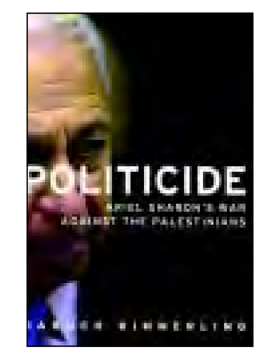
The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood
Rashid Khalidi
Beacon Press; Reprint edition (September 1, 2007)



يعرض رشيد خالدى Rashid Khalidi، وهو مؤرخ وخبير بارز فى شؤون الشرق الأوسط والنزاع الاسرائيلى الفلسطينى، وجهة نظر مهمة للمحاولات الفلسطينية لتحقيق الاستقلال واقامة دولة فلسطينية. يركز خالدى khalidi على فترة الانتداب البريطانى (١٩٢٠-١٩٤٨) والتى وضعتها عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، ويصف الطريقة التى تغلبت بها أقلية يهودية أوروبية حديثة الوصول إلى المنطقة. بالمساعدة من حليفتها الامبريالية. على مطالب وحقوق السكان الأصليين من الأغلبية العربية فيما أصبح إسرائيل والأراضى المحتلة. يُلقى خالدى khalidi الضوء على حال الفلسطينيين فى ظل الانتداب البريطانى وعلى العقبات النظامية والمؤسسية والدستورية التى واجهوها فى تطوير أى كيان شبيه بالدولة. خلافاً للوعود البريطانية بالاستقلال العربى والمادة ٤ من ميثاق عصبة الأمم. وفى الوقت ذاته، أمكن للأقلية اليهودية الاعتماد على نظام متحيز لصالحها لتقوم بتطوير الهياكل والمؤسسات التى أصبحت الحكومة الإسرائيلية فى ١٩٤٨ فى ظل طرد قسرى لأكثر من نصف السكان الأصليين. فى سرده لهذا التاريخ، يحرص خالدى khalidi أيضا على أن يرصد اخطاء الفلسطينيين وقياداتهم.

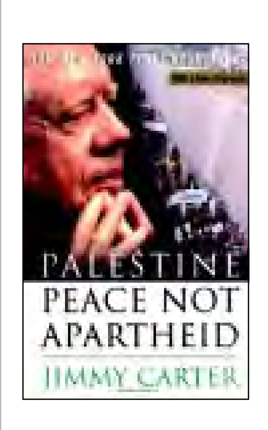
■

Politicide: Ariel Sharon's War Against the Palestinians
Baruch Kimmerling
Verso (July 2003)
(from Publishers Weekly)



يركز كميرلنج kimmerling، وهو واحد من الأكاديميين الإسرائيليين اليساريين المعروفين، فى هذا العمل على رئيس وزراء إسرائيل الأسبق آرييل شارون. ويتهمه بممارسة «الإبادة السياسية»، والتى يعُرفها بالأنشطة التى تسعى إلى «تدميرالوجود السياسى الوطنى لمجتمع بأكمله وبالتالى حرمانه من تحديد مصيره». ويقول كميرلنج Kimmerling أن هذه السياسة لطالما كانت هدفا من أهداف شارون، سواء فى أعوامه كقائد فى غارات انتقامية فى الخمسينيات أو فى حرب لبنان فى ١٩٨٢ أو فى سياساته كرئيس للوزراء. استخدم شارون، كما يضيف كمرلنج Kimmerling، آخر خطة سلام ـ «خارطة الطريق» المدعومة من قبل إدارة بوش ـ كذريعة: أنه يعتمد على الفلسطينيين ليعطوه عذراً للتمادى فى أهدافه. حرب ١٩٦٧ هى اللحظة الحرجة فى تحليل كمرلنج Kimmerling. ففوز إسرائيل بالحرب منحها السيطرة على الضفة الغربية، كما أنه شجع المتعصبين من القوميين على صم أذانهم عن الفلسطينيين وحقوقهم الأساسية. وكانت النتيجة تصلبا فى المواقف حال فى نهاية الأمر دون التوصل إلى معاهدة سلام مُرضية.

■



Palestine: Peace Not Apartheid
Jimmy Carter
Simon & Schuster (September 18, 2007)

من الصعب استخدام معايير قياسية لتقييم هذا الكتاب. الرئيس الأسبق كارتر ليس بقارئ جيد، ولا هو بـ literary stylist. ليس هناك موسيقى أو بلاغة فى جمله المتواضعة. لكن يشعر كارتر بقوة بأن ما لديه أن يقوله غائب عن الخطاب العام والقرارات السياسية، كما هو يعرف أن وضعه وصوته كفيلان باعطاء قيمة لرأى لولاه كان لابد أن يرفض بصورة قاطعة، بعد أن يتم ادراجه تحت بند الدعاية المناهضة لإسرائيل. يوضح كارتر أن إسرائيل لم تلتزم أبدا بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ وغيره من القرارات الأخرى، وأنها لم ترق إلى مستوى الاتفاقات التى تعهدت بها على مر السنين فى واشنطن وأوسلو وغيرها. فهى تواصل الاستيلاء على الأراضى الفلسطينية وسجن الآلاف من الرجال الفلسطينيين والنساء والأطفال. ومع أنه لايعفى عرفات من بعض المسؤولية، إلا أن كارتر يلوم بوضوح الإسرائيليين ومؤيديهم فى واشنطن، ويعتبرهم مسؤولين عن الحالة الراهنة، وخاصة بوش ورايس اللذين كتما الحقائق المرتبطة بهذا الموضوع طوال ستة أعوام، وحتى أثناء غزو لبنان. سيشكك الكثيرون فى الحقائق التى يستند إليها كارتر، كما سيقومون بمعارضة أرائه، ولكن يستمر كارتر فى موقفه الذى يبدو أنه يقتنع به تماما؛ أنه إذا كنا نريد بالفعل فهم وتشجيع التغيير فى المنطقة، فعلينا أن نعرف كلا الجانبين من القصة.

■



المهاجرون اليهود يصلون إلى حيفا ـ ١٩٤٨
© Dmitri Kessel

فتاة من مسيحيى فلسطين ـ ١٩٤٧

فن الممكن!

عزام التميمى



بسبب موقعها بين الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية، اعتنقت الصفوة الخزرية الملحدة الديانة اليهودية فى أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسى



أسطورة العرقية اليهودية

■■ «فى بداية القرن السادس، تحول ملك اليمن – ويدعى «ذو نواس» – وربما أيضا جزء من شعبه، إلى الديانة اليهودية. وقد غير اسمه إلى «يوسف» وأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن اليهود» (سولومون جرايزيل Solomon Grayzel، تاريخ اليهود A History of the Jews، طبعة جديدة منقحة، دار نشر ميريديان Meridian، نيويورك، ١٩٨٤، صفحة ٢٢٥. وطبقا لابن إسحق، المؤرخ الشهير وكاتب سيرة النبى (عليه الصلاة والسلام)، كان «ذو نواس» ابنا لـ «تبان أسعد أبو كرب»، المعروف أيضا بـ «التبع»، والذى غزا يثرب (المدينة) وعاد منها باثنين من الحاخامات من بين سكانها من اليهود. وقد تحول جزء من شعب اليمن – من بينهم «ذو نواس» – إلى الديانة اليهودية على أيدى هذين الحاخامين. مقتبس بواسطة «ابن كثير» فى تفسيره للقرآن، الجزء الرابع، صفحة ٤٩٥).

«بحلول القرن السادس، كان اليهود قد وصلوا إلى مكة ويثرب، المدينتين الهامتين فى الجزيرة العربية، وما حولهما. لم يكن هذا الجزء من العالم منظما من الناحية السياسية فى وحدة واحدة؛ كان سكانه ما زالوا منقسمين إلى قبائل، حتى عندما عاش الناس متقاربين فى المدن. كما انقسم يهود الجزيرة العربية إلى حوالى ست قبائل مختلفة تمزقها الأحقاد وتلجأ للحرب من حين إلى آخر. كانوا مختلفين عن جيرانهم العرب الوثنيين فى الدين فقط» (المصدر نفسه، صفحة ٢٢٧).

فى عهد النبى (عليه الصلاة والسلام) كانت هناك ثلاث قبائل يهودية كبرى، هى بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، تقطن فى ضواحى المدينة. وتشير حقيقة أن النبى (عليه الصلاة والسلام) عقد معهم حلفا دفاعيا اضطراريا من أجل سلامة المدينة إلى أنهم كانوا عنصرا هاما فى الحياة السياسية فى ذلك الوقت. كان لدى تلك المستعمرات معلموها ومراكز الدراسة الدينية الخاصة بها. ومن خلال النماذج القليلة الباقية من أشعارهم، يمكن الحكم بأن هؤلاء اللاجئين، من خلال التواصل بشعب يمت إليهم بصلة قرابة، قد أصبحوا عربا من ناحية اللغة والعاطفة. ومع ذلك، فإنهم بقوا يهودا فى العامل الأكثر أهمية، ألا وهو الدين، وربما مارسوا تأثيرا قويا على العرب لصالح التوحيد» (الشيخ/ عناية الله، الفكر العربى قبل الإسلام Pre-Islamic Arabian Thought، من كتاب م.م. شريف «تاريخ الفلسفة الإسلامية A History of Muslim Philosophy، المؤتمر الفلسفى الباكستانى Pakistani Philosophical Congress، ١٩٦٣؛ الجزء الأول، صفحة ١٣٤).

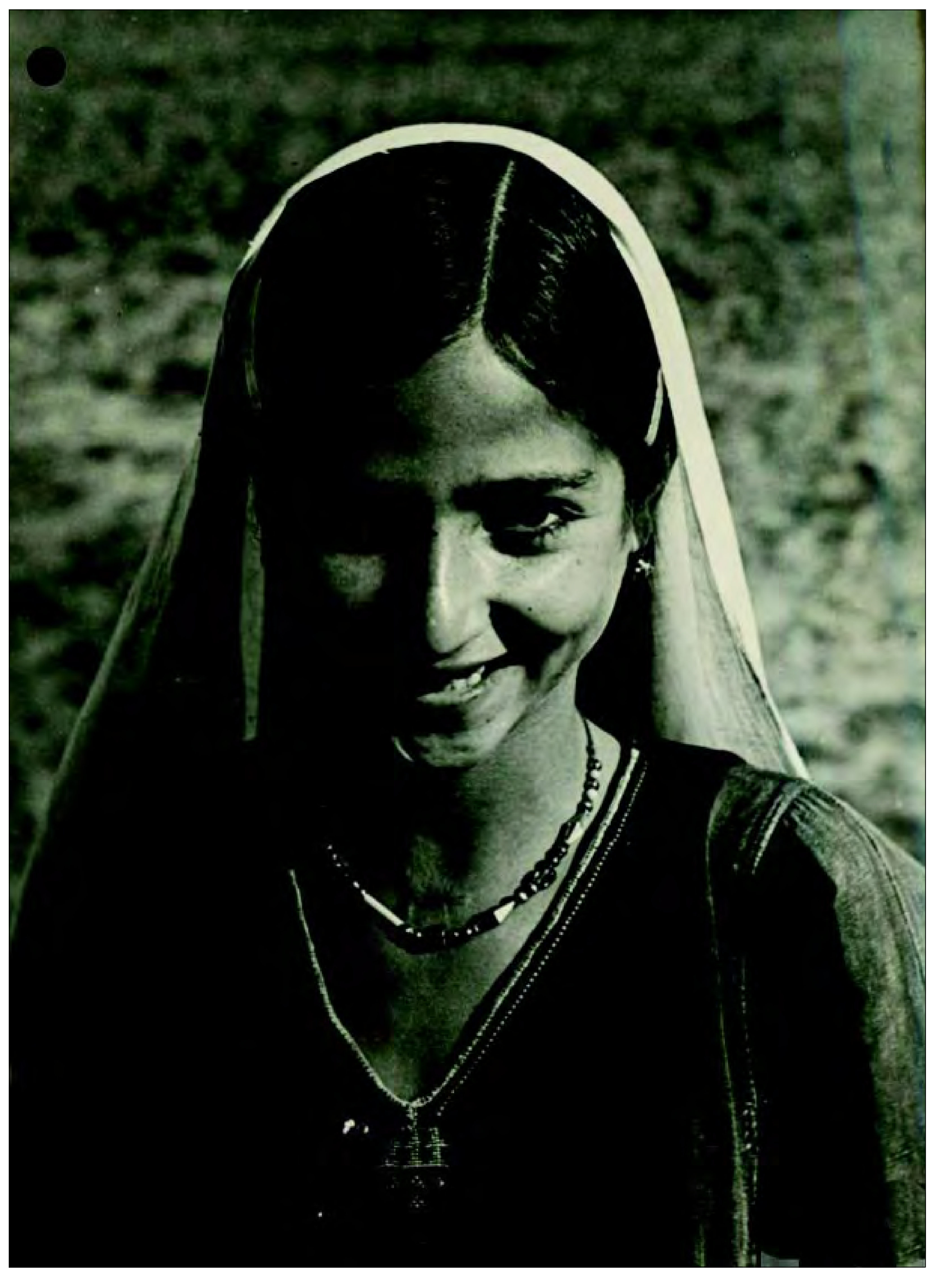
«كان للرخاء والنفوذ السياسى اليهودى فى ذلك الوقت (القرن التاسع) أثره على إمبراطورية الخزر التى كانت قد نمت وتطورت على ساحل بحر قزوين. وبسبب موقعها بين الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية، اعتنقت الصفوة الخزرية الملحدة الديانة اليهودية فى أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسى والاندماج فى الشبكة التجارية اليهودية (أبرامسكى Abramsky وآخرون، ١٩٨٦: ١٦، مقتبس عن جون روز John Rose، أساطير الصهيونية The Myths of Zionism، مطبعة بلوتو Pluto: ٢٠٠٤؛ صفحة ٤٨).

ليست تلك سوى أمثلة قليلة من الدلائل العديدة على أن إدعاء العرقية اليهودية ليس له أساس على الإطلاق. والمسلمون على وجه الخصوص لا يعترفون بأن اليهود يشكلون شعبا منفصلا أو أمة متميزة. وهناك ثلاثة مصطلحات

Azzam Tamimi is a British Palestinian academic and political activist. He is currently the director of Institute of Islamic Political Thought in London and a member of the Muslim Association of Britain. His latest book is Hamas: A History from Within. (2007)

ورقة مقدمة إلى المؤتمر المنعقد برعاية معهد الحوار العالمى
The Institute for Global Dialogue
والمركز الأفرو ـ شرق أوسطى
The Afro-Middle East Centre
فى الفترة من ١٢-١٥ أبريل ٢٠١٠ – بريتوريا ـ جنوب أفريقيا

ترجمة عادل فتحى



'فـــن الممكـــــن!'

فى السياق القرآنى ذات علاقة هنا: بنو إسرائيل؛ واليهود؛ وأهل الكتاب. يتضمن المصطلح الأول مفهوما موروثا واضحا، ويشير إلى المتحدرين فعلا من «يعقوب» (إسرائيل) (عليه السلام) بن «إسحق» بن «إبراهيم». ويؤكد القرآن حقيقة أن هذا العرف الدينى قد بدأ بالإسرائيليين المتحدرين من «يعقوب» (عليه السلام):

«وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون» (سورة البقرة، الآية ٨٣).

مع ذلك، فطبقا للقرآن، فإن هذا التراث الدينى لا ينتهى باليهود أو المسيحيين فيما يتعلق بهذا الأمر. ففى القرآن، قيل للمسلمين الذين يؤمنون أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) هو رسول الله وخاتم الأنبياء: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (سورة البقرة، الآية ١٣٦).

ويشير المصطلح الثانى، اليهود، إلى أولئك الذين اعتنقوا التراث المنسوب إلى موسى (عليه السلام). «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (سورة البقرة، الآية ٦٢).

إن معظم من يؤمنون بكتاب اليهود المقدس ليست لهم صلة مباشرة بالسلالة الإسرائيلية؛ إن الأمر الوحيد الذى يشتركون فيه - بخلاف الإخوة الإنسانية - هو التراث الدينى نفسه. لقد عرف المسلمون يهودا من كافة الأصناف والألوان. وكان اليهود من منطقة معينة يشتركون مع المسلمين أو المسيحيين من نفس المنطقة فيما هو أكثر مما يشتركون فيه مع اليهود من مناطق أخرى (لم يسبق لأحد أن كتب عن هذا الموضوع أكثر أو أفضل من البروفيسور المصرى الراحل/ عبد الوهاب المسيرى. وهو قد خصص الجزء الثانى من موسوعته باللغة العربية ذات الأجزاء الثمانية عن اليهود واليهودية والصهيونية، خصصه لمناقشة المشاكل والتعقيدات المرتبطة بالجماعات اليهودية. كما أنه نشر أيضا كتابا منفصلا عنوانه باللغة العربية: من هو اليهودى؟).

أما «أهل الكتاب»، فهو تصنيف أكثر شمولا يضم كل غير المسلمين ممن يؤمنون بالوحى الإلهى. وهو عادة ما يشير إلى المسيحيين واليهود. ويؤمن المسلمون أن كلتا الجماعتين الدينيتين قد ضلتا الطريق وانحرفتا عن السبيل الذى رسمه لهما الأنبياء، بداية من «موسى» (عليه السلام) وحتى «عيسى» (عليه السلام) اللذين أرسلهما الله إليهما. وعلى الرغم من رفضهما قبول «محمد» (عليه الصلاة والسلام) كنبى، والذى كانت رسالته استكمالا لرسالات من سبقه، فقد سمح لكلتا الجماعتين بالتعايش والعبادة فى حرية. وقد منحت القاعدة القرآنية الهامة «لا إكراه فى الدين» (سورة البقرة، الآية ٢٥٦، ونصها: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم») الحق للأفراد والجماعات التى تعيش فى العالم الإسلامى فى الاختيار بحرية. وكانت تلك القاعدة نفسها هى التى أفادت الإسلام أعظم فائدة. فقد أدى التسامح الدينى إلى انفتاح تلك الجماعات أمام الدين الجديد ووفر مناخا آمنا للحوار والتفاعل. والحرية التى تمتع بها اليهود والمسيحيين فى ظل الإسلام لم تكن لتتوافر فى أى مكان آخر فى العالم حتى وقت قريب. وبينما بقى بعض اليهود والمسيحيين على ولائهم لمعتقداتهم الموروثة، فقد تأثر الكثير منهم بالإسلام وسلوك المسلمين حتى أنهم اختاروا اعتناق الإسلام طواعية. وفى العديد من أجزاء العالم الإسلامى، من المألوف أن تجد مسلمين ومسيحيين ويهودا متحدرين من نفس القبائل أو العائلات. إن الاعتراف الإسلامى باليهودية كديانة «إلهية» وباليهود كـ «أهل كتاب» قد هيأ المناطق التى يحكمها المسلمون لتشكل ملاذات آمنة لليهود المعرضين للقمع فى مناطق غير إسلامية - وقد سعت نسبة كبيرة من اليهود المنفيين من وطنهم فى أسبانيا عقب سقوطها فى أيدى المسيحيين فى أواخر القرن الخامس عشر إلى اللجوء إلى المناطق الإسلامية فى شمال أفريقيا أو فى تركيا العثمانية.

لذلك فليس من الغريب أنه حتى أقل من قرن مضى، عرف العالم الإسلامى اليهود كجماعات دينية شكلت جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإسلامية التى عاشوا فيها (روز، المصدر نفسه، صفحة ٦٤). ففى المناطق المتحدثة بالعربية، لم يكن الناس يتحدثون عن العرب واليهود، بل عن العرب كمسلمين أو مسيحيين أو يهود.

قد تجادل قلة من الناس فى حقيقة أنه حتى بداية القرن العشرين كان المسلمون والمسيحيون واليهود يتعايشون فى سلام فى الكثير من أنحاء العالم الإسلامى. فقد وفرت الخلافة الإسلامية التى امتدت عبر ثلاث قارات مناخا من التسامح فى ظل نظام يضمن الحماية لليهود والمسيحيين. وقد اعترف الإسلام بهم كمجتمعات شرعية تشارك على قدم المساواة مع المسلمين فى بناء الحضارة العربية-الإسلامية التى قامت على ركائزها العلمية والفلسفية الحضارة الغربية الحديثة.

المسلمون واليهود والصهاينة

لم تتغير نظرة المسلمين لليهود باعتبارهم «أهل كتاب» تمشيا مع «ميثاق من الله ورسوله» حتى جاءت الحركة الصهيونية التى ظهرت فى أوروبا وبدأت فى تجنيد اليهود فى الأراضى العربية لمشروع اعتبره المسلمون انقضاضا استعماريا على دينهم ووطنهم. وجاء تحول الموقف الإسلامى تجاه اليهود كرد فعل لمزاعم الحركة الصهيونية بأنها تمثل اليهود وتخدم اليهودية. ورغم الجذور العلمانية للمشروع الصهيونى وإلحاد العديد من مؤسسيه الأوائل، فقد برر الخطاب الصهيونى إقامة دولة إسرائيل فى فلسطين وتجريد الفلسطينيين من حقوقهم بعبارات دينية. وقد لجأ الصهاينة الرواد إلى الإنجيل، رغم أن القليل منهم آمنوا به فعلا أو أظهروا له شيئا من الاحترام، فى محاولة لإضفاء شرعية دينية على مشروعهم والحصول على دعم يهود العالم الذين كانت غالبيتهم معارضة للصهيونية السياسية (للجذور العلمانية والمبررات الإنجيلية للصهيونية السياسية، راجع ما يلى: عبد الوهاب المسيرى، أرض الميعاد: دراسة نقدية للصهيونية السياسية؛ مطبعة نيوبرونزويك New Brunswick، نيوجيرسى، ١٩٩٧؛ ومايكل بريور Michael Prior، الإنجيل والاستعمار: دراسة نقدية أخلاقية The Bible and Colonialism: a Moral Critique؛ مطبعة شيفيلد الأكاديمية Sheffield Academic Press، ١٩٩٧؛ وجـــون روز، أساطير الصهيونية).

بمقتضى توسل الصهاينة باليهودية وتبرير مشروعهم الاستعمارى باسم إنقاذ اليهود من معاناتهم، يشير الفلسطينيون والعرب إلى الإسرائيليين - وهذا مفهوم تماما - باعتبارهم «يهودا». وتنتشر مصطلحات مثل «صهيونى» أو «إسرائيلى» بسرعة فى كتابات وحوارات الصفوة الفلسطينية ذات الثقافة العلمانية والمنتبهة للضرر الذى يمكن أن يلحقه بالقضية استخدام لغة سياسية غير سليمة. فالمصطلحات السياسية السليمة ليست سائدة فى اللغة الجارية، وكانت غائبة على وجه الخصوص عن الخطاب الإسلامى حتى وقت قريب. وبغض النظر عن الدقة السياسية، فإن الفلسطينيين لا يطلقون على الإسرائيليين سوى ما يعلن الإسرائيليون عن أنفسهم: اليهود. وعندما يترجم الأدب العربى إلى اللغات الأوروبية، بإشاراته إلى الإسرائيليين كيهود، فربما يبدو معاديا للسامية، مما يوفر للصهاينة الذخيرة اللازمة للهجوم على منتقديهم الفلسطينيين.

من الأمثلة الجيدة لشرح تلك الحالة خطاب حماس تجاه الصراع فى فلسطين. فمن خلال حلقات برنامج «شاهد على العصر» المذاعة على قناة



إن معظم من يؤمنون بكتاب اليهود المقدس ليست لهم صلة مباشرة بالسلالة الإسرائيلية؛ إن الأمر الوحيد الذى يشتركون فيه ـ بخلاف الإخوة الإنسانية ـ هو التراث الدينى نفسه



فــــن الممكـــــن!

© Paul Schutzer

الجزيرة العربية الفضائية ما بين ١٧ أبريل إلى ٥ يونيو عام ١٩٩٩، أشار مؤسس حماس، الشيخ/ أحمد ياسين، إلى الإسرائيليين فى بعض الأحيان كـ«الإسرائيليين» وفى أحيان أخرى كـ«اليهود». وفى الحلقة الثانية من «شهادته» المذاعة فى ٢٤ أبريل عام ١٩٩٩، قال: «الإسرائيليين عادة بيتعاملوا مع الشعوب .. مع الشعب الفلسطينى فرادى، ما بيتعاملوش بشكل جماعى، حتى فى السجون كانوا ما بيرضوش يتعاملوا إلا فرادى، لكن إحنا فرضنا عليهم إرادتنا غصب عنهم، ولم نتعامل معهم إلا جماعى، حسب قيادة منتخبة من فلسطينيين وتواجه اليهود وتحل المشاكل معهم».

بالمثل يستخدم معظم الفلسطينيين والعرب بلا وعى كلا المصطلحين بالتبادل. وتلاحظ «ليا تسيميل Leah Tsemel»، وهى محامية إسرائيلية تدافع عن الفلسطينيين أمام المحاكم الإسرائيلية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، أن زبائنها عادة ما يصفون الجنود أو المستوطنين بـ «اليهود». فهم يشكون على سبيل المثال من أن «اليهود أخذوا هويتى» أو «اليهود ضربونى» أو «اليهود دمروا هذا أو ذلك». وهى تشير بقلق إلى حقيقة أن إسرائيل أصبحت مرتبطة فى أذهان الضحايا الفلسطينيين بكافة اليهود فى العالم، وتخشى أنه نتيجة لذلك سوف ينظر إلى كل يهود العالم باعتبارهم جنودا ومستوطنين (http://www.phoblacht.net/leahoccupation.html). من المفارقة أن ما يعتبره بعض اليهود عداء عربيا للسامية لا يعد شيئا بالمقارنة باللغة المعادية للعرب السائدة فى الدوائر السياسية والدينية الإسرائيلية. وللاستشهاد بمثال واحد، فى أغسطس عام ٢٠٠٠، وصف الحاخام «أوفاديا يوسف Ovadia Yosef»، كبير الحاخامات السفارديم فى إسرائيل، العرب بأنهم «ثعابين»، مضيفا أن «الله نادم على خلقه للفلسطينيين»).

لو أخذنا فى الاعتبار حقيقة أن نسبة كبيرة من الشتات اليهودى مرتبطة بإسرائيل وتستقطب لها دعما عالميا ضد الفلسطينيين، فإن الشخصية اليهودية وأصل المشروع الصهيونى يترسخان أكثر فأكثر فى أذهان الفلسطينيين.

لا تقتصر تلك المشكلة على الفلسطينيين، بل تمتد عبر المنطقة التى عاش فيها اليهود يوما ما بأعداد كبيرة ولكنهم - باستثناءات قليلة - رحلوا عنها منذ زمن بعيد. وفى أعقاب قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، جرى تشجيع - بل ترويع فى بعض الأحيان - اليهود الذين يعيشون فى مختلف الدول العربية للهجرة إلى إسرائيل التى كانت فى أمس الحاجة لزيادة عدد سكانها بعد أن طردت ما يقارب مليون فلسطينى (رواية شخصية لشاهد عيان عن كيفية توجيه اليهود العراقيين للهجرة إلى فلسطين، راجع كتاب نعيم جلعادى Naeim Giladi «فضائح بن جوريون: كيف قامت الهاجاناه والموساد بقتل اليهود Ben Gurion's Scandals: How the Haganah & the Mossad Eliminated Jews»، دار نشر جليليت Glilit Publishers؛ يوليو ١٩٩٥. عن هذا الكتاب يقول «نعيم جلعادى»: «أكتب هذا الكتاب لأخبر الشعب الأمريكى، وخاصة اليهود الأمريكيين، أن اليهود من الدول الإسلامية لم يهاجروا إلى إسرائيل طواعية؛ وأنه لإجبارهم على الرحيل قام يهود بقتل يهود؛ وأنه لشراء الوقت لمصادرة المزيد من الأراضى العربية، فقد رفض اليهود فى العديد من المناسبات مبادرات سلام حقيقية من جيرانهم العرب. أنا أكتب عما أطلق عليه أول رئيس وزراء لإسرائيل «الصهيونية القاسية». أكتب عن ذلك لأنى كنت جزءا منه». يطرح «جلعادى» الحقيقة المؤلمة عن الاغتصاب الصهيونى لفلسطين وغرس العداء للسامية عمدا فى المجتمعات اليهودية العراقية إبان الحكم السياسى لـ «ديفيد بن جوريون» لإقناع اليهود العراقيين بالهجرة إلى إسرائيل. كان هدف الصهاينة هو استيراد عمالة يهودية غير ماهرة من الشرق الأوسط لحرث وزراعة الأراضى التى أخليت حديثا من سكانها الأصليين. كما كانت القوات العسكرية بحاجة إلى مجندين للدفاع عن الأراضى المنهوبة. وبسبب حظر الكتاب فى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل عند نشره للمرة الأولى، فقد أعيد نشره بواسطة دار دانديليون للكتب Dandelion Books عام ٢٠٠٣).



وفر اليهود العراقيون واليمنيون والمغاربة مصدرا للعمالة الرخيصة وعملوا بالوظائف التى «لا تناسب» الأشكيناز (يهود أوروبا الشرقية) الذين تولوا مقاليد المشروع الاستعمارى الصهيونى فى فلسطين واعتبروا أنفسهم مواطنين من الدرجة الأولى فى الدولة «اليهودية» حديثة الإنشاء، مقابل اليهود السفارديم الذين جاءوا من الدول العربية (عانى اليهود السفارديم طوال عقود من التمييز فى إسرائيل. فقد عوملوا كمواطنين من الدرجة الثانية، وكان عليهم القبول بمستوى متدن من الإسكان ومستويات أدنى كثيرا من الخدمات التعليمية والصحية. ووفقا لـ «فيليس بينيس Phyllis Bennis» رئيسة مشروع الشرق الأوسط فى معهد الدراسات السياسية فى واشنطون العاصمة «هناك أربعة مستويات للمواطنة داخل إسرائيل، المستويات الثلاثة الأولى منها هى مستويات مختلفة من المشاركة اليهودية فى المجتمع اليهودى الذى تهيمن عليه العنصرية. على قمة الهرم هناك الأشكيناز، وهم اليهود الأوروبيون البيض. وعلى مستوى النفوذ، فإن الحشد الهائل للمهاجرين الروس الجدد - الذين يشكلون الآن حوالى عشرين بالمائة من اليهود الإسرائيليين - يندمجون فى قطاع الأشكيناز الأوروبيين، رغم احتفاظهم بهوية ثقافية متميزة للغاية. والمستوى الأدنى التالى، الذى ربما يشكل الآن الجزء الأكبر من المجتمع اليهودى، هم اليهود المزراحيون أو السفارديم القادمون من الدول العربية. وفى قاع الهرم اليهودى يأتى يهود أثيوبيا ذوو البشرة السوداء. تستطيع أن تذهب إلى أفقر مناطق القدس الغربية اليهودية لتكتشف أن غالبية سكانها من الأثيوبيين. لقد تجسدت تلك الطبقية الاجتماعية والاقتصادية طوال السنوات الخمسين السابقة عندما

فـــن الممكـــــن!

جاءت جماعات مختلفة من اليهود من مناطق مختلفة من العالم إلى إسرائيل لأسباب مختلفة تماما. ولذلك فبينما عكست التصنيفات الجذور القومية، فإنها تكشف نهجا عنصريا واضحا. وقد واجه يهود اليمن على وجه الخصوص تمييزا غير عادى. فقد تم نقلهم من اليمن إلى إسرائيل بصورة قسرية تقريبا. وعند وصولهم، احتجزوا فى معسكرات بدائية، واختطف العديد من الأطفال اليمنيين الرضع من أمهاتهم لتتبناهم عائلات الأشكيناز. وقد بدأت فى بداية التسعينيات حملة كبرى لمحاولة لم شمل بعض تلك العائلات المشتتة. وتحت كل تلك الطبقات من اليهود يأتى المواطنون الفلسطينيون». المصدر: «لليهود فقط: العنصرية داخل إسرائيل For Jews Only: Racism Inside Israel»؛ مقابلة مع فيليس بينيس بواسطة ماكس إلباوم Max Elbaum. http://www.zmag.org/meastwatch/for_jews_only.htm).

لا عجب إذن أن نسبة كبيرة من المسلمين والعرب والفلسطينيين ينظرون إلى المشكلة فى فلسطين باعتبارها صراعا دينيا بين اليهود والمسلمين. إن الربط المستمر بين إسرائيل واليهود وبين اليهود وإسرائيل لا يؤدى سوى إلى تأكيد قناعة العديد من المسلمين بأن الصراع فى الشرق الأوسط بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو بالفعل صراع دينى. ويصعب على الكثير من العرب والمسلمين تصديق أن هناك يهودا معادين للصهيونية ينتقدون إسرائيل، بل ويرفضون أيضا الاعتراف بشرعيتها (فى حدث غير مسبوق على محطة تليفزيونية عربية، استضافت قناة الجزيرة الفضائية فى الأول من مايو عام ٢٠٠٢ الحاخام/ إسرائيل ديفيد وايس Yisroel Dovid Weiss المتحدث الرسمى لمنظمة «ناطورى كارتا الدولية - يهود ضد الصهيونية Neturei Karta Jews Against - International Zionism». وكان ظهوره لمدة تسعين دقيقة على الهواء فى برنامج أحمد منصور الأسبوعى «بلا حدود» صدمة للكثير من المشاهدين. وقد تشكك البعض منهم لدرجة أنهم اعتقدوا أن الضيف ربما كان عضوا بحماس متخفيا فى صورة حاخام. ويمكن مشاهدة البرنامج عبر الوصلة http://www.aljazeera.net/programs/n...002/5/5-3-1.htm. عند إعلان ميثاق حماس، كان مجرد التفكير فى التقاء شخصية قيادية من حماس مع حاخام يهودى أمرا غير وارد. ولكن فى الحادى والعشرين من مارس عام ٢٠٠٦، استقبل الدكتور/ عزيز دويق، المنتخب حديثا كمتحدث رسمى باسم منظمة التحرير الفلسطينية، فى مكتبه بالمجلس التشريعى الفلسطينى فى رام الله وفدا من منظمة «ناطورى كارتا الدولية» برئاسة الحاخام/ موشيه هيرش Moshe Hirsh. وفى المقابلة التى تمت تغطيتها على موقع منظمة التحرير الفلسطينية، أكد «دويق» أن الشعب الفلسطينى لا يمكن أبدا أن يكون ضد اليهود والشعب اليهودى. وأضاف: «إن شعبنا ضد الحركة الصهيونية وليس ضد اليهود». وقد أوضح أن المسلمين لا يمكن أن يفكروا فى إلحاق الأذى باليهود أو المسيحيين، وأن اليهود قد عاشوا فى الدول العربية والإسلامية طوال قرون فى سلام وتفاهم متبادل. واستطرد مؤكدا أن مشكلة الشعب الفلسطينى هى مع الحركة الصهيونية التى ترفض الاعتراف بشعبنا وبحقوقه الوطنية المشروعة. المقابلة مغطاة على: http://www.pal-plc.org/news/ MainAnnounce2 .asp?key=١٩٠).



إن ميثاق حماس الذى يعادى اليهودية بوضوح يعبر فقط عن القناعة العامة للإسلاميين الفلسطينيين وقت إعلانه. ويحاول الميثاق فى عدد من فقراته تفسير الصراع من منظور نظرية مؤامرة عالمية. ولا شىء يبدو أكثر إقناعا من «بروتوكولات حكماء صهيون». وهى وثيقة مجهولة الأصل يزعم أنها تمثل أفكار مجتمع سرى من الحكماء اليهود لغزو العالم. تفسر البروتوكولات بامتياز لماذا احتل اليهود فلسطين وطردوا شعبها. والذى أراد مؤلف ميثاق حماس أن يوصله هو الربط المباشر بين سعى يهودى مستمر للهيمنة العالمية وبين احتلال فلسطين. وقد استرشد المؤلف بالقرآن وحديث النبى (عليه الصلاة والسلام) - متبعا نهجا شائعا بين الكتاب المسلمين - لتأكيد زعمه بوجود مؤامرة يهودية مستمرة ضد الإسلام والمسلمين تعود جذورها للوراء إلى الأيام الأولى للإسلام.

على النقيض من تصوير ميثاق حماس للصراع فى فلسطين باعتباره دينيا، عبر قادة حماس عن وجهة نظر مختلفة. فقد قال الشيخ/ أحمد ياسين مؤسس الحركة: «أود أن أعلن للعالم كله أننا لا نحارب اليهود لأنهم يهود! إننا نحاربهم لأنهم اعتدوا علينا وقتلونا وسلبوا أرضنا ومنازلنا؛ لقد هاجموا أطفالنا ونساءنا؛ لقد شتتوا شملنا. كل ما نريده هو حقوقنا. لا نريد أكثر من ذلك» (الشيخ/ أحمد ياسين، متحدثا إلى طلاب الجامعة الإسلامية فى غزة؛ ٢٢ أكتوبر عام ١٩٩٧. فى الساعات الأولى من صباح الاثنين ٢٢ مارس ٢٠٠٤، قامت طائرة هليوكوبتر إسرائيلية بإطلاق صاروخ على الشيخ/ أحمد ياسين بينما كان يدفع على كرسيه المتحرك فور مغادرته مسجد الحى الذى كان قد أدى فيه لتوه صلاة الفجر بعد ليلة من القيام. وقد تناثرت أشلاء الشيخ والعديد من المصلين).

«هذا كفاحنا» هو عنوان وثيقة وضعها المكتب السياسى لحماس فى منتصف التسعينيات. كان الهدف من الوثيقة أن تكون ردا من حماس على سؤال طرحته على قيادة الحركة بعثة دبلوماسية أوروبية فى عمان بشأن ما تمثله حماس. تستهل الوثيقة بالتأكيد التالى: «حركة المقاومة الإسلامية (حماس) هى حركة تحرير وطنية فلسطينية تكافح لتحرير الأراضى الفلسطينية المحتلة وإقرار الحقوق الفلسطينية المشروعة (تمت ترجمة النص الكامل للوثيقة ونشره كملحق رقم ١ فى كتابى «حماس، فصول لم تكتب Hamas Unwritten Chapters» (نشر فى الولايات المتحدة تحت عنوان «حماس، تاريخ من الداخل Hamas a History from Within»). راجع أيضا الملحق رقم ٢ فى الكتاب نفسه. تلك هى الترجمة الإنجليزية لوثيقة أخرى أحدث لحماس وضعت عام ٢٠٠٤ بهدف تقديم الحركة للعالم).

قبل عشرة أيام فقط من اغتياله فى السابع عشر من أبريل عام ٢٠٠٤، أوضح الدكتور عبد العزيز الرنتيسى أهم قادة حماس فى قطاع غزة أن «إستراتيجية حماس المعتمدة لديها ترتكز إلى مرتكزات محددة: أولاها: أن لنا وطنا مغتصبا بكامله، وأننا لا نستطيع التنازل عن شبر منه. وثانيها: أن هناك اختلالا واضحا فى موازين القوى لصالح العدو الصهيونى، فلا نملك من الترسانة العسكرية ما يملك. وثالثها: أننا نملك عقيدة تتولد عنها إرادة لا تعرف التقهقر أمام العدو أو التراجع دون بلوغ الأهداف، عقيدة فى ظلها تهون التضحية بكل شىء إلا بالعقيدة والوطن. ورابعها: أن هناك أمة عربية وإسلامية تعيش حالة من الضعف والوهن والانكسار لا تستطيع معها نصرة شعب فلسطين، وأن هناك مجتمعا دوليا معاديا لأمانى وطموحات الشعب الفلسطينى، وداعما للإرهاب الصهيونى.

وقد استطرد للتأكيد على أن «إستراتيجية حماس تسير فى خطين متوازيين: الخط الأول: مقاومة الاحتلال والتصدى للعدوان الصهيونى؛ والخط الثانى: الحفاظ على وحدة الشارع الفلسطينى، وحماية الصف الفلسطينى من خطر الاقتتال الداخلى الذى من شأنه أن يصرف الجميع عن مقاومة الاحتلال (عبد العزيز الرنتيسى، مقابلة مع رئيس تحرير موقع القسام؛ نشرت على الموقع بتاريخ ٧ أبريل عام ٢٠٠٤).

وقد أخبر خالد مشعل، أحد قادة حماس، معبرا عن إصرار على مواصلة الكفاح لتحرير فلسطين واستعادة الحقوق الفلسطينية، أخبر صحفى تليفزيونى كندى أن تحرير فلسطين «لا يعنى أن الشعب الفلسطينى أو نحن فى حماس نرغب فى قتل اليهود أو إلقائهم



إن المسلمين لا يمكن أن يفكروا فى إلحاق الأذى باليهود أو المسيحيين، وإن اليهود قد عاشوا فى الدول العربية والإسلامية طوال قرون فى سلام وتفاهم متبادل



«فن الممكن!»

فلسطينيات - ١٩٤٧ -



فى البحر كما تزعم إسرائيل». وقد نفى تماما أن تكون تلك حربا ضد اليهود، حيث أضاف «كلا، نحن لا نقاتل اليهود لأنهم يهود. نحن نقاتلهم لأنهم اغتصبوا أرضنا وشتتوا شعبنا؛ لقد قاموا بالعدوان. نحن نقاوم هذا المشروع الصهيونى المعادى لنا». وبالنسبة لليهود الذين لا يقاتلون الفلسطينيين، ذكر مشعل: «ليست لدى مشكلة معهم، تماما كما أنه ليست لدى مشكلة مع المسيحيين أو المسلمين المسالمين». واستطرد موضحا أنه «إذا ما هاجمنى مسلم واغتصب أرضى، فإن لدى كل الحق أن أرد العدوان. وينطبق ذلك على الآخرين جميعا بغض النظر عن عرقهم أو هويتهم أو دينهم. تلك هى فلسفتنا» (خالد مشعل، مقابلة مع أوليفيا وارد Olivia Ward فى بيروت فى ديسمبر ٢٠٠٤. وقد وردت أجزاء من المقابلة المصورة فى فيلم وثائقى أنتجته «شيلى سايويل Shelley Saywell» بعنوان «حماس خلف القناع Hamas Behind the Mask».

فى مقال نشر فى «الجارديان The Guardian» عقب فوز حركته بالانتخابات التشريعية فى غزة والضفة الغربية عام ٢٠٠٦، بعث خالد مشعل بالرسالة التالية إلى الإسرائيليين: «إننا لا نقاتلكم بسبب انتمائكم إلى دين معين أو ثقافة بعينها. فقد عاش اليهود فى العالم الإسلامى ثلاثة عشر قرنا بسلام وانسجام، وهم فى ديننا «أهل الكتاب» الذين يتمتعون بعهد من الله تعالى ونبيه محمد (عليه الصلاة والسلام) بأن يحظوا بالاحترام والحماية. إن صراعنا معكم ليس دينيا وإنما هو صراع سياسى. وليس لدينا أى مشكلة مع اليهود الذين لم يعمدوا إلى مهاجمتنا، وإنما مشكلتنا هى مع أولئك الذين قدموا إلى أرضنا، وفرضوا أنفسهم علينا بالقوة، وقوضوا مجتمعنا وأبعدوا أبناء شعبنا (خالد مشعل، مقال بعنوان «لن نبيع شعبنا أو مبادئنا مقابل المساعدات الخارجية We will not sell our people or principles for foreign aid» فى الجارديان؛ لندن، ٣١ يناير عام ٢٠٠٦).

حماس كبديل

بعد أن ولدت حماس فى انتفاضة عام ١٩٨٧، أعلنت أنها جاءت «لتحرير فلسطين، كل فلسطين» (إبراهيم غوشة، مقابلة مع المؤلف، عمان: ٢١ أغسطس عام ٢٠٠٣).

ظهرت الحركة إلى الوجود كرد فعل للمعاملة الجائرة التى عانى منها الفلسطينيون فى ظل الاحتلال الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة، ولأن فتح - حركة التحرير الوطنية الفلسطينية - قد تهاوت. ومثلما كانت فتح من قبل، فإن معظم أعضاء حماس ومؤيديها كانوا من اللاجئين أو أبناء اللاجئين الذين لم تكن منازلهم الحقيقية هى تلك المعسكرات المروعة التى ولدوا أو نشأوا فيها. بل إن منازلهم الحقيقية هى على الجانب الآخر من «الخط الأخضر» المزعوم الذى يستعمره الآن المهاجرون اليهود الذين جاءوا من أوروبا وجميع أنحاء العالم. ومثل ملايين الفلسطينيين داخل فلسطين وفى الشتات، شعر مؤسسو حماس بالخيانة عندما قررت قيادة فتح التى استولت على منظمة التحرير الفلسطينية أن تتنازل عن حق العودة لوطنهم. فقد رضخت فتح للضغط الدولى ووافقت على الاعتراف بحق

"فــــن الممكــــــن!"

إسرائيل فى الوجود فى مقابل وعد بإقامة دولة فلسطينية بجوار إسرائيل على منطقة سوف يجرى لاحقا التفاوض بشأن حجمها وحدودها. وهذا وضع يعتبره غالبية الفلسطينيين غير مقبول. من هنا جاءت حماس كبديل، حيث تستمد شرعيتها فى الأساس من إنكار إسرائيل ورفض الاعتراف بحقها فى الوجود على أى جزء من فلسطين.

ورغم أن الصراع فى فلسطين - فى الأساس - ليس حقا صراعا دينيا، إلا أن فلسطين لها دلالة دينية. فهى ليست فقط أرضا إسلامية يجب مقاومة احتلالها بواسطة قوة أجنبية، ولكنها بالإضافة لذلك تضم ثالث المساجد المقدسة فى الإسلام، ألا وهو المسجد الأقصى. وهذا يجعل من القضية مشكلة إسلامية وليست فقط فلسطينية أو عربية. وقد عبر العلماء المسلمون باستمرار - باستثناء القليل منهم - عن معارضتهم المطلقة للاعتراف بشرعية قيام «دولة يهودية» فى فلسطين. وطوال القرن الماضى، أصدر العلماء المسلمون العديد من الفتاوى التى تعلن بطلان وإلغاء أى اتفاق يضفى شرعية على احتلال أى جزء من فلسطين. والفتوى الجماعية الأولى حول تلك القضية تسبق قيام دولة إسرائيل فى فلسطين. ففى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٣٥، توافد أكثر من مائتى عالم مسلم إلى القدس من أنحاء فلسطين لإصدار فتوى تحرم التنازل عن أى جزء من فلسطين للصهاينة. وقد عقدت مؤتمرات وصدرت فتاوى مماثلة فى مناسبات مختلفة فى تاريخ الصراع فى الشرق الأوسط. وأثناء الحقبة الناصرية فى مصر (١٩٥٢-١٩٧٠) تمسكت مؤسسة الأزهر الإسلامية المهيبة فى القاهرة بموقف تحريم الاعتراف بدولة إسرائيل أو أى سلام معها. وقد أعلن الشيخ/ يوسف القرضاوى - أحد أهم العلماء الموثوقين فى العصر الحديث - هذا الموقف مرارا، مؤكدا تبنيه بالإجماع من قبل أكثر من ثلاثمائة من علماء الإسلام من أنحاء العالم الإسلامى أثناء اجتماع المجلس التشريعى الإسلامى فى الكويت فى منتصف التسعينيات. وقد أوضح أن الفتوى التى تحرم الاعتراف بإسرائيل تستند إلى اعتبار أن «فلسطين أرض إسلامية لا يمكن التنازل عنها طواعية». وقد أضاف أن نفس الفتوى قد صدرت مرة ثانية فى مؤتمر تشريعى إسلامى لاحق فى البحرين (الشيخ يوسف القرضاوى، مقابلة مع العزب الطيب الطاهر، جريدة الراية القطرية، الدوحة: ٢٧ يناير ١٩٩٩. لم ترد فى المقابلة تواريخ المؤتمرات).

لا تستطيع حماس - توافقا مع هذا الموقف الإسلامى - قبول أى تسوية تتضمن الاعتراف بإسرائيل ككيان شرعى. فى مقاله بالجارديان، خاطب خالد مشعل قراءه الإسرائيليين: «لن نعترف أبدا بحق أى سلطة فى سرقة أرضنا وإنكار حقوقنا الوطنية علينا. لن نعترف أبدا بشرعية دولة صهيونية أسست على أرضنا تكفيرا عن خطايا الآخرين» (خالد مشعل، المصدر نفسه).

مع ذلك تستطيع حماس شرعا أن تعرض تسوية مؤقتة تقوم على هدنة طويلة. لقد قدم مقال مشعل بالجارديان فرصة سانحة للإسرائيليين لتعليق الصراع: «إذا كنتم راغبين فى قبول مبدأ هدنة طويلة، فإننا على استعداد للتفاوض حول الشروط. حماس تمد يد السلام إلى المهتمين حقيقة بسلام يقوم على العدالة».



يعود عرض حماس للهدنة مع إسرائيل إلى أوائل التسعينيات. ويعتقد أن أول من طرحه هو موسى أبو مرزوق رئيس المكتب السياسى لحماس المتمركز فى عمان فى ذلك الوقت. وقد نشر اقتراحه فى فبراير من عام ١٩٩٤ فى «السبيل»، وهى دورية أسبوعية تصدر فى عمان عن الحركة الإسلامية الأردنية. وجاءت أول إشارة مماثلة للهدنة من داخل فلسطين فى نفس الفترة تقريبا من عام ١٩٩٤ على لسان مؤسس حماس الشيخ/ أحمد ياسين من زنزانته بالسجن. وقد اقترح الهدنة كحل مؤقت للصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وقد كرر كل من أبو مرزوق والشيخ/ ياسين العرض فى العديد من المناسبات فيما بعد، ولكنهما فشلا فى جذب اهتمام الإسرائيليين. وفى الآونة الأخيرة تكررت الإشارة إلى الهدنة بواسطة عدد من المتحدثين باسم حماس.

ينظر إلى الهدنة فى الشريعة الإسلامية كعقد شرعى ملزم يهدف إلى وقف القتال مع العدو لفترة من الزمن يتفق عليها. وقد تكون الهدنة قصيرة أو طويلة اعتمادا على الاحتياجات أو المصالح المشتركة (الشيخ/ يوسف القرضاوى، المصدر نفسه). ويختلف اتفاق الهدنة عن «تفاهمات أوسلو للسلام» التى اعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بموجبها بدولة إسرائيل وحقها فى الوجود. يكمن الاختلاف فى أنه فى ظل شروط الهدنة فإن مسألة الاعتراف نفسها لن تطفو إلى السطح لأن حماس - ببساطة - لا تستطيع من ناحية المبدأ الموافقة على أن الأرض التى استولى عليها الإسرائيليون من الفلسطينيين قد أصبحت ملكا لهم؛ فالحركة لا تملك تفويضا بالتخلى عن حق الفلسطينيين فى العودة إلى الأراضى والمنازل التى طردوا منها عام ١٩٤٨ أو فى أى وقت بعد ذلك. مع ذلك يمكن للحركة القول بأنه فى ظل الظروف الحالية فإن أفضل ما تستطيعه هو استعادة بعض الأراضى المسلوبة وتأمين إطلاق سراح السجناء فى مقابل إيقاف الأعمال العدائية. قد يتشابه ذلك إلى حد ما مع موافقة الجيش الجمهورى الأيرلندى على التفاوض لإنهاء الصراع فى شمال أيرلندا دون الاعتراف بالسيادة البريطانية على المنطقة. وما زال الكاثوليك الأيرلنديون يأملون أو يحلمون بأن أيرلندا بكاملها سوف تتحد يوما ما وأن ينتهى الحكم البريطانى. ولم يشترط التفاوض لإنهاء العنف فى شمال أيرلندا على الجيش الجمهورى الأيرلندى أبدا التخلى عن حلمه بإعادة توحيد أيرلندا؛ ولو حدث ذلك لما ساد السلام أبدا.



يفترض عادة أن الهدنة طويلة الأمد قد تستمر لمدة ربع قرن أو أكثر. وتبدو تلك فترة طويلة جدا كى يتوقع المرء ما قد يحدث بعد ذلك



لتبرير الهدنة، ينظر قادة حماس إلى نموذج ما حدث بين المسلمين والصليبيين فى العقد الأخير من القرن الثانى عشر. فقد استمر الصراع بين الجانبين فى فلسطين وحولها لمدة مائتى عام تقريبا. وما تهتم به حماس تحديدا فى هذا الخصوص هو معاهدة رام الله التى أبرمها صلاح الدين الأيوبى مع «ريتشارد قلب الأسد» فى الأول من سبتمبر عام ١١٩٢. وقد عقدت الهدنة - التى أنهت الحملة الصليبية الثالثة - لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، احتفظ الصليبيون خلالها بالسيطرة على الساحل من يافا إلى عكا وسمح لهم بزيارة القدس وتمتعوا بحرية مزاولة أنشطتهم التجارية مع المسلمين.

من المعتاد أيضا الإشارة إلى الهدنة الأولى فى تاريخ الإسلام والمعروفة باسم صلح الحديبية، وهو اسم مكان فى ضواحى مكة عقدت فيه الهدنة. وقد شهدت الاتفاقية توقف الأعمال العدائية بين المجتمع المسلم بزعامة النبى (عليه الصلاة والسلام) وقبيلة قريش داخل مكة. وكانت مدة الهدنة التى وافق عليها الطرفان عشر سنوات. ومع ذلك انتهت الهدنة بعد أقل من عامين عندما خرقتها قريش بقتلها - بدون وجه حق - بعض الأفراد من قبيلة خزاعة التى كانت متحالفة مع الجانب المسلم.

بمجرد عقد الهدنة فإنها تعد مقدسة ويصبح الوفاء بالتزاماتها واجبا دينيا؛ وما دام الطرف الآخر يحترمها فإن الجانب المسلم لا يستطيع خرقها، حيث يعد ذلك إثما كبيرا. وكما هو الحال فى المعاهدات الدولية الأخرى، تكون الهدنة عند انتهاء مدتها قابلة للتجديد بموافقة مشتركة.

بالنسبة للهدنة الشاملة طويلة الأمد التى تقترحها حماس، فإنها تنص - كشرط أول - على انسحاب إسرائيلى إلى حدود ٤ يونيو عام ١٩٦٧، بما يعنى استعادة جميع الأراضى التى احتلها الإسرائيليون نتيجة لحرب الأيام الستة، بما فى ذلك القدس الشرقية (فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وجهت إسرائيل ما تزعم أنها «ضربة دفاعية وقائية» ضد مصر وسوريا والأردن

استمرت ستة أيام واحتلت أثناءها ما تبقى من فلسطين (قطاع غزة والضفة الغربية) وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان. ونتيجة لذلك تحول أكثر من ربع مليون فلسطينى إلى لاجئين). ويتضمن مثل هذا الإجراء إبعاد جميع المستوطنين اليهود من تلك المناطق (تم بالفعل إخلاء وتفكيك المستوطنات اليهودية فى قطاع غزة. وقد شهد الخامس عشر من أغسطس عام ٢٠٠٥ بداية تنفيذ الخطة التى أنهت الاحتلال الإسرائيلى - وليس السيطرة الكاملة رغم ذلك - على القطاع. وقد قرر رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق «آريل شارون» خطة لانسحاب أحادى الجانب بعد أن أصبح استمرار الاحتلال الإسرائيلى لقطاع غزة مكلفا للغاية لإدارته من الناحية الاقتصادية والسياسية. وعند انتهاء الانسحاب الإسرائيلى، ادعت حماس أنها انتصرت، زاعمة أن قرار إسرائيل يرجع إلى نجاح إستراتيجيتها العسكرية). بالإضافة لذلك، سيكون على إسرائيل أن تطلق سراح كافة الفلسطينيين المحتجزين فى سجونها ومعسكرات اعتقالها. ومن غير المرجح على الإطلاق أن تقبل حماس بأقل من ذلك مقابل هدنة طويلة الأمد قد تستمر لمدة ربع قرن أو أطول من ذلك.

وبينما ترك قادة حماس الذين يفضلون الهدنة مدتها مفتوحة، معتبرين ذلك أمرا خاضعا للتفاوض مع الإسرائيليين إذا ما قبلوا المبدأ، فإنهم عامة يقترحون أن المستقبل يجب تركه للأجيال القادمة.

يفترض عادة أن الهدنة طويلة الأمد قد تستمر لمدة ربع قرن أو أكثر. وتبدو تلك فترة طويلة جدا كى يتوقع المرء ما قد يحدث بعد ذلك. وسيكون هناك دائما احتمال انتهاء الهدنة قبل أوانها بسبب خرقها. ولو حدث ذلك فمن غير المرجح على الإطلاق أن يأتى الخرق من جانب حماس، لسبب بسيط، هو أن الجانب المسلم ملتزم دينيا باحترام الاتفاق حتى النهاية، ما لم ينتهكه الطرف الآخر. وإذا ما استمرت الهدنة حتى نهاية المدة المنصوص عليها، فأحد السيناريوهات المتوقعة هو أن المسئولين فى ذلك الوقت - ببساطة - سوف يتفاوضون بشأن تجديدها.

وهناك سيناريو آخر يسود تفكير بعض أوساط حماس الفكرية، وهو أن العالم سوف يتغير كثيرا جدا، بحيث أن إسرائيل - ككيان صهيونى - ربما لا ترغب فى البقاء أو لا تملك القدرة على الاستمرار. ومن ناحية المبدأ، يستطيع المسلمون والمسيحيون واليهود العيش معا فى المنطقة كما عاشوا معا لقرون عديدة فى الماضى. إن ما يفكر فيه الإسلاميون عادة هو دولة إسلامية، خلافة، تضم جزءا كبيرا من الشرق الأوسط، كتعويض عن التفتت الذى فرض على المنطقة نتيجة للاستعمار فى القرن التاسع عشر ثم تطبيق اتفاقية «سايكس-بيكو Sykes-Picot» عام ١٩١٦. وقد تحولت الكيانات الناتجة عن العملية إلى «دول إقليمية» منفصلة عقب انهيار النظام العثمانى فى العقد الثانى من القرن العشرين. وبينما تمثل إسرائيل - كدولة تقتصر على اليهود فى فلسطين - كيانا لا يمكن أبدا لحركة إسلامية مثل حماس أن تعترف بشرعيته، فإن اليهود يمكن بسهولة أن يندمجوا كمواطنين شرعيين فى دولة متعددة الأديان والأعراق يحكمها الإسلام. أما سيناريو ما بعد إسرائيل، والذى أصبح مثار نقاش داخل الحركة، فهو يرى دولة فلسطين أو شرق أوسط متحد، به سكان من اليهود ولكن بلا صهيونية سياسية. وتلك رؤية مستلهمة من نموذج المصالحة فى جنوب أفريقيا الذى أنهى التمييز العنصرى ولكنه أبقى على تعايش جميع المجتمعات مع بعضها البعض. عادة ما تقارن الصهيونية بالتمييز العنصرى، ويعتبر القضاء عليها أمرا محتما إذا كان مقدرا على الإطلاق للمسلمين والمسيحيين واليهود أن يتعايشوا فى سلام بالمنطقة. وسيكون من المستحيل ترجمة مثل هذا السيناريو إلى واقع بدون هدنة طويلة الأمد توفر على مدى حياة جيل قادم الفرصة للمجتمعات والشعوب فى المنطقة لاستعادة جزء من الحياة الطبيعية.

أولئك المتشككون بشأن الهدنة ربما يجادلون بأنها لا تعدو أن تكون مقدمة للقضاء على إسرائيل تماما. ولكن بدون الهدنة أيضا سوف يستمر الفلسطينيون فى حلمهم باليوم الذى تتحرر فيه فلسطين وطنهم ويستعاد حقهم فى العودة لمنازلهم. وبدون هدنة لا يوجد ضمان فى توقفهم عن محاولة تحقيق ذلك الهدف باستخدام أية وسائل تتاح لهم. وميزة الهدنة أنها توقف سفك الدماء والمعاناة، بسبب الالتزام بذلك لمدة محددة من الزمن. ولندع فى الوقت نفسه كلا الطرفين يحلمان بالمستقبل الذى يتمنيانه، تاركين الباب مفتوحا لجميع أنواع الخيارات. وفى الظروف العادية فإن الخيار الأفضل هو الخيار الأقل كلفة. ■



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة
١٣نوفمبر١٩٧٤

بعد عدد من العمليات الفدائية التى هزت العالم بعد انطلاق حركة فتح، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، سلم المجتمع الدولى بأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين نشأت بسبب حرمانهم من حقوقهم غير القابلة للتصرف بموجب ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان. وفى أيلول سبتمبر من العام ١٩٧٤اقترحت ٥٦ دولة أعضاء فى الأمم المتحدة إدراج قضية فلسطين بندًا فى جدول أعمال الجمعية العامة ودعت ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ليلقى خطابًا أمام الاجتماع الذى انعقد فى ١٣ نوفمبر من العام نفسه. وكانت هى المرة الأولى بعد النكبة التى يستمع فيها ممثلو المجتمع الدولى لممثل عن الشعب الفلسطينى صاحب القضية الأكثر تعقيدا فى التاريخ الدبلوماسى الحديث.

وهنا ننشر مقتطفات من الخطاب. الذى يدعو فيه إلى «دولة واحدة ديمقراطية»، يعيش فيها المسيحى واليهودى والمسلم فى كنف المساواة والعدل والإخاء:

«إنها ايديولوجية استعمارية استيطانية عنصرية تمييزية رجعية تلتقى مع اللاسامية فى منطلقاتها، بل هى الوجه الآخر للعملة نفسها. فعندما نقول ان تابعى دين معين، هو اليهودية، أيًا كان وطنهم، لا ينتسبون إلى ذلك الوطن، ولا يمكنهم ان يعيشوا كمواطنين متساوين مع بقية المواطنين من الطوائف الأخرى، فان ذلك التقاء مباشر مع دعاة اللاسامية. وعندما يقولون ان الحل الوحيد لمشكلتهم هو ان ينفصلوا عن الأمم والمجتمعات التى هم جزء منها عبر تاريخ طويل، ثم يهاجرون ليستوطنوا أرض شعب آخر ويحلون محله بالقوة والإرهاب، يأخذون من غيرهم الموقف نفسه الذى اخذه دعاة اللاسامية منهم».

عبـــــدالـلـه إبـراهـيـــــم

عــن الــهـــــــويـــة

■■ سعى الكاتب الإسرائيلى «عاموس عوز» فى سيرته «قصة عن الحب والظلام» إلى تعديل مفهوم الهوية اليهودية التى قامت على جمع المتناقضات، إذ اختصت بها جماعة مشتّتة فى أكثر من قارّة، وهو أمر تعذّر حدوثه مع أية جماعة أخرى عبر التاريخ؛ فالمكان الحاضن للجماعة يعد معطى أساسيا من معطيات الهوية، لكن اليهود نجحوا فى اعتبار المكوّن الدينى هو الركيزة الأولى فى هويتهم، وفى ظل حقبة انتقالية لمفهوم الهوية من وضع الشتات إلى وضع الاستقرار لابد أن تستعاد أحداث الماضى بوصفها تجربة اعتبارية داعمة للمفهوم الجديد، وترفق بالحدث الانتقالى الخاص بالظروف الحاضنة لمفهوم الهوية، وهو توفّر «وطن» ضامن للهوية بعد غيابه مدة طويلة، وأخيرا الإشارة الرمزية إلى الاحتمالات الممكنة فى المستقبل.

عرض «عاموس عوز» تفاصيل الرواية الصهيونية لنشأة إسرائيل بوصفها دولة عبرية أعادت لمّ الشتات اليهودى، فلم يتوقف على الآلام التى نتجت عن هذا الحدث، إنما انصرف اهتمامه إلى الاحتفاء ببطولة المتطرّفين الذين أنجزوا وعدهم فى محو الوجود العربى من الأرض، وتثبيت اليهود فيها. فلم يتطرق إلى الحق التاريخى، فعلى أرض فلسطين جرى استبدال جماعة بجماعة، وهوية بهوية.

أخفت الكتابة السردية الناعمة حقيقة المصائر التى انتهى إليها ملايين من الذين أبعدوا عن أرضهم، إذ جعل «عاموس» من أسرته اليهودية المركّبة من عدة أفرع وأجيال فى بلاد شرق أوربا ووسطها مركزا للسرد طوال صفحات الكتاب الكبير، فأخفى التتبع الدقيق لقدوم أفرادها إلى فلسطين أمر طرد أهلها الأصليين عن أرضهم، فوصول المهاجرين اليهود إلى الأرض الموعودة بالتوراة أخفى إبعاد الفلسطينيين عنها، وقد جاء الاستبدال على خلفية بطولة دينية - قومية طمست فى السرد الحقيقة التاريخية لوجود الخاسر. فلم يكن ثمة نزاع بين رواية منتصر ومهزوم، إنما هو تقريظ دينى لأبطال عملوا جادّين زمنا طويلا من أجل استعادة وطن توراتى انتزع منهم منذ ألفى عام.

A Tale of Love and Darkness
Amos Oz,
Mariner Books (2005)

> **لُقّن «عاموس عوز» فى طفولته أفكارا عن الخوف من الآخر، وتشرّب بكراهية غير اليهود، فارتسم العالم خارج الأرض المقدّسة فى خياله معاديا، ومصدر خطر مؤكد**

من الصحيح أن سيرة «عاموس عوز» ركّزت الاهتمام على عائلته وخلفياتها الثقافية المتنوعة، وهى تعيد توطين نفسها فى أرض موعودة، لكنها لم تعن بالخلفية الحقيقية لمجريات الأمور، إذ اعتبر الحدث برمّته تعديلا لخطأ قديم اقترف بحق اليهود منذ التخريب الثانى للهيكل. وإعادة الحق لا تلزم الوقوف على التداعيات الجانبية المؤلمة التى ترافقه، فلا ينبغى أن تحجب آلامُ أفراد أبعدوا عن أرضهم بطولةَ الأمة اليهودية؛ فذلك يخدش الفعل الملحمى العبرانى، وجاءت الرواية الدينية التى قدمها عن نشأة إسرائيل جريئة ومباشرة لأنها لم تخف التعصب، ولم تبال بالتاريخ، وشاحت بوجهها عن شبكة الوقائع المؤلمة التى رافقت ذلك وأعقبته، فكأنها رواية لاهوتية منقطعة عن سياق التاريخ العالمى المعاصر، وتصادف ذلك مع بداية مراهقته حينما كان يتلقّى سيلا من الإيحاءات المتطرفة بصهيونيته ما جعله يحلم بتدمير العالم من أجل حماية اليهود.

لُقّن «عاموس عوز» فى طفولته أفكارا عن الخوف من الآخر، وتشرّب بكراهية غير اليهود، فارتسم العالم خارج الأرض المقدّسة فى خياله معاديا، ومصدر خطر مؤكد، فالناس «لا يحبون اليهود لأنهم فطنون.. ولا يحبون مشروعنا فى أرض إسرائيل لأنهم يحسدوننا حتى على قطعة أرض صغيرة كلها مستنقعات وصخور وصحارى. هناك فى العالم جميع الحيطان كانت مغطاة بالكتابات المعادية «أيها اليهودى الحقير، اذهب إلى فلسطين» وها قد ذهبنا إلى فلسطين والآن كل العالم يصرخ علينا» أيها اليهودى الحقير، اخرج من فلسطين».

بدأ الصغير «عاموس» حلمه الطويل فى أن يكون محاربا يهوديا يقود جيوشه لإبادة الأعداء فى كل مكان، ورفع العلم العبرى إثر كل انتصار، وقد خص العرب والأقوام الشرقية بكثير من خياله الحربى، فقادته أحلام اليقظة إلى تكوين حلف مقدّس يقف فى «وجه موجات الهمجية الشرقية، ملتوية الأحرف، ومعوجّة السيوف، والمتوهجة والمبحوحة، والتى تهدد بالانطلاق من الصحراء لتذبحنا وتنهبنا وتحرقنا وهى تعول وتصرخ بعويل وصراخ يجمد الدماء فى العروق».

تشرّب الطفل بهذه الأحلام صغيرا فى جوّ عائلى مشبع بالخوف من الآخرين، ومولّد للكراهية ضدهم؛ تبنّى العالم كراهية مركّبة لليهود، لأنهم أذكى بنى آدم، فيكون الفطنون، والنابهون موضوعا لكراهية البلهاء، وفيما كانت شعوب الأرض كلها تعيش فى أوطان سعيدة فقد بخست حق اليهود فى إحياء أرض صغيرة مهجورة وجعلها وطنا لهم، فعبّرت عن كراهية مجردة عن أى سبب، وأطلقت نداء عاما تحقّرهم فيه وتطلب إليهم أن يذهبوا إلى فلسطين من أجل التخلص منهم، وحينما أخذ اليهود بذلك، وأقاموا فى تلك الديار، عاد العالم يصرخ بأن يخرج اليهود من فلسطين. جرح العالم الخارجى وجدان اليهودى، فقد أغرب بوجهه عن أمة ذكية لا وطن لها، فلا يريد أن يكون لها موقع تحت الشمس.

أخفى هذا النمط من التربية التى تلقّاها «عاموس» كل ما ينبغى أن يصرّح به، إذ طمست الوقاحة كل الحقائق الصلبة، وبمكانها وضعت نسقا متهافتا من الافتراءات جاءت بصورة شكاوى وأوجاع لاستدراج العطف، فكيف يستقيم أمر عالم ينكر على خيرة أبنائه وطنا؟ وما دام العالم يرتع فى جهل بدائى فهو غير مؤهل للحكم على مصير النخبة الفطنة فيه، إذ لم يقدّر قيمتها، واستكثر عليها الاجتماع فى أرض هشة قوامها المستنقعات والجبال والصحارى، وحتى حينما استجابت لنداء الطرد واستوطنت تلك الأرض، فقد نكث العالم بما أراده وعاد يطالبها بالنزوح عن تلك الأرض. لا يضمر العالم الغاطس فى جهله غير كراهية مطلقة لخيرة الجنس البشرى. وما دام الأمر بهذه الصورة البشعة والمتقلّبة فلا يلزم اليهود أن يعيروا انتباها لعالم يفتقر لكل المعايير السوية، وعليهم أن يتفرّدوا بإقرار مصيرهم، ويمارسوا القوة ضد الآخرين، ويعيدوا تعريف هويتهم بالسلاح.

وعن هذه المقدمة الزائفة تمخضت نتيجة خاطئة صمت عليها «عاموس عوز» وقامت عليها فكرة الاستيطان، وهى الادعاء بخلو فلسطين من أهلها، فهى مستنقعات وجبال وصحارى، فلا بأس، والحال هذه، من إعمارها وتحقيق الوعد التوراتى بامتلاكها. لقد جرى محو الفلسطينيين من العالم المتخيل للنص، ولم يأت على ذكرهم إلا بصورة عابرة بوصفهم نماذج منتزعة من سياق لا يراد له الحضور فى السرد. على أن تلك الكراهية كانت جامعة شملت العالم، فلم يستثن أحد من ذلك، إذ غطيت جدران العالم كله بالشعارات المعادية لليهود، مرة يطلب إليهم الذهاب إلى فلسطين من أجل إبعادهم والتخلص منهم، وأخرى تريد منهم ترك تلك الأرض التى بنوها بالجهد والدم والمال. يا له من عالم تافه ينبغى عدم الالتفات لكل ما يصدر عنه، ذلك ما تشبّع به الطفل من مسلّمات وهو يعيش مع والديه فى القدس ببيت معتم لا تزيد مساحته على ثلاثين مترا مربعا حيث تلقّن فيه الأفكار الصهيونية.

على أن تفاصيل بناء تلك الهوية كانت معقّدة، وفيها كثير من استبعاد المؤثرات الثقافية الخارجية، وتحصين النفس من أخطارها، وتضخيم الذات اليهودية وتغذيتها بالمرويات الدينية، فقد ذكر «عاموس» أن أباه كان يقرأ بنحو سبع

قراءة فى سيرة عاموس عوز



عشرة لغة، ويتحدث بإحدى عشرة، أما أمه فتتحدث بخمس، وتقرأ بسبع أو ثمان، ولكن الأبوين أصرا على الحديث فيما بينهما بالروسية أو البولندية ليخفيا عنه أفكارهما وخصوصياتهما، أما «أحلامهما فى الليل فقد كانت بالتأكيد بالإيديش».

امتنع الأبوان عن تعليم الطفل أية لغة ما خلا العبرية التى لم يكونا يجيدانها خشية عليه من أن معرفة اللغات الأخرى قد تكشف له مغريات أوربا، فالأجيال اليهودية الجديدة ينبغى عليها أن تحبس فى معتقد وثقافة ووطن، ولا يجوز لها معرفة المعتقدات والثقافات والأوطان الأخرى. أراد الأبوان للابن أن يكون الابن يهوديا نقيا غير ملوث بأية ثقافة ما عدا الثقافة التى أصبحت اللغة العبرية وسيلة التعبير عنها، وهى الثقافة اليهودية بحسب التعريف الصهيونى لها.

ارتبط ظهور العبرية بتجمع اليهود فى مكان واحد لتكون اللغة المشتركة بينهم، حيث كانوا يعتبرون أن اللغة الواحدة من ضرورات اجتماعهم تحت سقف وطن واحد وعلم واحد، جرى التخلى عن «الأيدشية» لأنها ملوثة بالجرمانية، وهى لغة قوم نكلوا باليهود فلا يصح أن تكون وسيلتهم للتعبير عن أنفسهم، فكانت العبرية الحديثة هى البديل المناسب لنشوء أمة جديدة على وطن جديد. ليس «عاموس» وحده من ينبغى عليه اجتناب التركة المريرة للشتات بلغاته وثقافاته إنما ينبغى على «جيل الاستقلال» بكامله أن يلد ولادة جديدة بلغة ووطن وثقافة. فمن أجل تحقيق فكرة الانتماء لا بد من ممارسة عنف ضد اللغات الأخرى، والإعلاء من شان لغة واحدة تصبح علامة على الهوية.

لا يخفى التوازى بين اللغات الكثيرة التى أجادها الأبوان وتعدد البلاد التى قدما منها، والاقتصار على العبرية والإقامة فى أرض الميعاد بالنسبة للابن، فمن أجل إنشاء وطن لليهود فيه مواطن يجيد لغة واحدة ينبغى استبعاد كل ما يتصل بشتات اللغات الأجنبية وبلادها، وإذا كان توزع اليهود بين البلاد واللغات قد هدد بطمس هويتهم الدينية، فيلزم الابن أن يتمرس بلغة أهله ويقيم فى وطنه، فذلك يعصمه عن أى ذوبان محتمل أمام الحراك العالمى الذى يلتهم الهويات الصغرى، ويفكك الأواصر الدينية والعرقية.

لم ترد فى سيرة العائلة أية إشارة تعيق فعالية هذه المُسلّمة، فالأجداد والآباء من النساء والرجال تشبّعوا باللغات والثقافات والمنافى، وعلى الطفل وحده أن يخوض هذه التجربة، فلا يسمح له إلا بلغة واحدة ووطن واحد، ذلك هو مضمون الفكر الصهيونى الذى وجد سبيله للظهور فى الكتاب من خلال عائلة «كلاوزنر» وهى عائلة «عاموس» قبل أن يغير هو اسمه. ولكن على خلفية الإطار الواسع لوقائع تلك السيرة ارتسم تفكك داخلى، فقد تمزقت الأواصر الداخلية للأسرة الصغيرة التى تألفت من الطفل وأمه وأبيه بعد «الاستقلال»، ففيما رسم الكتاب الظروف الأيدلوجية والتاريخية والسياسية التى جمعت شمل اليهود فى فلسطين، وتأسيس دولة حامية لهم، وصهر اليهود فى جماعة واحدة تحامى عن نفسها الأخطار الخارجية كلها، وقع التمزق فى صلب الأسرة بعد تحقيق كل ذلك، فقد انتحرت الأم يائسة، وخرج الابن إلى معسكر العمل الزراعى «كيبوتس جولدا» وهو فى الخامسة عشرة من عمره رافضا السلطة الأبوية، ثم اخفق الأب فى تحقيق حلمه فى أن يكون باحثا ذا شأن فى الثقافة اليهودية وشغل بزواج ألهاه عن ذلك حتى سقط ميتا بسكتة قلبية.

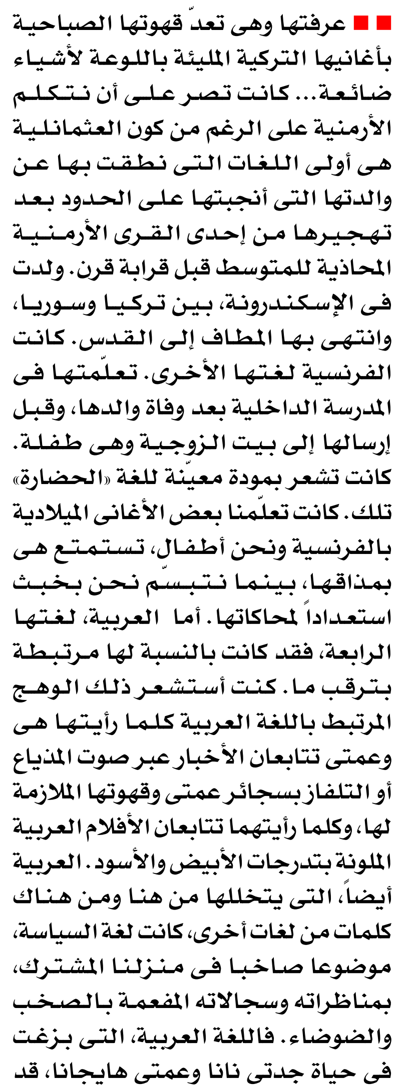
نقض التفكك العائلى فكرة لمّ الشمل اليهودى، فإذا كانت فكرة جمع الشمل قد ربطت بين الشتات اليهودى، والوعد التوراتى، والكراهية التى نشأت ضد اليهود فى أوربا بين الحربين العالميتين، فإن التفكك العائلى حدث بعد زوال تلك الأسباب، وانطفاء الأحلام المرجاة، ومواجهة الظروف المباشرة للحياة على أرض الآخرين. لقد جرى الاحتفاء بإعادة تعريف الهوية اليهودية، وأُهملت نذر الخطر التى لاحت فى الأفق، فحينما لا يقع اعتراف بحق الآخر فهذه هى الوسيلة الوحيدة لجعله ممكنا. ■

إن قيادة المرأة المنفية للبشرية قد أوشكت على أن تكون زيتونة لا شرقية ولا غربية، لا قروية ولا مدنية، لا برجوازية ولا بروليتارية، لا عالمة ولا جاهلة، لا خارجية ولا داخلية، لا ذكرية ولا أنثوية، لا واقعية ولا خيالية وإنما كينونة حيوية جدلية...

زهرات جَدّتي .. ومَدائن عمّتي

صنـــاعة امـــرأة عصـــرية

اليـــــز اغــــازريــان



■■ عرفتها وهى تعدّ قهوتها الصباحية بأغانيها التركية المليئة باللوعة لأشياء ضائعة... كانت تصر على أن نتكلم الأرمنية على الرغم من كون العثمانلية هى أولى اللغات التى نطقت بها عن والدتها التى أنجبتها على الحدود بعد تهجيرها من إحدى القرى الأرمنية المحاذية للمتوسط قبل قرابة قرن. ولدت فى الإسكندرونة، بين تركيا وسوريا، وانتهى بها المطاف إلى القدس. كانت الفرنسية لغتها الأخرى. تعلّمتها فى المدرسة الداخلية بعد وفاة والدها، وقبل إرسالها إلى بيت الزوجية وهى طفلة. كانت تشعر بمودة معيّنة للغة «الحضارة» تلك. كانت تعلّمنا بعض الأغانى الميلادية بالفرنسية ونحن أطفال، تستمتع هى بمذاقها، بينما نتبسّم نحن بخبث استعداداً لمحاكاتها. أما العربية، لغتها الرابعة، فقد كانت بالنسبة لها مرتبطة بترقب ما. كنت أستشعر ذلك الوهج المرتبط باللغة العربية كلما رأيتها هى وعمتى تتابعان الأخبار عبر صوت المذياع أو التلفاز بسجائر عمتى وقهوتها الملازمة لها، وكلما رأيتهما تتابعان الأفلام العربية الملونة بتدرجات الأبيض والأسود. العربية أيضاً، التى يتخللها من هنا ومن هناك كلمات من لغات أخرى، كانت لغة السياسة، موضوعا صاخبا فى منزلنا المشترك، بمناظراته وسجالاته المفعمة بالصخب والضوضاء. فاللغة العربية، التى بزغت فى حياة جدتى نانا وعمتى هايجانا، قد ارتبطت بالثورة على معتقدات النظام العثمانى، نحو أفق واعد بـ «التقدم» و«الاستقلال» و«تحرير المرأة».

كانتا تربطان حرفتهما بواجب وطنى: صناعة امرأة «عصرية» منخرطة فى المجتمع (على شاكلة أدوار بعض بطلات أفلامهما مثل ماجدة وفيروز وفاتن حمامة...). كانتا تؤمنان بالمرأة «الحديثة» و«الأنيقة» و«المنخرطة فى المجتمع» و«الموهوبة». وكان معقل نشاطهما «حى الزهراء» فى القدس الشرقية. حى عُرف يوماً بحداثته. تصلين إليه بعد أن تمرى من شارع السلطان سليمان ثم حى صلاح الدين من جهة، وشارع الرشيد من جهة أخرى ومتحف روكفلر البريطانى الفلسطينى، ومن دكانة «زهرة المدائن»... أسماء تقرّب المرء من دكانة جدتى وعمتى الصغيرة المليئة بالحبكات والزهور وماكينات «سنجر» للخياطة.

تدخل «المدامات» الدكان ويخترن «الموضة» عبر مجلة «بوردا» الألمانية وبعض المجلات الفرنسية. تبدأ جدتى بتفحص جسد «المدام»، ثم بتشخيص الحالة والتكتيك، ثم يبدأ الحديث عن ألوان وأنواع القماش الملائمة، والأقمشة الجديدة المتوفرة فى محلات «بطشون» و«أبو خلف» للقماش، يتخللها أخبار سياسية واجتماعية، لتبدأ عملية جدتى وعمتى هايجانا وزميلتهما رويدة الماهرة على القماش. تتفحصها عمتى بعناية فى الطابق الثانى واضعة نظاراتها السميكة السوداء، وتأخذ بدراسة وهندسة تفاصيل القماش بمسطرتها الطويلة وكستبانها والخيط المتناغم مع لون القماش وصابونها الأبيض. تبدأ بعد ذلك بسلخ القطع وإعادة تناسخها إلى أن يحين موعد «البروفا»، حين تدخل «المدام» فى أجواء من القهقهات والتعليقات والأقنعة، ونظر مستمر إلى المرآة، لتجرب مسودة الرداء الذى سرعان ما يتحول شيئاً فشيئاً إلى ثوب حديث. أما رويدة، الفارسة الثالثة فى الدكان، والمنحدرة من عائلة مقدسية من مدينة الخليل، فقد عاشت روايات النسوة المختلفة عبر أباريق الشاى الدافئة التى كانت تخرج من يديها الجميلتين وعبر حبكاتها المتفانية وهدوئها المتكلم.

عهد من عرف جدتى من سلالة والدى على تسميتها بـ «الست أليس» وعهدنا نحن على تسميتها بكلمة «نانا»، لتمييزها عن جدتنا من سلالة أمى «إنصاف» الحنضلية التلحمية التى تصغرها بقرابة عقد من الزمن، وتدعوها قلوبنا بكلمة «تيتا»، والتى كثيراً ما استشعرت بالجنة تحت قدميها، وروتنا منذ الطفولة بتراث المريمية. إنصاف التى تحمل بجبها منجماً من الحكايات الشعبية الفلسطينية، وتعرف كيفية التخلص من «العين» بالتعاويذ، وكيفية فتح الفنجان (مع سجائر «فريد» وحبها الدفين لفريد شوقى وفريد الأطرش الذى تعبر عنه بقهقهة حياء)، وصوفيتها وصلاتها المسيحية المستمرة التى تحكى حكايا التراب. كثيراً ما أشعرها حية أزلية بين الأشجار والأرض والمريمية والنعنع والملوخية والدوالى والكعك والسمسم والصعتر والكوسا والصفرم والثوم والكشك والجبن والبخور ،... عالمها الحيوى النابض الذى ورثته أمى وسأروى حكايته فى ملف آخر حينما يحين الوقت.

كانت «نانا» تستمتع بسلطة فحص البروفا. تشرف على تناغم الأجساد والأقمشة والخيوط والخرز والأزرار الملونة التى ستخرج من مصنعها بعناية، وتقوم بدراسة مسودة الرداء لملاءمة جسد المرتدية. أخبرتنى أن حلمها بأن تصبح طبيبة لم يتحقق نظراً لتزويجها القسرى، فأخذت تعبر عن ولعها بالطب من خلال «فن الأزياء» (الذى يتطلب أيضاً التشريح، ويتضمن دوراً ومكانة إن لم يكن سلطة ما تجذبها). كانت تستمتع سراً بالإطراء على أدائها بعد أن يجهز الرداء، فتراقب وجه «المدام»، وردة فعلها، وتأخذ خلسة بالنظر إلى المنتوج من خلال الصورة المنعكسة عبر المرآة التى تواجهها للتأكد من أن كل شىء على ما يرام، ثم يبدأ تعليقها بالعربية أمام الزبونة (وبالأرمنية والعثمانلية والفرنسية مع عمتى) فيما يتعلق بالملف المالى.

تخبرنى أن حى الزهراء كان حديثاً أو «موديرن» (تنطقها باللهجة الفرنسية). ففيها تم تأسيس أول فنادق القدس، وكان هناك سينما ودكاكين جميلة، و«كانت النساء يجبن الطريق ببدلاتهن وقبعاتهن الزاهية». تقف اليوم بعض المكاتب وشركات السياحة، ومحل قرطاسية، ومقهى، ومحل للتصوير ودكانة تبيع مستودعات ومساحيق للتجميل، وبعض المطاعم والمحال التى عاشت تاريخها. «أما اليوم، فقد تغيّر طابع الحى» تشير باغتراب برجوازى: أصحاب حوانيت يبيعون إكسسوارات ومناديل صينية وتركية، ومحلات ملابس وأحذية ومنتوجات غذائية إسرائيلية، وأشرطة دينية وملابس تبيع الجلابيب، وشرائط عربية منسوخة لفنانات يظهرن أحياناً عبر الفضائيات. لم ينسجم أى من ذلك مع رؤى «المرأة العصرية» التى كانت أشبه بموقف عقائدى بالنسبة لنانا وعمتى هايجانا. ولذلك لا يمكن إخفاء اغتراب هذه السيدة وغيرها من السيدات فى جيلها من التحول فى الأيديولوجيا الدينية فى القدس فى أواخر الثمانينيات وبدايات التسعينيات. كان نمط الحياة هذا بالنسبة لها كطعنة فى ظهر المبادئ التى ثارت هى وصديقاتها من أجلها فى صراعهن مع أمهاتهن ذوات النزعات العثمانية. غير أنها أخذت تتعود على الفكرة مع الوقت، بل كانت فى السنوات الأخيرة قبل مرضها تخيط بعض الملابس الدينية، وخاصة مع رغبة بعض الملتزمات بالزى الشرعى تصميم أزياء على أهوائهن، ووفقاً لما يشعرن بأنه يلائمهن.

كنا أثناء طفولتى نعيش تحت سقف واحد. كان منزل جدتى وعمتى هايجانا فى قعر البلدة القديمة، يطل «السطوح» على «المشهد»: بيوت متراصة، الكنيسة التى أعدم فيها القديس يوحنا، كنيسة القيامة وجامع عمر، قبة الصخرة والمسجد الأقصى، كنيسة الموارنة، وقلعة داود، ومن بعيد يطل جبل الزيتون ومستشفى المطّلع، التى يحكى أنه بناها القيصر وليام الثانى تكريماً لزوجته أوغستا فيكتوريا. وعلى الطرف الآخر بركة سليمان، مركز النفايات فى البلدة القديمة التى تروى جدتى أن الملك سليمان رأى امرأة تستحم هناك، فأرسل زوجها للحرب



زهرات جدتيّ ..  ومدائن عمتي

ليتزوجها، ومدرسة مار يوسف الأنيقة وكنيسة الروم الكاثوليك وفندق البتراء. قيل إن المنزل كان في الماضي نزلاً أقام فيه بعض الكتاب والشخوص مثل هرمان ميلفيل ومارك توين وغيرهما. كانت جدتي نانا تنزعج من صوت الأذان قرب غرفتها الذي أخذ يعلو أكثر فأكثر في الثمانينيات، والذي تخبرنا أنه يعيق من قدرتها على النوم والحلم. «الإيمان صار عنيفا وبس مظاهر. كان زمان أعمق». كان موقفها هذا يؤدي إلى جدل حاد مع والدي الذي كان يصر أنه طقس يحبه في المدينة، والذي كان أثناء طفولتي يعلمني بعض الآيات القرآنية كي ألمس بعض جمالية اللغة العربية، ويعرفنا دوماً على مختلف «رفاقه» من كافة الأطياف والأديان، ويخبرنا الحكايات والطرائف والتروسكيين والقدس الذي تماهى مع حجارتها.

كانت كل زهرة تحوكها نانا تستغرق بعض الوقت. أما تركيب الخرز على الأقمشة، فقد كان يستهلك أياماً، وجهداً جهيداً وتركيزاً بصرياً ويدوياً. ولذا، لا عجب أن تحتقر خياطة المصانع وسرعتها التي تفوق البصر. يختلف ذلك عن الطقوس الزمانية والمكانية لمختبرها: فقد تضمن ذلك التعرف على السيدة، مراسم شرب القهوة، اختيار الأقمشة وملحقاتها، وفحص جسد السيدة، ثم البدء بالعملية وملاءمة القماش للمرأة، مع حذف وإضافة من هنا وهناك، ليتحول إلى مرافق أنيق للجسد.

خلال سنوات الثمانينيات، برز لدى «نانا» عداء دفين للبنطال. فبالنسبة لها، لم يقم البنطال فقط بإبعاد زبوناتها عن سطوتها، بل اقترن أيضاً بمرحلة أدت إلى تغيير صورة «المرأة العصرية»، بل وتغيير الأحلام البنفسجية التي آمنت بها، نحو نظام جديد أكثر أسرلة وأمركة وأسلمة. فقد أخذت النسوة يخفين أجسادهن شيئاً فشيئاً، وأخذت الألوان الزاهية تخبو. وبدلاً من ملاءمة القماش للجسد، أخذت النسوة يفعلن العكس من خلال برامج الحمية لتناسب «الحواضر» المصنعة في إسرائيل، أو المستوردة من تركيا والصين والولايات المتحدة. «ولكن هذا أكثر تحرراً من التنورة» كنا نقول لها. غير أنها لم تقتنع بعنادها المعهود. أما بنطال «الجينز»، فلم تتقبله كلية في البداية، بل كانت تشعر أنه «اختراع أمريكي عنيف وغير أنيق». أثناء مراهقتنا، كثيرا ما واجهت الأمرين مني ومن أختي وابنة إحدى عماتي مع إصرارنا على لبس بنطال الجينز، وكانت تحاول إغواءنا بتصميم أي ثوب نريده، مهما كان قصيراً، بشرط ألا نلبس بنطال الجينز.

ومع إصرارنا على الثورة على معتقداتها «البرجوازية»، ومع شيوع بنطال الجينز، حتى من قبل بعض زبوناتها المحببات، ومن منطلق ضرورة كون المرأة أحياناً «سبورت» على حد قولها، سرعان ما تعودت على الفكرة.

منذ أواخر التسعينيات، أخذ ارتياد الزبونات إلى المحل يخبو، باستثناء بعض النسوة المتعلقات بصومعة مصنع «المرأة العصرية» أو الراغبات بتعديل أجزاء من ملابسهن أو تصميم فساتين على أهوائهن. «كان دكاني معهداً» تقول بنبرة مبالغة. «في زمني لم يكن عادياً بالنسبة للمرأة أن تعمل. ثرت على المجتمع وتمكنت من فتح دكانة وإدارتها لوحدي». تروي لي عن «تلك الأيام التي كانت البنات يدرسن الخياطة في الدكان ويحصلن على شهادات». «كنت أنظم عروض أزياء تظهر في صالات السينما»، «كان هناك محل قرب دكاني يبيع قبعات وأحذية تنسجم مع الفساتين»... تنتقل كعادتها إلى الحديث عن حياة زبوناتها، وطالباتها، وشخوصهن، وفساتينهن، وأذواقهن، وقصص حبهن، وعلاقاتهن مع القضاء والقدر، وأزواجهن، وأحفادهن وكأنهن زهرات من الزهور التي تصنعها بالقماش.



كانت لها سطوة ما... يتخوّف منها نساء ورجال العائلة. تتفحص المرء بعناية بنظاراتها البنية السميكة. ثم تبدأ بالمقايضة على ما تريده، مستجدية العطف حيناً والقسوة حيناً أخرى. كان يتسنى لي أحياناً مشاهدة وجه آخر من وجوهها العديدة. من ذلك عندما كانت تقص عليّ حكايات أرمنية قديمة حول القضاء والقدر، وأحداثاً تاريخية. فكونها قد ولدت في الربع الأول من هذا القرن قد جعلها تعاصر أحداثاً مثيرة، مثل قيام إسرائيليين بوضع قنابل في القدس أثناء الانتداب التي أودت بحياة إحدى صديقاتها. في إحدى الأيام، أخبرتني حكاية اسمنا المشترك. «والدتي حبلت بأختي وبي بعد أن تم قتل كل أبنائها السبعة... ظنت أن معجزة ما قد حدثت وأن أبناءها الأموات سيعودون إلى الحياة. فأسمت الأولى ماكروهي والثانية اليز. اليوم ماكروهي في بغداد وأنا في القدس».

تحاول في بعض المناسبات ارتكاب الحيل. من ذلك التمارض متى شاءت ممارسة سطوتها أو فرض بعض رغباتها، أو تضخيم الجانب الشبابي من شخصيتها متى أرادت كشف أسرار أحفادها من الشباب «كنت أرقص الشارلستون مع الفتيات في مدرسة الأيتام أثناء طفولتي. كنت من البارعات» كانت تتباهى هي وكنا لا نستطيع نحن تخيلها ترقص. كثيراً ما عبرت عن اغترابها عنا، وسلطت عدساتها على ضرورة زواجنا نحن الحفيدات، الأمر الذي ضاقت ذرعاً منه، ثم مع الوقت حول ضرورة قيامنا بإنجاب أولاد ذكور كي لا يفنى الشعب الأرمني، والذي أيضاً كان يثير غضبنا... فتذكرنا بالإبادة الجماعية للذكور الأرمن والسريان خلال المجزرة، وبقاء النساء وحدهن ليعبرن صحراء دير الزور ويعانين الصعاب التي لم تنته مذاك.

كانت تحدثني دوماً عن صديقتها المقدسية المقربة «خالتكم أم محمد الإمام...» والتي تشاركها ثقافة اصطلاحية مشتركة. وكان هناك تبادل مشترك معها ومع صديقاتهن المختلفات: نورا وعيدا وسميرة وسعاد وغيرهن اللواتي على شاكلة عمتي مزجن بين الأناقة والمشاركة المجتمعية، إضافة إلى بعض الأصدقاء من أبو غوش، والجيران أراكسي وأنطون بحسهم الفني المرهف وطهيهم اللذيذ والصور الجميلة التي يلتقطونها للقدس.

كان لنانا أيضاً صديقة يهودية من عائلة «خازان» تزورنا ونحن أطفال. «كانت أهوفا خازان صديقتي قبل تأسيس دولة إسرائيل» تروي لي جدتي، «عاشت عائلة أهوفا في فلسطين منذ مئات السنوات وليست من القادمات الجدد». كانت أهوفا تصبغ شعرها دوماً وتزدهي بالحلي، وتضع كف خمسة (كف فاطمة) على رقبتها وكانت مفعمة دوماً بالحيوية. كانت روحها فلسطينية وتحمل الروح اليهودية الجميلة التي تحاول إسرائيل تدميرها. توفيت أهوفا من مرض السرطان قبل نحو عقد من الزمن. تتذكر جدتي «تلك الأيام» بأسى، وتتحدث عن أهمية التسامح.

عمتي «هايجانا» التي أطلق اسم الدكان على اسمها، لم تؤيد مع «نانا» في كل شيء: «كنت من أوائل السيدات في القدس اللواتي ارتدين البنطال». كان لها مقدرة جيدة على الاستماع، وكانت دوماً ملازمة للأخبار السياسية التي عصف بها منزلنا المشترك أثناء طفولتي. كانت أيضاً تتابع في الماضي بعض المجلات المصرية التي تعالج قضايا المرأة. تلازمني ذكراها بأغنية زهرة المدائن. فقد كان لها ارتباط خاص بالطقوس المقدسية. كانت تروي لي عن تلك الأيام التي كانت فيها القدس «مفتوحة»، يأتي الحجاج الأقارب خلال عيد الفصح، ويبيتون في منزل العائلة القريب من كنيسة القيامة. كان يجذبها شيء غامض إلى فكر القوميين العرب المصري، والفكر السوري القومي الاجتماعي، والملازم لها مثل سجائر «امبيريال» ومواقفها المعادية للامبريالية، وقهوتها «الأرمنية» بطقوسها الخاصة (قهوة بن محروق غامق بلا هيل ومطحون من قبل «الحاج منيب») الذي تشربه مع «سكر قليل»، وراديو مونتي كارلو، وشعرها الأنيق دوماً على طراز «شينيون»، الذي يقوم «سركيس» الماهر (الذي كانت ترقص معه أيام الشباب) بتسريحه كل أسبوع. حتى أوائل التسعينيات كانت هاتان السيدتان تتابعان الأخبار عبر قناة «إسرائيل». فالاستماع إلى الأخبار هي من إحدى شيم «الحداثة العصرية» التي آمنت بها جدتي: «على المرأة تذكر المناسبات ومتابعة الأخبار». كانت نانا تصدق ما يقال، بما أن ذلك يأتي من «التلفاز» ومبني على «وقائع عقلانية» و«ليس خطابات»، بينما كانت عمتي تطلق إيماءات تهكمية وتنظر بطريقة نقدية فاحصة. في منتصف التسعينيات انتقلتا إلى قنوات الأردن والمستقبل وLBC وأبو ظبي وبعد الانتفاضة الثانية، باتت قنوات الجزيرة والعربية والمنار والمستقبل ونور



كانتا تربطان حرفتهما بواجب وطني: صناعة امرأة «عصرية» منخرطة في المجتمع (على شاكلة أدوار بعض بطلات أفلامهما مثل ماجدة وفيروز وفاتن حمامة...)



زهرات جدتيّ ..  ومدائن عمتي

سات وسورية جزءاً وثيقاً من أجوائهما ولا تنفصل عن موبيليا منزلهما.

اقترن اكتشافي لعمتي بالانتفاضة الأولى. فقد كنت طفلة صامتة أراقبها تعود من دكان المرأة العصرية مبكراً على غير عادتها، وتروي لنا بمزاج مفعم بالحياة ما شهدته من أحداث مثيرة، من مولوتوف في الشارع الذي تعمل فيه، إلى اعتقالات، إلى طالبات خفن فاختبأن عندهن في الدكان، إلى مظاهرات،... كانت تلتزم بالإضرابات بقناعة وقراءة ما يرد من بيانات «الانتفاضة». لم يتسن لها المشاركة في السياسة أو الزواج نظراً لاضطرارها للعمل لمساعدة جدتي منذ شبابها، ولكنها كانت تعبر عن اهتماماتها السياسية بطريقتها الخاصة، الأمر الذي يضفي على حياتها وحياتنا طاقة وسحراً ما. كانت في الانتفاضة أنباء حيوية ودعوة لثورة ما، مستقبل غير محدد، مشاركة ما، دور ما، وقت أوسع، معنى ما يجذبها كامرأة مثلما كان يجذبنا كأطفال. وقد كان تأثر عمتي بالإعلام كبيراً. كانت المواسم المقدسية المختلفة جزءاً من إيقاع حياتها. تتابع منع المسلمين من الصلاة أيام الجمعة بتضامن، وتحتفل بليلة القدر، وتأكل القطايف في رمضان معنا جميعاً. كثيراً ما كنا نجلس على نافذتها المطلة على «المشهد»، فتأخذ بوصف الأفق وتنقل لي تراثها. أثناء طرقها على ماكينة خياطتها، كنت أتعرف على نظرتها المستهزئة المعارضة كلما تفوه أحدهم بعبارات لا تنسجم مع رؤاها. كنت حينما يتقرر حدوث إضراب أو تعليق عن العمل أو الدراسة غداة تحولات سياسية شتى، أقرر زيارتها. فتبدأ بتزويدي بكافة التفاصيل والحقائق من مختلف القنوات والفضائيات على مائدتها الطيبة في قعر البلدة القديمة وبين زهورها اليانعة. فتأخذ جدتي بالاشتكاء من إرهاقها من السياسة وتطلب منها وضع قناة فرنسية أو قناة نورسات اللبنانية الكاثوليكية. كان وجود صدى فرنسي يذكر نانا بثقافتها الاصطلاحية وطفولتها، التي أخذت بعد عامها الثمانين بالحنين إليها، وكان مسمى «لبنان» منطبعاً في وجدانها كانعكاس لعدة أمور «حضارية» تحبها، و«تلك الأيام» التي كانت تشترى أقمشة وحاجيات الخياطة من لبنان والالتقاء مع الجاليات الأرمنية هناك. أما عمتي، فقد كانت عيونها تبرق غدو سماعها اسم عبد الناصر وجورج حبش و«سوريا» و«الجنوب» فتتذكر المشروع الوحدوي الذي يتخطى الحدود، بأحلامه التي ترعرعت عليها. «ولكن هل تريدين فعلاً نظاماً شمولياً آخر؟ ألا تخافين من دولة قائمة على الدين؟» كان الجيل الجديد في العائلة يسأل فيعاود الصخب المعهود.

زادت في السنوات الأخيرة صحة نانا توعكاً. لم تعد قادرة على التحرك أو الذهاب إلى مختبر المرأة العصرية، ولكنها تكرر علينا حكاياها التي لا تبخل علينا بها مع ذاكرتها التي باتت ترفض تذكر ما يحدث من جديد من توالي أحداث في المشهد الفلسطيني، وتبدد الوعود العربية الذي كشفه واقع فشل الأنظمة السياسية في معظم الأقطار العربية. ما زالت ذاكرتها ومرض الأمنيزيا الذي تعاني منه مرتكزة في مرحلة ما: المدرسة الفرنسية والرؤى والأحلام والنساء بالقبعات الزاهية، وغضبها على تزويجها وهي طفلة، وفخرها على الثورة التي أحرزتها وذكريات «فلسطين»، وذلك الترقب. توفيت أختها التي تعيش في العراق غداة الاجتياح الأمريكي على العراق. أما هي، فلم تعد تتعرف على الأماكن والجدار والمشاهد والأجساد والسيدات اللواتي يتم بثهن عبر التلفاز. لا يتسنى لها الخروج من المنزل نظراً لكونها مقعدة لبضع سنوات الآن. تفكر ببيع الدكان إذ باتت كسيحة. عمتي وورويدة ما زالتا هناك. أتساءل: ماذا سيحل بالمختبر إذا غادرتاه؟!

اضطرتني ملحمة ما على الابتعاد عن القدس، قدسنا. فاتني هذا العام مشهد الغيث الأول المنهمر كل خريف، وإيقاع الحياة، والإضرابات المتناثرة، واصطلاحاتنا الخاصة، والدروب الرمزية المرتبطة بجسد المدينة من المرور الروتيني، إلى التسوق، إلى صخب القدس الشرقية، إلى التوغل غرب المدينة والمقاهي الإسرائيلية، إلى مراسم عيد انتقال السيدة العذراء، إلى حيوية رمضان، إلى أحد الشعانين، إلى العشاء الأخير، إلى رؤية اليهود يحتفلون بعيد الظلال وينتظرون المطر المنتظر في عيد «السوكوت»، إلى درب الصليب وسبت النور فالقيامة التحررية، وتلك المراقبة وذلك اليأس والاستكشاف، والحياة اليومية العادية اللا عادية لنساء مدينتنا، بشخصياتهن وقناعاتهن ورواياتهن وهوياتهن وهواياتهن وعاداتهن ونزواتهن وانتماءاتهن الطبقية المتعددة.

لست أدري ماذا سيحل بيوتيوبيا «المرأة العصرية» التي عاشتها «نانا» الأرمنية العثمانلية، أو بيوتيوبيا الفكر القومي العربي والتوجه التقدمي الفلسطيني الذي عاشته عمتي هايجانا، أو بالتعاويذ والأمثال الشعبية والخضروات وكائنات الأرض الفلسطينية التي ارتبطت بها «تاتا». لا أعلم ماذا سيحدث بمصير الأجساد والأشكال والمعالم التي كانت جدتي وعمتي وورويدة تعمل معها. يحوطني عالم آخر، من ازدراء يلقيه بعض الأوروبيين نحوي معتقدين بأني «مهاجرة مسلمة»، بصورهم النمطية الاستشراقية، إلى إقصاء ديني أخلاقوي من قبل بعض المهاجرين هنا في مواسم هجراتهم إلى الشمال. يعتقدون أن النضال من أجل فلسطين هو نضال «ديني» ضد «اليهود» و«الصليبيين» و«النصارى» وضرورة «إعادة الخلافة». خطابهم مزيج من اللهجة الذكورية واللهجة الغربية–اللا غربية القاطعة. فأجد المواساة في سورتي يوسف ومريم، وأحلم بأحد عشر كوكباً لفلسطين أخرى وأخاف من البئر.

تطاردني بعض الصور المؤلمة، مثل التعرض للتفتيش المستمر مع غيري من الأخوات الفلسطينيات في حواجز وخطوط التعذيب الجماعية، وقيام الأجهزة الأمنية الإسرائيلية بشل حركتنا وحياتنا، وذلك الشعور بالرعب، حتى عندما نكون بعيدات. صراخ الجنود والجنديات علينا، قيظ الصيف وبرد الشتاء المؤلمان أثناء الانتظار، الخوف على أوراقنا، مطاردتهم لأصواتنا، حتى في أوروبا والعالم العربي. غير أنني أشكر اللطيف على ما حصلت عليه من تعرف على أخوات، وأم وأمهات وزميلات ورفيقات وجدات أكن لهن بالحياة. يزعجنا عنف «المختصين» القادمين من دول أو توجهات «غربية» «أكثر تحضرا» تنتزع أصواتنا وتتعامل معنا بفوقية استعمارية، وكذلك التوجهات «الشرقية» بخطاباتها القطبية («الأكثر أخلاقية» أو «الأكثر محلية») التي يبدو أنه حتى «المفكرين الثوريين» قد استكانوا إليها. كل من التيارين يحاول تصنيفنا «بعقلانيته اللا عقلانية» ومكائده «الروحية». يحلمون بفلسطين مختلفة عن تلك التي رأيناها في رؤانا الجماعية المحلية، فتتحقق التعويذة الدرويشية كما أقرأها «أنت منذ الآن غيرك».

أحيا مع رفيقاتي رؤانا وطقوسنا واصطلاحاتنا ومكائدنا وحيلنا ومقاومتنا ولا مقاومتنا المقاومة. قد نكون بطرقنا المختلفة لاجئات ومنفيات ومتحولات ومتمردات. نحاول متابعة ما يمكن من عنف الأدلجة الاجتماعية والبيئية الخاطفة. تحوطنا أجساد ومعالم وأشجار ومدن تتشرذم أو تصبح كسيحة أو تتلاشى أو تتحول إلى واقع افتراضي أو يوتيوبي، ومعالم نلمسها ولا نشك أنها واقعية وأزلية، على الأقل في لحظة ما، فنتشبث بها، خوفاً من القادم المجهول. نثور على الموروث ونرتوي منه، ونعيد سرده بطرق متنوعة ومتناقضة باستمرار. قد نكون كياناً شاهداً على الحدث ومتابعاً للجدليات والتناقضات والتحولات في جو تختلط فيه الحياة مع الموت والابتعاد مع الالتقاء.



لا أستطيع التخلص من ذكريات تعريتي من قبل موظفات الأمن الإسرائيلي في أحد المطارات الأوروبية الربيع الماضي، ووضع أجهزتهن على مختلف أجزاء جسدي كما يفعلن لمختلف المسافرات الفلسطينيات. هناك وأنا أرتجف، أخذت أتذكر مصنع المرأة العصرية. فمع أنها كانت في الماضي تثير اشمئزازي أحياناً، أخذت أشعر برغبة جامحة لاقتراض قماش ملون أجوب به وأتحرك دون خوف من رقابة عسكرية أو اجتماعية. وسمعت في منفاي الأوديسي نداء اللغة العربية الخارجة من نير الدولة العثمانية تحتضنني وتدعوني إلى فردوسها، بل وتحاول الخروج من نير الدولة العربية السلطوية ومن نير كل من أخذ بنفينا تحت مسميات مختلفة. وأخذت أتحرك بهذه الأناشيد وألبس رؤى تقدمية متجددة. لم تكن بحزم مصنع أليس أو بعراقة إنصاف الحنضلية أو بأناقة مدائن عمتي أو بلدة خبز أمي الحبيبة، ولكن يبدو أنه ما زالت هناك فسحة متبقية من الترقب في هذه اللغة. ■



تطاردني بعض الصور المؤلمة، مثل التعرض للتفتيش المستمر مع غيري من الأخوات الفلسطينيات في حواجز وخطوط التعذيب الجماعية، وقيام الأجهزة الأمنية الإسرائيلية بشل حركتنا وحياتنا



NASSER

فى ذكراه الأربعين

رؤيـــة أخـــرى

تقوم المؤلفة عبر الكتاب بتناول بانورامى، لا يخلو من تحليل متعمق، وإن كان بالطبيعة وبالضرورة موجزًا، لواقع المجتمع المصرى منذ ما قبل ميلاد الرئيس الراحل وحتى بعد وفاته بسنوات طوال، وينطبق الأمر نفسه على السياسات العربية والإقليمية



■■ تمر هذه الأيام الذكرى الأربعون لغياب الزعيم المصرى والعربى الراحل جمال عبد الناصر. ودائمًا وفى كل عام، سواء عندما تحل هذه الذكرى أو ذكرى ثورة ٢٣ يوليو يتجدد النقاش الذى لا يكاد ينقطع، سواء داخل مصر أو على امتداد العالم العربى أو العالم الثالث أو حتى على مستوى العالم بأسره، حول تقييم الدور الذى لعبه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على كافة هذه الأصعدة والبصمة التى تركها، إيجابًا أو سلبًا. وتختلف الرؤى والتقديرات بقدر اختلاف الانتماءات الأيديولوجية والسياسية، وتتباين زوايا الرؤية والحكم بحسب تباين المصالح الاقتصادية والاجتماعية والجيواستراتيجية، ولكن يبقى تواصل هذا الجدل بالرغم من مرور السنين، بل والعقود، دليلاً حيًا على أهمية ومحورية وحيوية الدور الذى لعبه جمال عبد الناصر فى تشكيل الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى بلده مصر، وكذلك التأثير الذى مارسه على امتداد دوائر العلاقات الدولية، عربيًا وأفريقيًا وإسلاميًا ومتوسطيًا وعالم ثالثيًا، بل وعالميًا.

وكانت الشكوى المستمرة لسنوات طوال من جانب مؤيدى الرئيس الراحل ومحبيه وأنصاره أنه على المستوى الدولى، وخاصة فى الغرب، فإن معظم الكتابات عنه كانت محملة بتحيزات مسبقة نتيجة مواقفه السياسية التى ينظر إليها غالبًا باعتبارها عادت الغرب وسعت للإضرار بمصالحه. ولكن هذه الشكوى بالتأكيد ليست دقيقة، خاصة إذا صدرت على إطلاقها، حيث إن عددًا لا بأس به من هذه الكتابات اتسم بالموضوعية، ولو بدرجات متفاوتة، وراعى أصول المنهج العلمى فى البحث والتحليل، علمًا بأنه فى نهاية المطاف، فإننا يجب أن نسلم بأن العلوم الاجتماعية والإنسانية، والعلوم السياسية هى بالطبع أحد مكوناتها، يستحيل اتصافها بالحياد المطلق أو فصلها عن شخص الباحث أو الكاتب أو انتماءاته الفكرية أو مكونات خلفياته، وإن تعددت.

ونعرض اليوم لكتاب نزعم بأنه

Nasser (Life&Times)
Anne Alexander
London: Haus Publishing



غـــلاف الكتـــاب

يتصف بقدر كبير من الإنصاف والطابع العلمى فى تناول سيرة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ويربط هذه السيرة بمسار تطور الأحداث فى مصر والأقاليم التى تنتمى إليها، خاصة العالم العربى، والعالم بأسره، كما يتميز بالاتساق مع المنهج الموضوعى الذى وضعته المؤلفة منذ بداية الكتاب، دون أن ينفى ذلك بالطبع وجود ولاءات فكرية للكاتبة انعكست أصلاً فى اختيار منهج الدراسة، ولكنها، بحسب رأينا المتواضع، لم تؤثر بشكل واضح أو مؤثر على موضوعية التناول لسيرة الرئيس الراحل ومواقفه والسياسات التى اتبعها والبيئات المحيطة بكل ذلك وتطوراتها.

والكتاب بعنوان «ناصر»، ومؤلفته هى الكاتبة والباحثة والإعلامية البريطانية «آن ألكسندر» المتخصصة فى الشئون العربية، والتى تسهم بمقالاتها فى دورية «ميدل إيست إنترناشيونال» المعروفة لكل المتابعين لشئون منطقة الشرق الأوسط والعالم العربى، كما عملت لسنوات فى قسم الخدمات الإعلامية العالمية التابع لإذاعة الـ «بى بى سى» البريطانية الشهيرة.

وبالرغم من أن الكتاب يحدد هدفًا له يتمثل فى تناول سيرة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، كما أنه يقع فى حجم معقول وصديق للقارئ لا يكاد يصل إلى مائتى صفحة، فإنه فى واقع الأمر أكثر شمولاً فى التناول بكثير من مجرد سرد وعرض وتقييم السيرة الذاتية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بل تقوم المؤلفة عبر الكتاب بتناول بانورامى، لا يخلو من تحليل متعمق، وإن كان بالطبيعة وبالضرورة موجزًا، لواقع المجتمع المصرى منذ ما قبل ميلاد الرئيس الراحل وحتى بعد وفاته بسنوات طوال، وينطبق الأمر نفسه على السياسات العربية والإقليمية وكذلك، وإن بدرجة ربما تكون حتى أكثر إيجازًا، على منظومة العلاقات الدولية السائدة وما شهدته من تغييرات. كذلك وفى الإطار نفسه، فإن الكاتبة حافظت، من وجهة نظرنا، على القيمة العلمية والأكاديمية للكتاب من خلال تفادى الإسراف فى معالجة جزئيات وتفاصيل تتعلق بالحياة اليومية للرئيس الراحل، كما حدث مثلاً فى حالة سير ذاتية أخرى عديدة، والاكتفاء بالاتجاهات العامة ومراحل التحول المفصلية فى حياته وأفكاره وسياساته ومعاركه.

عرضت المؤلفة لنظافة اليد، وبساطة حياة «الرئيس» وأسرته فى حياتهم اليومية. وحرصه على ابعاد أسرته عن الحياة السياسية. وحساسيته البالغة تجاه مجاملة أى من أفراد عائلته، من منطق «القرابة» للسيد الرئيس. وحزمه تجاه أى بادرة للفساد بين حاشيته



وليـــد محمـود عبد الناصر

وأولى المحطات التى أظهرت مصداقية الكاتبة وموضوعية المنهج الذى اتبعته هى الحديث عن تحويل الرئيس الراحل عبد الناصر وجهته بشكل تدريجى فى البداية ثم جذرى لاحقًا، وتحديدًا بدءًا من عام ١٩٥٥، نحو الاقتراب من الاتحاد السوفيتى السابق والكتلة الاشتراكية التى كان يقودها، وبعيدًا عن الولايات المتحدة والغرب الذى كان يبدو أنه يسعى لكى يقترب منه ويتقارب معه فى العامين الأولين بعد انتصار «الحركة المباركة» للجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والتى تحولت إلى ثورة بفعل السياسات التى تبناها جمال عبد الناصر فى الداخل والخارج فى السنوات التالية. وتنفى الكاتبة أى طابع أيديولوجى عن هذه التحولات مركزة بالمقابل على الدوافع السياسية والبراجماتية المرتبطة بتباطؤ الغرب فى تلبية تطلعات القيادة المصرية، سواء فيما يتعلق بمتطلبات توفير التسليح للجيش المصرى لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على قطاع غزة عام ١٩٥٥، أو تقديم القروض والدعم الفنى المطلوبين لبناء السد العالى فى أسوان لدفع عجلة التنمية فى مصر ومساعدة الثورة على أن تفى بوعودها الاقتصادية والاجتماعية لقاعدتها الشعبية من جماهير العمال والفلاحين والطبقة الوسطى التى شكلت العمود الفقرى لاستقرار النظام الثورى لأكثر من عقد ونصف، أو دعم المسعى الناصرى للعب دور قيادى إقليمى، خاصة على صعيد الدائرة العربية، بل ومواجهة هذا المسعى والعمل بالمقابل لإحباطه عبر سياسات و تدابير مضادة واقتراح مبادرات من عينة «حلف بغداد» ثم «مبدأ أيزنهاور» والترويج لها إقليميًا. وفى كل هذه الحالات ترصد الكاتبة الدافع السياسى المرتبط برؤية القيادة الناصرية للمصلحة الوطنية المصرية وتعريفها لها، سواء سياسيًا أو تنمويًا، داخليًا أو خارجيًا على حد سواء. وبالتالى، انضمت المؤلفة للمؤكدين، وهم كثر، على عدم وجود أى دافع أيديولوجى لدى جمال عبد الناصر فى التقارب مع الكتلة السوفيتية، بل ووضعت هذا الاقتراب فى سياق عالمى أعم شمل العديد من زعماء حركات التحرر الوطنى وقادة الدول المستقلة حديثًا فى بلدان العالم الثالث فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لمدة أكثر من عقدين من الزمان.

وتوضح الكاتبة التزامها بالمنهج الذى اختارته ويظهر ذلك جليًا أيضًا من خلال تفسيرها لسعى الرئيس الراحل لإبقاء الخطوط مفتوحة مع الغرب دائمًا، ومع الولايات المتحدة على وجه الخصوص، حتى فى أحلك اللحظات مثل قبيل حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، ثم تناولها لتحرك الرئيس الراحل مجددًا فى اتجاه الولايات المتحدة فى أعقاب «ضجره» من تسويف الاتحاد السوفيتى السابق فى تزويد الجيش المصرى باحتياجاته من السلاح بشكل متزايد فى أعقاب حرب الأيام الستة، وهو ما بلغ قمته، بحسب المؤلفة، فى قبول عبد الناصر لمبادرة «روجرز» قبل وفاته بأسابيع عام ١٩٧٠، مما أكد على غياب التشابه الأيديولوجى بين عبد الناصر والاتحاد السوفيتى أو الشيوعية العالمية، وإن كان هذا التفسير يختلف، بدرجات متفاوتة، عن تفاسير أخرى نعرفها، منها ما أرجع قبول مبادرة روجرز إلى رغبة الرئيس الراحل فى كشف الغطاء عن الإدارة الأمريكية وتفريغ حججها بأن العرب هم الذين لا يريدون التوجه نحو تسوية سلمية للصراع العربى/ الإسرائيلى، ومنها ما اعتبر قبول المبادرة اختبارًا لمدى قدرة الولايات المتحدة على ممارسة ضغوط على إسرائيل للسير فى طريق التسوية، ومنها ما نظر إلى قبول المبادرة باعتباره سعيًا لهدنة من جانب الرئيس الراحل حتى يستطيع استكمال بناء القوات المسلحة المصرية وسعيًا لالتقاط الأنفاس عقب حرب الاستنزاف حتى تكون مستعدة لحرب تحرير، وأخيرًا منها ما اعتبر قبول المبادرة وسيلة ضغط مارسها الرئيس الراحل على السوفييت حتى يقوموا بموافاة القوات المسلحة المصرية باحتياجاتها من السلاح وفى التوقيتات التى تقدرها القيادة المصرية للاستعداد لحرب التحرير.

وترتبط بتلك المحطة أيضًا ارتباطًا عضويًا محطة أخرى تتصل بتفسير الكاتبة لتحول التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمصر تحت زعامة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على الصعيد الداخلى بعيدًا عن الرهان على التعددية الحزبية والاقتصاد الحر ونحو ما سمى بـ «رأسمالية الدولة» أو «الاشتراكية العربية»، بحسب الموقع الفكرى للمراقب، ومدى ارتباط هذه التحولات فى الداخل والخارج بتغييرات على مستوى القناعات الفكرية للرئيس الراحل، وهو الأمر الذى تحرص الكاتبة مرة أخرى على نفيه، وانطلاقها من خلفية اعتبارات تتصل بحسابات سياسية بحتة تمحورت حول الرغبة فى إحكام قبضة حكومة الثورة، وقبضة الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًا، على الأوضاع داخل مصر واحتواء، بل ربما القضاء على، أى طبقة لها استقلالية اقتصادية واجتماعية وتتطلع للعب دور سياسى أو لمزاحمة السلطة السياسية، وهو الأمر الذى دفع باتجاه تحولات مثل تمرير ثلاثة قوانين متتالية للإصلاح الزراعى لتحجيم البرجوازية الزراعية والتى تنفى عنها الكاتبة صفة «الإقطاع» بتعريفه المتعارف عليه فى الغرب دون أن تعفيها من مسئوليتها عن ارتكاب ممارسات سلبية تقترب كثيرًا من تلك التى مارسها الإقطاع فى الغرب تاريخيًا ومثل التأميمات الصناعية والتجارية بأفواجها المتتالية فى سياق ما عرف بـ «القوانين الاشتراكية» بدءًا من يوليو ١٩٦١ ثم ١٩٦٤ وما تلاهما، وهى التى نالت من وضعية البرجوازية الصناعية والتجارية المصرية إلى حد كبير.



ولكن موضوعية الكاتبة تنبع من عدم قصرها الغرض من هذه الإجراءات على إحكام القبضة السياسية فقط دون غيرها، وإلا كانت زعامة جمال عبد الناصر شبيهة أو حتى مماثلة لزعامة قادة الانقلابات العسكرية فى بلدان أمريكا اللاتينية فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة طوال عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. فالكاتبة تقر بالبواعث الوطنية، ولكن مرة أخرى ليست الأيديولوجية، لتلك الإجراءات. ففشل البرجوازية الوطنية فى إنجاز المهام الاقتصادية المتوقعة منها من حكومة الثورة بالرغم مما قدمته الأخيرة من فرص تمثلت فى الحماية وتمصير الممتلكات الأجنبية، وبالتالى إزاحة المنافس الأجنبى المحلى من طريق الرأسمالية المصرية، وكذا استعجال جموع الطبقات الدنيا والوسطى لتحقيق نتائج سريعة على صعيد التنمية وتوفير فرص العمل تلبية لوعود الثورة وقيادتها لجماهيرها، وقرب نفاد صبرها. فكل ما سبق مثل عوامل رأت الكاتبة أنها شكلت اعتبارات موضوعية أدت بالرئيس المصرى الراحل عبد الناصر إلى تغيير البوصلة. وكما نرى فالمؤلفة ربطت هذه التحولات بمسألتين شديدتى الأهمية والحساسية، وهما المسألة الاجتماعية والمسألة الديمقراطية، والأخيرة سنتناولها بقدر أكبر من التفصيل فيما بعد فى هذا المقال.

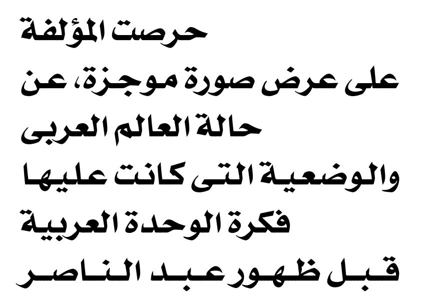
وفى الحالتين، أى فى الانتقال نحو الاقتراب من المعسكر الشرقى على حساب المعسكر الغربى وفى التحول داخليًا إلى سياسات «رأسمالية الدولة» أو «الاشتراكية العربية» بعيدًا عن ليبرالية ورأسمالية منقوصتين، لم يكن لدى جمال عبد الناصر أى دوافع تتصل بنزوعه الأيديولوجى نحو الاشتراكية أو اليسار، بقدر ما أملى الأمر عليه اعتبارات تتصل برؤيته للمصلحة الوطنية لبلاده وكذا رغبته فى عدم وجود قوى داخلية مناهضة لسياساته يتوفر لديها مصدر مستقل للدعم، على الأقل داخليًا، أو قوى خارجية ترسم له حدود وقيود دوره وتحركه فى الاتجاه الذى يخدم مصالح تلك القوى بالأساس إقليميًا ودوليًا.

وأكدت الكاتبة غياب الباعث الأيديولوجى اليسارى لدى جمال عبد الناصر فى سياساته الداخلية والخارجية على حد سواء من خلال إبراز خلافه الكبير مع الاتحاد السوفيتى والشيوعيين العرب، أو على الاقل قطاع كبير منهم، على هامش الوحدة المصرية السورية (١٩٥٨ ـ ١٩٦١)، وهى موضوع سنتعرض له تفصيلاً ضمن المحطة التالية لتناولنا لكتاب «ناصر» لمؤلفته «آن ألكسندر».

والمحطة الثالثة التى سنتوقف عندها فى الكتاب محل المعالجة هنا عن الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، تخص البعد القومى العربى ومسألة الوحدة العربية: موقعهما فى فكر عبد الناصر، دوره فى التقدم نحو تحقيق الوحدة العربية، والإرث الذى تركه فى هذين المضمارين. ويمكن مرة أخرى أن نصف منهج الكاتبة بأنه تحلى بدرجة متقدمة من الموضوعية عند تناول هذا الملف. فقبل تناولها لظهور جمال عبد الناصر على مسرح الأحداث كلاعب عربى رئيسى، حرصت المؤلفة على عرض صورة

NASSER





موجزة، ولكنها متكاملة بدرجة كبيرة، عن حالة العالم العربى والوضعية التى كانت عليها فكرة الوحدة العربية قبل ظهور عبد الناصر على الساحة العربية. كما أنها مزجت بين الاعتبارات الذاتية وتلك الموضوعية فى تناول دور عبد الناصر فى الدفع نحو الأمام بفكرة القومية العربية وبمشروع الوحدة العربية. ومن الطبيعى أن يكون تركيز الكتاب على تجربة الوحدة المصرية السورية فى فبراير ١٩٥٨ على اعتبار أنها أول تحقيق فعلى لبناء وحدة عربية اندماجية منذ انهيار الخلافة العثمانية فى العقد الثالث من القرن العشرين، بل هى التجربة الوحيدة حتى اليوم إذا استثنينا الوحدة اليمنية لعام ١٩٩٠ والتى لها خصوصيتها باعتبارها تمت بين شطرى شعب واحد ووطن واحد تاريخياً.

وقد ذكرت المؤلفة العديد من العوامل المرتبطة بتحقيق الوحدة المصرية السورية من جهة وانهيارها من جهة أخرى بما اتسم بالتوازن بين تناول العوامل المرتبطة بمصر وبحثها، بعد إنجاز مهمة استقلالها الوطنى، عن ضمان أمنها القومى والانطلاق نحو دور قيادى فى منطقتها وطموحات الرئيس الراحل عبد الناصر فى الزعامة القومية العربية وتحقيق هدف الوحدة، وبين تحليل العوامل الداخلية فى سوريا من دور للجيش والسياسيين التقليديين وحزب البعث العربى الاشتراكى وتقلباته وتصاعد قوة الحزب الشيوعى السورى وتخوف القوى الثلاث الأولى من استيلاء الأخير على السلطة، وقراءة واعية ومتأنية لمجمل الظروف الإقليمية عربياً وشرق أوسطياً التى كانت قائمة قبل الوحدة وخلالها بما فى ذلك بيئة الصراعات وأنماط التحالفات العربية العربية ودور الأطراف غير العربية، خاصة إسرائيل، ولكن أيضاً تركيا وإيران، وأخيراً تفاعلات القوى الكبرى حينذاك مع تلك الوحدة وتطوراتها والتحفظات التى طورها كل منها، خاصة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى السابق، تجاهها، لكل لأسباب مختلفة تماماً عن الآخر.

وبالرغم من أننا نتفق فى المجمل إلى حد كبير مع الأسباب التى أوردتها المؤلفة لانفصال سوريا فى سبتمبر ١٩٦١ وكذلك العناصر التى أدت لنجاح هذا الانفصال، إلا أن العامل الوحيد الذى نرى أن الكاتبة ركزت عليه بشكل قد يكون مبالغاً فيه ويفوق حجمه الحقيقى هو ما أسمته بـ «سيطرة المصريين على سوريا» تحت مظلة الوحدة أو «استعمار» مصرى لسوريا، وهو ما ركزت فيه على البعد السياسى لهذه «الهيمنة» المصرية، بحسب رؤيتها(!)، حيث إنها أقرت فى مواضع عديدة من الكتاب بأنه على الصعيد الاقتصادى حققت الوحدة منافع للاقتصاد السورى بنفس القدر الذى استفاد به الاقتصاد المصرى من الوحدة. وقد أحسنت الكاتبة بإبراز تأثير قوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ نحو الإسراع بدفع القوى المناهضة للوحدة والرئيس الراحل عبد الناصر داخل سوريا للتحرك للإطاحة بالجمهورية العربية المتحدة بعد ثلاث سنوات وعدة أشهر فقط من الوحدة، وفى ظل دعم قوى إقليمية ودولية تقاطعت مصالحها معاً ومع القوى الداخلية فى سوريا التى أشرنا إليها آنفاً فى لحظة تاريخية معينة لإسقاط تجربة الوحدة والسعى لتحجيم مصر ودورها الإقليمى والدولى عبر إعادتها إلى داخل حدودها القطرية، وأخيراً وليس آخراً، توجيه ضربة لجمال عبد الناصر شخصياً وزعامته الإقليمية، بل وربما داخل مصر أيضاً.

كما تتبعت المؤلفة بقية مسلسل محاولات إنجاز حلم الوحدة العربية فيما بقى من حياة عبد الناصر، متوقفة أمام محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق عام ١٩٦٣ وبدايات التقارب المصرى الليبى السودانى فى سياق ميثاق طرابلس لعام ١٩٦٩، إلا أنها ركزت أكثر على مباحثات الوحدة الثلاثية لكى تعزز وجهة نظرها التى دفعت بها عبر الكتاب بشأن رفض الرئيس الراحل عبد الناصر لأى مزاحمة من أى تيار سياسى آخر له إطار تنظيمى على السلطة، حتى لو تشابه معه فى الأفكار أو الأهداف أو كليهما، وهو ما تمثل فى حالة مباحثات الوحدة الثلاثية فى حزب البعث العربى الاشتراكى فى كل من سوريا والعراق، حيث سعى الرئيس الراحل إلى حمل الدولتين على حل الأحزاب بهما كشرط مسبق لإتمام الوحدة، بينما اعتبر مسئولو البلدين أن هذا الإلغاء يعيد إنتاج سيناريو الوحدة المصرية السورية لعام ١٩٥٨، معتبرة أن إلغاء الأحزاب فى الحالة الأولى كان سبباً من أسباب فشل الوحدة. ولا تنكر المؤلفة أن المسئولين البعثيين فى سوريا والعراق كانوا فعلياً يدافعون عن وجود الحزب وقوته، وبالتالى وجودهم ذاته وسلطاتهم، ويرفضون تكرار تجربة ١٩٥٨ حيث حل الحزب نفسه فى سوريا فانتهى به الأمر خارج السلطة كلية. إلا أن «آن ألكسندر» تركز أكثر على استخلاص نتيجة أساسية مفادها أن جمال عبد الناصر لم يتغير، بالرغم من الانفصال فى سوريا عام ١٩٦١، واستمر متشبثاً بالانفراد بالسلطة بدون شريك أو منازع كضمان لتنفيذ سياساته، وهو أمر أفضت الكاتبة بالتفصيل فيه فيما يتعلق بالنظام السياسى الداخلى فى مصر، حسبما سنعرض فى المحطة التالية من تناول الكتاب محل الدراسة والبحث هنا.

ففى المحطة الرابعة التى سنتوقف أمامها هنا بشأن كتاب «ناصر» للمؤلفة «آن ألكسندر»، سنتعرض لمعالجة الكاتبة لمواقف الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر إزاء قضية السلطة السياسية وطبيعة وشكل النظام السياسى المصرى والعلاقة بينه وبين القوى والأطراف السياسية الأخرى الفاعلة داخلياً على الساحة المصرية، وما يرتبط بذلك من موقف الرئيس الراحل إزاء مسألة الديمقراطية السياسية. ولم تبدأ المؤلفة فى تناول موقف جمال عبد الناصر من موضوع الصراع على السلطة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بل بدأت معه مبكراً منذ بدء نشاطه السياسى فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين، وخاصة منذ تأسيس تنظيم الضباط الأحرار فى نهاية أربعينيات القرن نفسه، من خلال معالجة علاقته بزملائه فى التنظيم وشرح إستراتيجيته قبل وخلال عملية اتخاذ القرار داخل التنظيم.



ولكن جوهر معالجة المؤلفة لهذا الجانب فى شخصية وحياة الرئيس الراحل يكتسب أبعاداً أوسع بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، خاصة فى الصراع المتصاعد داخل مجلس قيادة الثورة بين عبد الناصر ومنافسيه، سواء الرئيس محمد نجيب أو ضباط سلاح الفرسان، حيث تركز المؤلفة على تحليل هذا الصراع فى إطار كشف ما تؤكده عن عدم اقتناع الرئيس عبد الناصر بالديمقراطية بل استخدامها تكتيكياً لإحراج خصومه، ثم تتناول تحول الرئيس الراحل تدريجياً فى علاقته بزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعد إبعاد الرئيس نجيب وأنصاره، من «الأول بين متساويين» إلى «الريس» فوق مرءوسين، وتتتبع المؤلفة تفاصيل متعلقة بمراحل لاحقة فى هذه العلاقة فى عقد الستينيات من القرن العشرين، خاصة عقب حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، مع كل من السيد/ زكريا محيى الدين والسيد/ عبد اللطيف البغدادى. ولكن معالجة المؤلفة لمواقف جمال عبد الناصر من السلطة لم تقف عند حدود رفاق السلاح والثورة، بل تخطته بعيداً لتناول خصومته السياسية مع التيارات السياسية والتنظيمية الأخرى فى مصر خلال فترة حكمه، سواء جماعة الإخوان المسلمين أو الشيوعيين على تعدد تنظيماتهم أو حزب الوفد وغيره من أحزاب ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، أو حتى النقابات المستقلة من عمالية وغير ذلك.

ويرتبط تحليل المؤلفة دائماً لتلك الصراعات على السلطة فى مصر الناصرية بالمسألة الديمقراطية وانعكاساتها على الواقع المصرى وعلى المنطقة العربية. ولا تعفى المؤلفة منافسى الرئيس الراحل عبد الناصر من السعى لنفس الهدف: أى السلطة، وتشكك فى مصداقية التزامهم بالديمقراطية أو حرصهم عليها أو السعى لتحقيقها بحسب دفوعهم، حينذاك والآن، حيث تلجأ إلى أمثلة محددة وعديدة فى هذا الصدد، بالإضافة إلى إبرازها للتناقضات، بل والعداءات، داخل كل من هذه القوى وفيما بينها، وفشلها فى بناء تحالفات صلبة، ولو مرحلية أو تكتيكية، بغرض مواجهة شعبية جمال عبد الناصر المتزايدة وقيادته الكاريزمية من جهة وسيطرته المحكمة على مؤسسات الدولة من جهة أخرى، ومن ثم الاتفاق على برنامج ديمقراطى بديل. إلا أنه فى واقع الأمر، فإن كل فصيل سياسى سعى لمصالحه السياسية الضيقة، وتراوحت مواقف كل فصيل بين رفع لواء الدعوة للديمقراطية والاقتراب من نظام الرئيس عبد الناصر بحسب تلك المصالح وبعيداً عن أى اقتناع حقيقى بالديمقراطية، وخصت الكاتبة هنا بالذكر كلاً من الإخوان المسلمين والشيوعيين.

وتأخذنا المحطة السابقة إلى محطة خامسة، ذات صلة بما سبق ولكنها أكثر تخصيصاً، نتوقف عندها فى عرضنا وتحليلنا لكتاب «ناصر» لمؤلفته «آن ألكسندر»، وهى العلاقة بين موقف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر تجاه الدين من جهة ومدى ارتباط ذلك بتطور نمط علاقته مع جماعة الإخوان المسلمين من جهة أخرى، إذا ما كانت أصلاً ثمة علاقة بين العاملين. فالكاتبة تبرز عبر الكتاب، ومن خلال أمثلة محددة

كانت الكاتبة حريصة على إظهار أوجه مشرقة وإيجابية فى هذا السلوك الشخصى للرئيس الراحل جمال عبد الناصر



وكثيرة، ما تعتبره «تدين» الرئيس الراحل، سواء اتصلت هذه الأمثلة بأخلاقيات معينة أو سلوكيات أو عبادات، خاصة أداءه فريضة الحج، وكذلك ما ارتبط بقناعة الرئيس الراحل بـ «الدائرة الإسلامية» ضمن سلسلة دوائر انتماء مصر ودوائر التحرك فى سياستها الخارجية، حسبما ذكر فى كتابه «فلسفة الثورة»، مع التركيز على إقدام جمال عبد الناصر على «إصلاح» الأزهر الشريف والأوقاف فى مطلع ستينيات القرن العشرين، وتوظيف الأزهر ومؤسسات نشأت فى إطاره، مثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ومدينة البعوث الإسلامية، ليس فقط لخدمة الدائرة الإسلامية فى السياسة الخارجية المصرية وتوسيع دائرة التأثير والنفوذ المصرى فى العالم الإسلامى، بل أيضاً لخدمة نشر الدعوة الإسلامية بشكل عقلانى وبصورة معتدلة ومستنيرة ومتقدمة، خاصة فى دول أفريقيا وآسيا غير العربية، بما كان يتسق مع التوجهات العامة لمصر فى الحقبة الناصرية.

وبالطبع نستطيع أن نستنتج من الفقرة السابقة أن الكاتبة تنفى قطعياً أى علاقة بين موقف الرئيس عبد الناصر تجاه الدين، والإسلام تحديداً، الذى تعتبره إيجابياً وفاعلاً كما تناولنا فى الفقرة السابقة، وبين علاقاته بجماعة الإخوان المسلمين فى مراحلها المختلفة وبتحولاتها المتتالية مداً وجزراً، سواء قبل أو بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢. فالكاتبة حزمت أمرها منذ مرحلة مبكرة من الكتاب بتصنيف الجماعة كحركة سياسية وليست دينية أو دعوية - منذ نشأتها فى الدوافع والمبادئ والمحددات والتوجهات والأهداف، سواء فى عهد الملكية أو الجمهورية فى مصر، كما أنها أيضاً وبالدرجة نفسها صنفت الصراع بين جمال عبد الناصر وجماعة الإخوان المسلمين بأنه صراع سياسى بحت وليس أيديولوجياً أو دينياً بأى حال من الأحوال، بل عرفته بشكل أكثر تحديداً على أنه صراع من أجل الإمساك بزمام السلطة وفرض قبضة أى من الطرفين عليها. ومع ذلك لم تنكر الكاتبة فى أى مرحلة فى كتابها أن كل طرف كان يسعى للسلطة رغبة فى تحقيق مشروعه العقائدى أو الفكرى، فى حالة الإخوان، أو السياسى، فى حالة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وليس لمجرد الهيمنة على النظام السياسى أو لاعتبار السلطة هدفاً فى حد ذاتها فقط.

وتنقلنا المحطة السابقة إلى محطة سادسة وأخيرة نتوقف عندها فى تناولنا لهذا الكتاب الهام والممتع عن سيرة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، بالرغم من أن الكتاب يحتوى على الكثير مما يغرى بالتوقف أمام المزيد والمزيد من محطات عرض ما به من رؤى ومراجعته وتحليله وتقييمه، وهى محطة تتعلق بأخلاقيات الرئيس الراحل وتعامله مع أسرته وأصدقائه ومعارفه ومجمل سلوكياته ومعاملاته مع الآخرين. وهنا كانت الكاتبة حريصة على إظهار أوجه مشرقة وإيجابية فى هذا السلوك الشخصى للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وبما لا ينفصل عن تقييمها الإيجابى لتدين الرئيس الراحل كما عرضنا فى الفقرة السابقة. كما أن الكاتبة من خلال استعراضها لهذه الخصائص الإيجابية فى السلوك الشخصى لجمال عبد الناصر تقودنا إلى المفارقة بين ذلك من جهة وبين لجوء الرئيس الراحل، بحسب الكاتبة، إلى أساليب تآمرية ومكيافيلية، واتباع استراتيجيات اتصفت أحياناً بالحدة والعنف، فى التعامل السياسى، سواء داخل مصر أو على صعيد السياسات العربية والإقليمية، مع خصوم فعليين أو محتملين، أو منافسين، داخل دائرة السلطة أو خارجها.

وفى هذا السياق، حرصت «آن ألكسندر» فى كتابها «ناصر» على إبراز المكانة الكبيرة التى منحها الرئيس الراحل لدور الأسرة والقيم التى تجسدها، ومدى التصاقه بأسرته، ممثلة فى زوجته وأبنائه، ورعايته لها ولأعضائها واهتمامه بشئونها بالرغم من انشغالاته التى لم يكن لها حدود أو نهاية. ولكن فى ذات الوقت تبرز الكاتبة رفض الرئيس الراحل وحساسيته البالغة تجاه محاولة أى من أعضاء أسرته الصغيرة أو عائلته الكبيرة فى استغلال النفوذ من منطلق القرابة من الرئيس للتربح وكسب المغانم والأموال أو التحصل على المناصب أو ممارسة النفوذ، واتخاذ الرئيس الراحل لإجراءات حازمة بحق أى من اقاربه، مهما كانت درجة قرابته له، لوأد أى فساد من هذا النوع فى مهده.

وفى الإطار نفسه، وارتباطاً بما سبق، عرضت المؤلفة لبساطة حياة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وأسرته فى حياتهم اليومية، وتقشفه الكامل وزهده فى المتع الدنيوية المعتاد كثيراً من القادة والزعماء الإقبال والتهافت عليها والرغبة فى اقتنائها، وينطبق ذلك على الأشياء ذات القيمة المحدودة مثل المأكولات والمشروبات، بنفس القدر الذى ينطبق به على أشياء أكبر مثل السيارات والتحف والمقتنيات الثمينة، أو على مستوى أعلى مثل الحسابات فى البنوك الأجنبية والأملاك من أراض وعقارات خارج حدود الوطن. وتضرب الكاتبة هنا أمثلة دقيقة على هذا، وهى فى هذا لم تجد صعوبة تذكر حيث أن هذه المسألة لا تكاد أن تكون موضع خلاف بين مختلف الكتاب والمراقبين والمحللين الذين تناولوا السيرة الذاتية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بل اتفقت غالبيتهم العظمى فى معالجاتهم على نزاهة الرئيس الراحل وابتعاده عن أى شبهة فساد، فيما يتعلق بمسائل المال أو النساء أو ما شابه ذلك.



وفى ختام هذا المقال/ العرض لكتاب «ناصر» للكاتبة «آن ألكسندر»، فإنه يتعين علينا الإقرار بأن تصفح صفحات الكتاب يكشف لنا عن أن المؤلفة لم تبد أى ضغائن شخصية أو أيديولوجية أو سياسية أو ثقافية مبيتة ولم تظهر فى كتابها أنها تحمل أى تحيزات مسبقة ضد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ومشروعه السياسى والاجتماعى مصرياً وعربياً ودولياً، وهو ما انعكس فى عدم إحساسنا خلال قراءة الكتاب بأى قيم أو معايير أو مرجعيات مفروضة علينا من جانب المؤلفة عبر كتابها من منطلق «التمحور الغربى حول الذات»، ولكنها بالمقابل اتبعت مناهج عرض وتحليل متعددة التزمت بها طوال الكتاب، أحياناً متداخلة، وأحياناً أخرى مكملة لبعضها البعض، وأحياناً ثالثة كاشفة لزوايا مختلفة لنفس الحدث أو الحالة أو الظاهرة. وقد نجحت الكاتبة فى الجمع بين أكثر من منهج واحد فى الوقت نفسه بما حقق درجة متقدمة من تكامل الرؤى وتعدد الزوايا فى معالجة سيرة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر بما تتضمنه من أفكار ومواقف وسياسات وسلوكيات ومعتقدات وأفكار وتوجهات. وهدف هذا التعامل مع موضوع الكتاب إلى تقديم مختلف جوانب الصورة للقارئ، وبشكل يكفل درجة متقدمة من الموضوعية والإنصاف ذى العمق العلمى والأكاديمى، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الكتاب صادر باللغة الإنجليزية، وبالتالى موجه فى الأساس إلى القارئ غير العربى، وبشكل أكثر تحديداً ربما نستطيع القول بأنه موجه للقارئ الغربى، أوروبياً كان أم أمريكياً.

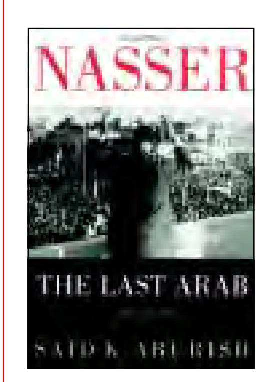
ونلحظ بوضوح على مدار الكتاب أن المؤلفة ربما اعتمدت منهجاً قائماً على وحدة «الطبقة»، أى منهج اقتصادى/ اجتماعى، من منطلق قدر لا بأس به من التعريف اليسارى لهذا المفهوم، فى محاولتها تفسير أحداث دارت خلال حياة الرئيس الراحل، خاصة داخل مصر، بل وفى مناطق أخرى من العالم العربى، وأحياناً بشأن أحداث عالمية هامة، وهو الأمر الذى عكس من جانب الكاتبة وعياً بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية وأهميتها، التى قد تفوق أهمية المسائل السياسية، فى المجتمعات النامية فى بلدان العالم الثالث مثل الحالة المصرية. كما أن «آن ألكسندر» اعتمدت منهجاً موازياً معتمداً على توازنات القوى من منطلق «السياسة الواقعية»، ولكن المؤلفة لم تتجاهل العقائد والأيديولوجيات والأفكار والدور الذى تلعبه والتأثيرات التى تحدثها، وأدمجتها بشكل متجانس مع بقية المناهج التى وظفتها. كما أن المسألة الديمقراطية، وإن شغلت حيزاً من اهتمامات المؤلفة فيما بدا أنه شكل مرجعية لقياس أفكار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وما اتبعه من سياسات وإجراءات، ولاستخلاص أحكام بشأنها، ومعيار لتقدير مدى ما حققه الرئيس الراحل إيجاباً أم سلباً، فإن قراءة الكتاب بشكل متكامل ومتوازن توضح أن المؤلفة لم تسمح بأن تستغرقها أو تستوعبها المقولات التقليدية للديمقراطية الليبرالية الغربية وإنما أدمجت الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والأطر الثقافية وسياق التطور التاريخى وخصوصياته للمجتمع المصرى بانتماءاته العربية والإسلامية فى الديمقراطية السياسية ومعاييرها ومتطلباتها. كذلك استخدمت الكاتبة منهجاً مرناً فى التعامل مع مسألة القومية العربية وفكرة الوحدة العربية بما لم ينغلق على ذاته فى إطار التعريفات التقليدية الغربية للقومية التى تتجاهل فى أغلب الأحوال دور الدين فى تشكيل القوميات والثقافات، بل استوعبت معطيات وخصوصيات القومية العربية ومشروعها الوحدوى بدرجة كبيرة، وإن لم تتعرض لما يقال عن دور القوى الغربية تاريخياً فى الدفع بالطرح القومى العربى. ■

"بالدور الذي لعبه في انهاء الامبراطوريات الاستعمارية الحديثة، وبريادته لحركات التحرر في آسيا وأفريقيا، وبزعامته للعالم العربي، ثم بطموحه الذي أودى به في النهاية، كان عبد الناصر من أكثر الذين أثروا على السياسة الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن ثم كانت حياته وسياساته ومعاركه موضوعا لكثير من الدراسات الأكاديمية الغربية والكتب التي نقدم هنا مثالا لها."

Britain, Nasser and the Balance of power in the Middle East,1952-1967: From the Egyptian Revolution to the Six-Day War (Cass Series-British Foreign and Colonial Policy)
Robert McNamara
Routledge, 2003, 312 pp $106.93

هذه دراسة تعد وثائقية أرشيفية لتاريخ السياسة البريطانية تجاه مصر الناصرية. تستعرض الدراسة تاريخ السياسة البريطانية في عهد حكومات تشرشل Churchill، إيدن Eden، ماك ميلان Macmillan، ويلسون Wilson. التركيز الأساسي لهذه الدراسة يدور حول أسباب الحرب الباردة الإنجليزية- المصرية Anglo-Egyptian Cold War منذ عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٧. إن الأزمات المتكررة والعداء المتبادل الذى كان يميز علاقة الحكومة البريطانية بنظام حكومة القومية العربية للرئيس المصرى السابق جمال عبد الناصر- كان يعتمد على بعض أوجه الشبه الملحوظة والمشتركة بين الحكومتين. هذا ما يذكره ماك نامارا McNamara مؤلف هذا الكتاب ويضيف أن كلا من عبد الناصر والحكومات البريطانية المتعاقبة كانت لهما طموحات توسعية إقليمية (لا تعكس بالضرورة القوة الحقيقية) التى جعلت من الصراع أمرا لا مفر منه. وكانت الطموحات الإقليمية مستندة إلى جوانب جيوسياسية متشابهة ففى مفهوم تشرشل كانت بريطانيا Britain تقف فى مركز ثلاث دوائر تتألف من امبراطورية دول الكومونولث British Commonwealth Empire، الدول الحليفة الناطقة بالانجليزية English- speaking Alliance، وأوروبا تماما كما أعلن عبد الناصر عن وقوف مصر فى مركز العالم العربى والعالم الأفريقى والعالم الإسلامى كثلاث دوائر مناظرة. روبرت ماك نامارا هو باحث وزميل للجامعة الوطنية فى أيرلندا National University of Ireland.

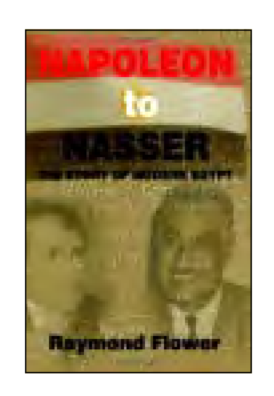
■



Nasser: The Last Arab
Said K.Aburish
Gerald Duckworth and Co Ltd 2004,
432pp $50.34

عندما يتعلق الأمر بشخصية غير عادية تكون ردود الافعال غير عادية، أثبتت الإحصاءات أن شخصية جمال عبد الناصر من أكثر الشخصيات التى تم تناول سيرتها الذاتية بالبحث والتحليل سعيا وراء إجابات تشبع حالة الاندهاش. سيد أبوريش الصحفى المقيم بلندن هو احد من تناولوا السيرة الذاتية لجمال عبدالناصر الذى كانت فترة حياته بين (١٩١٨- ١٩٧٠). يستعرض أبو ريش القصة بدءا من النداء الذى وجهه العقيد المصرى للشعب المصرى من أجل خلع ملك غير مرغوب فيه. قام ناصر بطرد بريطانيا من قناة السويس ومول بناء سد أسوان ولكن أبو ريش يقول أن عبد الناصر لم يستطع أن ينتشل مصر من التخلف والفساد والتطرف الإسلامى. يشتمل هذا العرض للسيرة الذاتية على الجوانب السياسية بشكل يغطى على الجوانب الحياتية ومع ذلك فإنه ينوه أحيانا عن عبد الناصر الزوج الصالح والأب المثالى والإنسان النزيه الرافض للفساد والذى عانى مبكرا من مشاكل فى القلب ومرض السكرى الذى عانى منه حتى وفاته عن ٥٢ عاما. يقول أبو ريش عن ناصر أنه القائد الأعظم فى المنطقة العربية منذ صلاح الدين. يمثل الكتاب محاولة لشرح متناقضات جمال عبد الناصر فيما يتعلق بالعلاقات مع أمريكا America ووكالة الاستخبارات المركزية CIA وروسيا Russia وإسرائيل Israel والجيران من العرب.

■



Napoleon to Nasser: The Story of Modern Egypt
Raymond Flower
Author House 2002,260pp $14.50

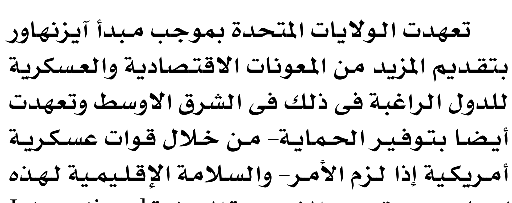
إن قصة مصر الحديثة تعد أعمق بكثير من مجرد مجموعة من الشخصيات الحاكمة ذات الألوان المختلفة. والطريقة العقلانية لاكتشاف الشخصية المصرية واختراقها لما تحت الجلد لا تتم إلا بمعرفة الضغوط التى تعرض لها المصريون. إن التاريخ مثقل بأنواع المظالم التى تعرض لها المصريون من نزع سلطة الحكم فى بلادهم من بين أيديهم وتجريدهم من ممتلكاتهم وأراضيهم على يد قوات محتلة أجنبية. لقد أوصلت الاستهانة بالمصريين الأمور إلى نقطة الانفجار التى لا تراجع فيها. منذ اللحظة التى جلب فيها نابليون أوروبا إلى مصر فى عام ١٧٩٨ فقد أثار توجهات العديد من المناطق فى العالم وساهم فى خلق وتجديد الأطماع حول هذه الأرض العريقة، كان حلم نابليون فى المجد قصير المدى ولكنه فتح الطريق ومهده لمحمد على الذى كانت مصر تمثل لديه نقطة جذب لتحقيق خريطة التوسعات التى رسمها للدولة العثمانية. كان ابنه سعيد أقل دهاء منه عندما خدعه ديليسبس بتوقيعه على امتياز قناة السويس. ثم كان الخطأ الفادح لحفيده اسماعيل والذى جلب الاحتلال البريطانى الذى كان مصدر ازدهار وأمان لملوك مثل فؤاد وفاروق وفى الوقت نفسه كان باعثا لشعور متزايد بالإحباط الشامل الذى ساد جموع الشعب المصرى. وأخيرا انطلق جمال عبد الناصر واضعا النهاية للنظام القديم وطاردا الأوروبيين من جديد لكى يتبوأ دوره ويبدأ فى الشروع فى مسيرته كزعيم وقائد للعالم العربى. من خلال هذا الكتاب الشيق قام ريموند فلاور بعرض بانوراما للأحداث منذ وصول نابليون وحتى وفاة عبد الناصر ليس فقط كمجرد وجهة نظر ورؤية لمؤرخ ولكنها أيضا رؤية رجل الشارع فى مصر، فقد عاش ريموند فترة طويلة فى مصر ولذلك كان مؤهلا تماما لتغطية أحداث تلك الفترة. كان عالما بالكثير من الشخصيات البارزة فى أيام الملك فاروق فضلا عن معرفته الخاصة بالعديد من الشخصيات الثورية فى مصر وبالتالى فلا تخفى قدرته على تقديم عرض متوازن وشامل لهذه الفترة من التاريخ الحديث.

■

Nasser: Hero of the Arab Nation (Makers of the Muslim World)
Joel Gordon
Oneworld Publications, 2006, 160 pp $31.05

«يعد جمال عبد الناصر بما يمتلك من وجه تكسوه الملامح المصرية الأصيلة أول مصرى يحكم مصر منذ كليوباترا» هذه هى عبارة جويل جوردون الذى يضيف قائلا أن ناصر بعد أن قام بعزل الملك فاروق الفاسد وإلغائه للنظام الملكى وتفاوضه مع بريطانيا على انسحاب قواتها، أصبح حقا حبيبا لملايين المصريين حتى بعد وقوع كارثة حرب الأيام الستة لعام ١٩٦٧ وإحساسه بالإذلال الذى على أثره أعلن تنحيه عن منصبه وماتبع ذلك من رد فعل حميم من جانب جماهير شعبه التى انطلقت إلى الشوارع مطالبة بعودته. يدرس جويل جوردون نظام ناصر أشهر الأنظمة الأوتوقراطية ويعترف بمحاولته التزام الحياد فى هذه الدراسة بالحرص على عرض تحفظاته على النظام كحرصه على عرض نقاط القوة فيه. جويل جوردون هو أستاذ مساعد فى التاريخ الحديث والثقافة الشعبية فى جامعة ولاية أركنساس University of Arkansas وهو مؤلف كتاب حركة ناصر المباركة ضباط مصر الأحرار وثورة يوليو.

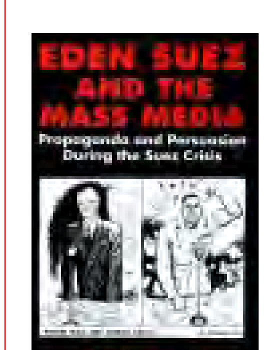
■



Colonising Egypt
Timothy Mitchell
University of California Press 1991,
230 pp $24.70

يمثل هذا الكتاب إضافة هامة وأصيلة لدراسات الشرق الأوسط ويركز على التأثير الفكرى والسياسى لأوربا على مصر فى القرن التاسع عشر من خلال الحركات الاستعمارية. ويمتد إلى دراسة حالة الرفض القاطع للمصريين لتقبل الاستعمار بأى شكل من أشكاله وتتسبب حالة الرفض هذه فى خلق أجيال من المتحمسين للوطن رافعى شعار الحرية والاستقلال، يختص الكتاب بدراسة شخصية عبد الناصر كأحد الشخصيات التى ظهرت فى القرن العشرين ممثلة علامة بارزة ورمزا يصعب تكراره.

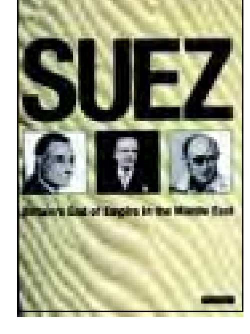
■



Eden, Suez and the Mass Media Propaganda and Persuasion During the Suez Crisis
Tony Shaw
I.B.Tauris 2009, 288 pp $28.24

يعد استخدام وسائل الإعلام فى صناعة وتوجيه الرأى العام من أقدم الأدوات المستخدمة من قبل الأنظمة السياسية. يتناول هذا الكتاب الطريقة التى استطاعت من خلالها بريطانيا استخدام وسائل الإعلام فى وقت الأزمة كوسيلة للدعاية. من خلال دراسة معركة إيدن من أجل الاستحواذ على قلوب وعقول الشعبين الانجليزى والأمريكى أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦. يقضى تونى شو على الأسطورة القائلة بأن هيئة الإذاعة البريطانية BBC وفليت ستريت Fleet Street كانتا مجرد مراقبين سلبيين للأحداث وأن المهمة الموكلة إليهم كانت مجرد عكس الرأى العام بصدق. يؤكد تونى شو بوثائق حكومية رسمية وبمصادر إعلامية مؤكدة عزم حكومة إيدن بذل جهود لتجهيز الرأى العام الإنجليزى والأمريكى لتقبل فكرة اتخاذ إجراء عسكرى ضد مصر وما أعقب ذلك من حرب الأعصاب التى تم شنها ضد عبد الناصر.

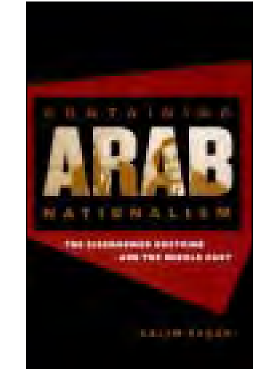
■



Suez: Britain's End of Empire in the Middle East
Keith Kyle
I.B.Tauris 2002, 728 pp $23.62

فى يوليو عام ١٩٥٦ قام الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس وطرد المسئولين البريطانيين عن البترول وكذلك طرد مسئولى السفارة بعد أن تراجعت بريطانيا عن وعدها بتمويل مشروع بناء سد اسوان. كان تصرف عبد الناصر دافعا للكثير من الأحداث التاريخية كان أولها غزو اسرائيل للأراضى المصرية(حملة سيناء) ووجهت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا قوات عسكرية لاستعادة السيطرة على القناة، كما أسفر التدخل من جانب الأمم المتحدة عن التوصل إلى هدنة. يقدم المؤلف عرضا عميقا لتفاصيل الأزمة ويوضح أهمية الدور الأمريكى فى إشراك الأمم المتحدة U.N.. وتوضح هذه الدراسة كيف خرج جمال عبد الناصر من هذه الأزمة بمكانة أرقى وأعلى فى العالم العربى وكيف صمد امام العدوان الثلاثى المكون من اسرائيل واثنتين من القوات الامبريالية، والكيفية التى قام من خلالها بكسر روح الاستعمار وإذكاء حلم الوحدة العربية. يكتب كايل فى شكل سردى تاريخى كيف أدى تصاعد الأحداث إلى تشكيل أزمة السويس عندما تحالفت فرنسا وبريطانيا مع اسرائيل فى محاولة لإسقاط جمال عبد الناصر وإعادة سيطرتها الاستعمارية فى الشرق الأوسط. يبحث المؤلف صعود إيدن إلى القيادة السياسية فى بريطانيا العظمى وينتقل إلى تآكل القيادة السياسية فى بريطانيا وفى الوقت نفسه يبحث التطورات فى بلدان رئيسية أخرى هى فرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل ومصر. فى لغة حية وأسلوب واضح يلقى المؤلف الضوء على الأحداث. هذا الكتاب يعد مرجعا جيدا لفهم أفضل لتطورات الحرب الباردة واستمرار الاحباط السياسى فى العالم العربى.

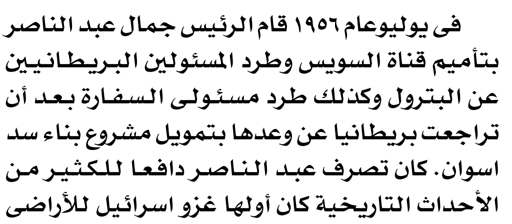
■



Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and The Middle East (The New Cold War History)
Salim Yaqub
The University of North Carolina press
2006, 408 pp $24.26

تعهدت الولايات المتحدة بموجب مبدأ آيزنهاور بتقديم المزيد من المعونات الاقتصادية والعسكرية للدول الراغبة فى ذلك فى الشرق الاوسط وتعهدت أيضا بتوفير الحماية- من خلال قوات عسكرية أمريكية إذا لزم الأمر- والسلامة الإقليمية لهذه الدول وحماية استقلالها السياسى من تهديد الشيوعية الدولية International Communism يقول سالم يعقوب أنه على الرغم من أن الهدف الرسمى المعلن للولايات المتحدة كان حماية الشرق الأوسط من التعدى السوفيتى إلا أن مبدأ آيزنهاور كان ينطوى على مهمة غير معلنة وهى احتواء النزعة القومية الراديكالية العربية للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر الذى كان يعتبره آيزنهاور وكيلا غير متعمد للتوسع السوفيتى. من خلال تقديم العون والحماية كانت إدارة آيزنهاور تأمل فى اقناع غالبية الحكومات العربية بالإنحياز إلى الغرب فى الحرب الباردة. وبالتالى عزل عبدالناصر وتقليل احتمالات أن يقع الشرق الأوسط تحت سيادة الاتحاد السوفيتى. يستخدم سالم يعقوب مجموعة واسعة من المصادر الأرشيفية السرية المصرية والأمريكية والإنجليزية لاستعراض الجهود الديناميكية والشاملة التى قام بها آيزنهاور لمواجهة ومقاومة الافتتان بالناصرية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. وفى تحد للتفسيرات التى تؤكد وجود تنافر ثقافى وقيم متضاربة بين الولايات المتحدة والعرب وما كان لذلك من أثر على العلاقات بينهم يقول يعقوب إن الخلاف السياسى بين الولايات المتحدة والحركة الناصرية كان واقعا ضمن إطار أخلاقى مشترك، هذا النمط الذى لا يزال يصف الاختلافات الموجودة بين الولايات المتحدة والعرب فى الوقت الراهن.

■



A Revolutionary Year: The Middle East in 1958 (Library of Modern Middle East Studies)
Roger Owen، Wm.Roger Louis
I.B.Tauris,2002, 256 pp $ 87.00

يعد هذا الكتاب مرجعا قيما لكل من له اهتمامات جدية بالتاريخ الحديث للمنطقة العربية والشرق الأوسط فى عام ١٩٥٨ عندما كان الشرق الأوسط والعالم العربى يمران بأزمة تاريخية حيث كانت لبنان فى حالة اضطراب مدنى وكانت الثورة قائمة فى العراق وكان البادى على العالم العربى هو محاولته الانشقاق على الغرب والانضمام إلى العالم الشيوعى. يحتوى الكتاب على مجموعة من المقالات تتناول المسائل التى أثارتها أحداث هذا العام والنتائج التى ترتبت عليها.

■

النشر

■■ في صباح يوم ٢٧ يناير الماضي، أي منذ دهر بمعايير عالم التكنولوجيا، كان على ستيف جوبز الظهور في مركز يربا بوينا للفنون، في وسط مدينة سان فرانسيسكو، لكشف النقاب عن جهاز أبل الجديد، الـ«آي باد». وعلى الرغم من التكهنات الضخمة حول الجهاز، كان عدد قليل من الجمهور يعرف اسمه ووظيفته بالضبط، وكانت التوقعات التي تسود الغرفة في حجم آمال الجحافل التي تصطف خارج كهف لورد[1]. انتظر مئات من الصحفيين والضيوف، بما في ذلك آل جور، يويو ما[2]، وروبرت إيجر، الرئيس التنفيذي لشركة ديزني، ملتفين حول المسرح، في انتظار جوبز ليظهر. وكان ينبعث من السماعات مزيج من أغاني بوب ديلان[3]. خفت الصوت مع إضاءة خشبة المسرح ليظهر جوبز، وسط تصفيق الحشود.

في الأسابيع التي سبقت هذا اللقاء، كانت صناعة الكتاب كلها أمل وتفاؤل غير معهود؛ وأشير للجهاز، في بعض دوائر النشر، باسم «حبة يسوع». كانت الصناعة في أمس الحاجة لمنقذ. فبين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٨، لم تزد المبيعات السنوية إلا بنسبة ١٫٦٪ فقط، وكانت هوامش الربح آخذة في الانكماش. ومثل غيرها من الصناعات التي تشق طريقها بصعوبة، خفض الناشرون النفقات والدعاية وسرحوا المحررين، وأعطوا فرصا أقل للكتاب غير المشهورين.

كان أمل الصناعة الأكبر، هو قيام الـ«آي باد» بتوصيل الكتب الإلكترونية للجماهير والمساعدة في جعلها مربحة. فالكتب الإلكترونية في ازدهار. على الرغم من أنها لا تمثل سوى ما يقدر بـ٣-٥ في المائة من السوق، ازدادت مبيعاتها ١٧٧٪ في عام ٢٠٠٩، وكان من المتوقع أن تمثل في نهاية المطاف ما بين ٢٥ و٥٠٪ من كل مبيعات الكتب. ولكن دور النشر كانت قلقة من أن يؤدي انخفاض الأسعار لتقليل الربح. حيث تشتري مكتبة أمازون، العديد من الكتب الإلكترونية من الناشرين بحوالي ١٣$ وتبيعها بـ٩٫٩٩$، مع خسارة في كل كتاب من أجل الحصول على حصة أعلى من السوق ولتشجيع مبيعات جهاز القراءة الإلكترونية، كيندل. وبحلول نهاية العام الماضي، استأثرت أمازون بـ٨٠٪ تقريبا من مجموع مبيعات الكتب الإلكترونية، وبدا أنه تم الاعتراف بمبلغ الـ٩٫٩٩ $ كسعر للكتاب الإلكتروني فذعر الناشرون. قال ديفيد يونج، رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي لمجموعة هاشيت للكتاب بالولايات المتحدة الأمريكية: «تسعيرة الـ٩٫٩٩ $ هي الهم الأكبر، وهي هم هائل، لأنها سمحت بأن يترسخ في ذهن المستهلك أن الكتاب يستحق عشرة دولارات، في رأيي، هذه هي نهاية هذه الصناعة».

في مركز يربا بوينا، استغرق الأمر بعض الوقت لأن يذكر جوبز الكتب، وعندما فعل قال إن «أمازون قامت بعمل عظيم» مع جهازها كيندل. وأضاف «سنقف على أكتافهم لنصل أبعد قليلا مما وصلوا إليه». ربما كان من الأصح القول أن جوبز خطط للوقوف على عنق أمازون والضغط عليها بكل قوته، وسط تصفيق الناشرين. يعد قرار الدخول في مجال النشر انقلابا بالنسبة لجوبز، الذي قال قبل عامين إن صناعة الكتاب غير قابلة للإنقاذ. فقد قال: «لا يهم مدى سوء أو جودة المنتج، الحقيقة أن الناس لم تعد تقرأ». «لقد قرأ أربعون في المائة من سكان الولايات المتحدة كتابا واحدا أو أقل في العام الماضي». ولكن رغم أن قراءة الكتب تأتي في ترتيب متأخر على قائمة الأشياء التي يمكن للـ«آي باد» القيام بها، فإنها تظل على القائمة، مما يعني أن أمازون قد أصبحت منافسا. قال مستشار لجوبز أن «هناك سخونة شديدة بين أبل وأمازون وجوجل». وقال مصدر مطلع في أبل أن «ستيف يكن احتقارا للجميع، ما لم يسيطر عليهم». «إنه يعتقد أن أمازون غبية، وأنها ارتكبت خطأ رهيبا بإصرارها على تسعير الكتب بـ٩٫٩٩$».



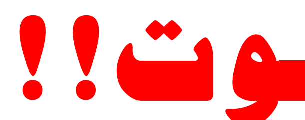
على خشبة المسرح، أوضح جوبز أنه سيُعرض أمازون ومديرها التنفيذي، جيف بيزوس، لتحد خطير. وقال للحشد إن خمسة من «الناشرين الستة الكبار» قد وافقوا على بيع كتبهم الإلكترونية من خلال منفذ أبل للكتب الإلكترونية، الذي سيفتتح في أبريل. وقال إن أبل، قد تمكنت، من خلال متاجرها الإلكترونية وبرنامج آي تونز iTunes[4]، من الوصول إلى ١٢٥ مليون بطاقة ائتمان، ستسهل على المستهلكين شراء الكتب بضغطة زر. وبدا بوضوح أن الـ«آي باد» يعد جهازا أكثر تنوعا: حيث أنه يتيح استخدام الألوان والصوت والفيديو، في حين أن كيندل لا يتيح سوى عرض النصوص بالأبيض والأسود فقط.

كان انتهاء جوبز من عرضه، إيذانا بانتقال الضيوف إلى مبنى مجاور لاختبار الـ«آي باد». وكان من بين الضيوف كارولين ريدي، الرئيس والمدير التنفيذي لسايمون أند شوستر. بابتسامة عريضة،

Ken Auletta has written Annals of Communications columns and profiles for The New Yorker magazine since 1992. He is the author of eleven books, including: Three Blind Mice: How the TV Networks Lost Their Way; The Highwaymen: Warriors of the Information Super Highway; andGoogled, The End of the World As We Know It.

بترتيب مع
The NewYorker

ترجمة جيهان شعبان



...ـــــر.. أو المــــــــــوت!!

Publish or Perish



هـل يـمـكـن لــ iPad أن يـطـيـح بـالـقـارئ الإلـكـتـرونـى كـيـنـدل Kindle، ويـنـقـذ صـنـاعـة الـكـتـاب؟

كـيـــن أولـيـتــا

Ken Auletta

قالت ريدى، «إنه رائع! أريد واحدا!» وقالت إنها تأمل أن يتيح الجهاز الجديد « الكتب الرقمية لـ١٢٥ مليون شخص». وأضافت أن من شأنه أيضا أن «يخلق منافسا لأمازون، ويوفر للناشرين القدرة على رفع سعر الكتب عن العشرة دولارات.

دار جوبز حول الغرفة، ليتوقف عند واحدة من الطاولات العديدة المكدسة بالـ«آى باد» لإجراء محادثة مع والت موسبرج، كاتب عامود متخصص فى التكنولوجيا فى جريدة الوول ستريت جورنال. وعلى خشبة المسرح، وقف جوبز، يشرح كيف ستقوم أبل ببيع الكتب؛ اختار كتاب إدوارد كينيدى «البوصلة الحقيقية»، وقام بالنقر على أيقونة «شراء» وإلى جانبها سعر ١٤.٩٩$. سأل موسبرج، لماذا سيقوم المستهلكون «بدفع ١٤.٩٩$ لأبل بينما يمكنهم شراء الكتاب نفسه من أمازون بـ٩.٩٩$؟».

رد جوبز «لن يكون الأمر كذلك». وأضاف بثقة زائدة «سوف يكون الثمن متساويا». طلب موسبرج منه التوضيح. لماذا سترفع أمازون الأسعار، فى الوقت الذى يقوم فيه المستهلكون بشراء عدد كبير من الكتب؟». رد جوبز «لأن الناشرين قد يحجبون كتبهم عن أمازون.. فهم مستاءون».

فى اليوم التالى، وكان يوم جمعة، طار جون سارجنت، المدير التنفيذى لماكميلان (تكتل ناشرين يضم فارار، وستراوس وجيرو، وسانت مارتن بريس)، من نيويورك إلى سياتل للاجتماع مع أمازون. ماكميلان هو الأصغر من بين الناشرين الستة الكبار، الذين يقومون بنشر ٦٠٪ من مجموع الكتب التى تباع فى الولايات المتحدة. وعلى غرار نظرائه، يعتمد ماكميلان اعتمادا كبيرا على أمازون، التى تبيع نحو ١٤٪ من كتبه والغالبية العظمى من كتبه الإلكترونية. لكن سارجنت كان مصمما على إجبار أمازون على تغيير طريقتها فى العمل.

تقليديا، يبيع الناشرون الكتب للمتاجر، بسعر جملة يساوى ٥٠٪ من سعر الغلاف. ويحصل الكُتّاب على حوالى ١٥٪ من سعر الغلاف مقابل حق التأليف. يمكن حساب نسخة مبسطة من تكاليف أحد الناشرين على النحو التالى: بالنسبة لكتاب جديد ثمنه المطبوع على الغلاف ٢٦$، يحصل الناشر عادة على ١٣$. ويحصل الكاتب على حق تأليف مساو لنحو ١٥٪ من سعر الغلاف، أى حوالى ٣.٩٠$. وربما يذهب ١.٨٠$ مقابل تكاليف الورق والطباعة والتجليد، ودولار للتسويق و١.٧٠$ للتوزيع. يجب أن يكفى المبلغ المتبقى وقدره ٤.٦٠$ لدفع الإيجار، وأجور المحررين، وموظفى المبيعات، وتسديد أى دفعات لم تسدد للكاتب. وتقوم المكتبات بإعادة حوالى ٣٥٪ من الكتب التى اشتروها، ليتحمل الناشرون تكلفة إنتاج هذه الكتب. النتيجة تكون هوامش ربح ضئيلة.

على الرغم من كون هذا الوضع أقل من مثالى، فقد استمر، بشكل أو بآخر دون تغيير، على مدى عقود. لتضع الكتب الإلكترونية النظام برمته موضع تساؤل. فإذا لم يكن هناك كتاب ملموس، كيف يمكن تحديد السعر؟ اتفق معظم الناشرون، مع قدر من عدم الاقتناع، على إعطاء الكتاب ٢٥٪ مقابل حق التأليف، وبدءوا سلسلة طويلة من المفاوضات مع أمازون حول التسعير. لعدة أشهر قبل زيارة سارجنت، كانت دور النشر تتحدث عن فرض «نموذج للوكالة» للكتب الإلكترونية. وفقا لنموذج من هذا القبيل، يمكن اعتبار الناشر هو البائع، أما من يقوم بالبيع عن طريق الإنترنت مثل أمازون، فيكون بمثابة «وكيل» مقابل ٣٠٪. حتى الآن، لا يبدو أن أيا من الناشرين اعتقد أنه يمكنه التحرك بمفرده، أما إذا قاموا بتقديم طلب مشترك لأمازون، فيخشى أن يتعرضوا للاتهام بتحديد الأسعار والتواطؤ.



فى سياتل، اجتمع سارجنت مع روس جراندينتى، نائب الرئيس المسئول عن محتوى كيندل، وقال له أنه فى حالة عدم قبول أمازون لنموذج الوكالة، سيقوم ماكميلان بسحب كتبه الإلكترونية. كان سارجنت يوجه إنذارا: فقد بنت أمازون أعمالها على الشمولية، فإذا قام ماكميلان بسحب كتبه، لن تعود قادرة على الادعاء بأنها أفضل متجر لبيع الكتب فى العالم. لم تستجب أمازون كما أمل سارجنت.

وقبل نزوله من الطائرة، عائدا إلى نيويورك، فى مساء يوم الجمعة ذاته، كان قد أوقف بيع جميع كتب ماكميلان. ولكن، كما ألمح جوبز، كانت أربع دور نشر كبرى أخرى هى: سايمون أند شوستر، وهاربر كولينز، وبنجوين، وهاشيت، تخطط بهدوء لتحذو حذو سارجنت. بعد ظهر يوم الأحد، عكست أمازون مسارها، وأعلنت على موقعها على الإنترنت «سيكون علينا الاستسلام وقبول شروط ماكميلان لأن ماكميلان يحتكر الكتب التى يقوم بنشرها، ونحن نريد أن نقدمها لكم حتى بأسعار نعتقد أنها مرتفعة بلا داع بالنسبة للكتب الإلكترونية».

كان هذا بيانا خفيا نوعا ما، ألا تحتكر كل شركة المنتجات الخاصة بها؟ فسر الناشرون ما حدث بطرق مختلفة. قال أحد التنفيذيين أن أمازون استسلمت من أجل إظهار أن «التسعير كان خارجا عن إرادتها»، وهذا يعنى، إلقاء اللوم على الناشرين لارتفاع الأسعار. وقال رئيس دار نشر آخر، «كانت أمازون متقدة بالغضب. تحولوا لأنهم عرفوا أنه إذا ما سحب جميع الناشرين كتبهم لكانت النهاية بالنسبة لأعمال أمازون. أيا كان التفسير، كان إعلان أمازون خبرا سارا بالنسبة للناشرين. أطلق جون سارجنت على المفاوضات مع أمازون «لعبة الشطرنج»، ويبدو أنه فاز بالمناورة الافتتاحية.

النـشــــــر... أو المــــــوت!!



رغم نجاح تكتيكات سارجنت، بدا على الناشرين أنهم غير متأكدين من قدرتهم على الاستمرار. قال لى رئيس واحدة من دور النشر الكبرى: «لست متأكدا من أن (نموذج الوكالة) هو أفضل». فقد يجمع الناشرون أموالا أقل بهذه الطريقة؛ حوالى ٩$ للكتاب، بدلا من ١٣$. كانت المفاضلة غير جذابة؛ التنازل عن بعض الربح من أجل تحديد الحد الأدنى للسعر. قال أحد الناشرين «أجبرتنا أمازون على ذلك». «لقد اختاروا فعل شىء غير منطقى، خسروا المال من أجل الحصول على الاحتكار. وكان ذلك تدميرا للناشرين وتجار التجزئة والمؤلفين. هذا هو ما جلبوه على أنفسهم».

يحيا النشر فى حالة مستمرة من التنبؤ بالزوال؛ ففى واحدة من دور النشر الكبرى، هناك نكتة رائجة تقول أن ثانى كتاب نشر فى جوتنبرج برس كان عن نهاية صناعة النشر. انشغال الناشرين بأمازون يذكرنا بمخاوفهم من بارنز ونوبل، التى بدأت فى الثمانينيات إنتاج الكتب الخاصة بها، مما سبب للناشرين قدرا كبيرا من القلق دون أن يؤثر ذلك كثيرا على أعمالهم. خلافا لبارنز أند نوبل، تولد أمازون أكثر من نصف إيراداتها، التى تبلغ قيمتها حوالى ٢٥ بليون دولار سنويا، من منتجات أخرى غير الكتب. يعتقد كثير من الناشرين أن أمازون تنظر للكتب باعتبارها مجرد سلعة أخرى للبيع بأرخص سعر ممكن، وأنها تعتبر الناشرين كعنصر يمكن الاستغناء عنه. قال مدير إحدى دور النشر: «لا تنس أن بيزوس قد أعلن عن وفاة الكتب والمكتبات المادية».

افتتحت أمازون دوت كوم أعمالها فى سياتل فى يوليو ١٩٩٥. وعلى الرغم من نشاط المبيعات، استغرق الأمر سبع سنوات كاملة لتوليد الأرباح، بينما تبارى المحللون فى توقع انهيارها. إلا أن بيزوس تجاهل الانتقادات. وعندما طلب منه تشارلى روز، فى عام ٢٠٠٩، أن يصف أبرز مواهبه، لخص الأمر فى التركيز على المدى الطويل و«الاستعداد لأن يساء فهمى». مثل غيرها من شركات الإنترنت الناجحة، أكدت أمازون على كسب ثقة المستهلكين. قال بيزوس مرات عديدة: «رؤيتنا هى أن نكون أكثر شركة تركز على إرضاء العملاء فى العالم». وجزء من رضاء المستهلكين يعود إلى انخفاض الأسعار؛ باعت أمازون العديد من الكتب، ولاسيما أكثر الكتب مبيعا، بسعر يزيد قليلا عن سعر الجملة، أو حتى بالخسارة. ويعتقد بيزوس، أن انخفاض الأسعار، سيؤدى على المدى الطويل، إلى توسيع حصة أمازون فى السوق، وزيادة أرباحها وسعر أسهمها.

كان لأمازون تأثير عميق على أعمال الناشرين، بخلق مكان موثوق به، يمكن للعملاء العثور فيه على الكتب التى لم يعد يروج لها فى المتاجر. تعتبر هذه الكتب القديمة التى تباع بفاعلية مع مرور الوقت، أمرا حيويا لدور النشر. فى دار رندم للنشر، تأتى أكثر من ٥٠٪ من الإيرادات من كتب مثل «النبى» و«إتقان فن الطبخ الفرنسى»، التى توفر أرباحا ثابتة تسمح بجعل الناشرين أكثر ميلا للمغامرة والمقامرة على الكتب الجديدة. قال ديفد يونج من دار هاشيت للنشر أنه مع أمازون، «يستطيع الناس العثور على الكتب القديمة». «لم يعد عليك بعد الآن أن تأمل أو أن تصلى لكى تجد كتابا معينا على الرف». وقالت كارولين ريدى أنه فى فترة تبلغ ثلاثة أشهر يتم عبر الإنترنت فى العادة بيع نسخ من ٢٥٠٠ عنوان لسايمون أند شوستر، لم تعد المكتبات تحتفظ بها.

كان بيزوس قد ابتكر طريقة أكثر فعالية لشراء الكتب. ومع وصول الكتب الإلكترونية، بدأ التفكير فى طرق لإحلال الورق تماما. كان للكتب الإلكترونية مزايا لا يمكن إنكارها بالنسبة للناشرين. فمعها لن يكون هناك المزيد من العوائد ورسوم التخزين، ونفقات الطباعة، أو تكاليف الشحن. إلا أن العقبة كانت أن لا أحد يعرف كيف ينبغى قراءة الكتب الإلكترونية. لم تكن شاشات الكمبيوتر قابلة للحمل بالقدر الكافى، وبالنسبة لكثير من القراء كانت الهواتف المحمولة صغيرة جدا. وبذلك ظلت الكتب الإلكترونية سوقا متخصصة، وفى الغالب مهملة من قبل الناشرين الكبار.

فى أواخر عام ٢٠٠٧، أصدرت أمازون جهاز كيندل، الذى قدم صورة زائفة لائقة للصفحات المطبوعة، والذى كان بإمكانه تحميل كتاب كامل لاسلكيا فى ستين ثانية. قال آرثر كليبانوف، المؤسس المشارك والمدير التنفيذى لدار نشر الكتب الإليكترونية روزيتا بوكس، إنه بمجرد أن أصبح كيندل متاحا، «استغرق الأمر من أمازون تسعين يوما من يوم انطلاق الجهاز لتحقيق إيرادات، عن كتبى القديمة الـ١٠٠، تفوق ما أحققه من كل منصات التوزيع الأخرى مجتمعة». ويقدر عدد أجهزة كيندل المستخدمة الآن بنحو ثلاثة ملايين جهاز، ويوجد على أمازون قوائم لأكثر من ٤٥٠ ألف كتاب إلكترونى. وإذا كان نفس الكتاب متوفرا فى صورة ورقية وإلكترونية، تقول أمازون، أن ٤٠٪ من عملائها يطلبون النسخة الإلكترونية. ويقول روس جراندينتى، نائب رئيس أمازون، أن كيندل زاد من مبيعات الكتب فى كل مكان. «فى المتوسط»، كما يقول، يشترى مستخدمى كيندل «٣.١ ضعف عدد الكتب التى كانوا يشترونها منذ اثنى عشر شهرا».

إلا أن الناشرين أدركوا أيضا التشابه بين إستراتيجية أمازون، وتلك الخاصة بأى تيونز. قال أحد الناشرين: «أحصل على حصة من السوق، وعندما تسبق الجميع يكون من الصعب اللحاق بك. كانت لعبة بيزوس، مثل جوبز من قبله، تتلخص فى الحصول على الجهاز وتوزيع ما بين ٨٠ إلى ٩٠٪ عليه، للفوز باللعبة».



ما يطبق حتى الآن، هو قياس على صناعة الموسيقى. ما فعله أى تيونز هو إحلال الاسطوانة باعتبارها الوحدة الأساسية للتجارة، فبدلا من الاضطرار لشراء ألبوم كامل للحصول على الأغنية التى تريدها فعلا، يمكنك شراء الأغنية بمفردها. لكن لا أحد، مع الاستثناء المحتمل للطلبة، يريد شراء فصل واحد من معظم الكتب. أما قلق الناشرين الحقيقى فهو أن السعر المنخفض للكتب الرقمية سوف يدمر المكتبات، عملاءهم الأوليين. فتحت ثقل الإيجار والكهرباء وغيرها من التكاليف، يصبح من غير المحتمل أن تقدم المتاجر المبنية بالطوب والمونة الأسعار التى يمكن أن تتنافس مع أسعار بائعى الانترنت. قالت روكسان كوادى، التى تملك أرجى جوليا بوكسيلرز، إضافة إلى مكتبة مستقلة فى ماديسون، بكونيكتيكت: «قطاع بيع الكتب يشبه، فطيرة قطرها ثمانى بوصات، يتوالى غرز المزيد من الشوك فيها. كانت السلاسل هى أول شوكة بالنسبة لنا، وانخفاض معدلات القراءة كانت الشوكة الثانية. وكانت أمازون هى الشوكة الثالثة. أما الشوكة الحالية فهى التنزيلات الرقمية».

وفقا لرابطة بائعى الكتب الأمريكية، انخفض عدد المكتبات المستقلة من ٣٢٥٠ إلى ١٤٠٠ مكتبة منذ عام ١٩٩٩؛ وتمثل مبيعات المكتبات المستقلة الآن ١٠٪ فقط من إجمالى المبيعات. بينما تستحوذ سلاسل مثل بارنز ونوبل وبوردرز على حوالى ٣٠٪ من السوق، وتساوى حصة المتاجر العملاقة مثل تارجتس وول مارت، إلى جانب أندية مثل كوستكو ٤٥٪، على الرغم من أنها تعرض فى العادة عددا قليلا من العناوين. يتعرض الناشرون نتيجة لذلك، على غرار استوديوهات هوليوود، لضغوط هائلة لخلق المزيد من الأعمال الناجحة، كتب مثل Twilight «الشفق»، وعدد أقل من الروايات المحلية الهادئة أو الكتب القيمة عن الفقر أو السياسة التجارية.

محلات بيع الكتب، خاصة المكتبات المستقلة، تعمل على مقاومة هذا الاتجاه من خلال مناصرة الكتاب الذين يؤمن بهم الموظفون. يقول جوناثان بورنهام، النائب الأول للرئيس وناشر هاربر كولينز: «فى محل لبيع الكتب، هناك عنصر سار هو المشاركة فى التصفح». «المكتبات المستقلة تكون بمثابة مركز اجتماعى. نسير فيها ونعرف الناس الذين يعملون هناك، ونود أن نسمع توصياتهم بالقراءة».

ولكن تكلفة الحفاظ على الموظفين المطلعين وعلى مساحة للتصفح تساهم فى ارتفاع الأسعار، التى لا يرغب الكثير من المستهلكين فى دفعها. يباع كتاب من أكثر الكتب مبيعا مزود بغلاف مقوى بـ١٧$ فى أمازون دوت كوم بينما يصل سعره فى العادة لـ٢٨$فى محل لبيع الكتب. قال مستشار أبل، «تتيح الانترنت كل شىء، بأرخص الأسعار. أقارن المكتبات بمحلات الفيديو قبل عشر سنوات. الآن أستخدم نتفليكس(٥) أو أقوم بتحميل الأفلام». من المفهوم أن المشترين يريدون مميزات الموقع الإليكترونى، والعلاقة الحميمة المتاحة فى المكتبات. إلا أن هذا يلزم الناشرين بإدارة نوعين من الأعمال فى وقت واحد: دار نشر تقليدية تبيع رزم الكتب للمكتبات ودار نشر إليكترونى تبيع الكتب الرقمية على الإنترنت. ويقول بيرنهام: «أعتقد أن المستهلكين، مثلهم مثل الناشرين، يعيشون فى عوالم متوازية». «تعود المستهلكون على الحصول على أعداد كبيرة من الخيارات. مازالوا يحبون الذهاب للمكتبات، فى حين يريدون كل شىء متاحا على شبكة الإنترنت أيضا».

تيم أوريلى، مؤسس والمدير التنفيذى لأوريلى ميديا، التى تقوم بنشر حوالى ٢٠٠ كتاب إلكترونى فى السنة، يعتقد أن النموذج القديم للناشرين (معيب من أساسه). وأضاف «إنهم يعتقدون أن المكتبات هى زبائنهم». «لا يبنى الناشرون أبدا البنية التحتية اللازمة للاستجابة للعملاء». بدون المكتبات، سيستغرق الأمر سنوات حتى يعرف الناشرون كيفية بيع الكتب مباشرة للمستهلكين. لا يقومون

يقول روزنتال أن الـ«آى باد»: «قد يفتح الباب أمام احتمال التعامل مع كتاب غير ثابت. فهو يتيح إمكانيات هائلة»



بأبحاث للسوق، لديهم بيانات قليلة عن عملائها، وليس لديهم أى خبرة فى مجال تجارة التجزئة المباشرة. مع الاستثناء المحتمل لهارلكوين رومانس وكتب بنجوين للجيب، لا توجد رابطة خاصة بين القراء وأى ناشر؛ فى مجال الكتاب، المؤلف هو العلامة التجارية. لجذب المستهلكين، يجب على الناشرين بناء موقع إليكترونى تعاونى لبيع الكتب الإلكترونية، وهى فكرة جايسون إبستين، مدير التحرير السابق لراندوم هاوس، روج لها لسنوات دون نجاح. ولكن، حتى إذا وضعنا جانبا صعوبات تعلم كيفية تشغيل تجارة تجزئة، قد يواجه مثل هذا الموقع مشاكل مع بروتوكول مجلس الأمن، هذا إذا لم تقم أمازون باتهام الناشرين بتحديد الأسعار أولا.

يبدو أن محلا للكتب الإليكترونية يوفر الحل، وهو ما يساعد على تفسير سبب توقيع خمسة من الناشرين الستة الكبار من دون أى تردد واضح. العقبة الوحيدة كانت راندوم هاوس، أكبر الستة الكبار. قال ماركوس دوهل، رئيس مجلس الإدارة والمدير التنفيذى، إنه يشاطر القلق بشأن أسعار الكتب الإلكترونية ولكنه يعتقد أن الناشرين تسرعوا فى تبنى نموذج للوكالة مع آبل أو أمازون. وأضاف: «سيستغرق التحول الرقمى من ٥ إلى ٧ سنوات. «بالنسبة لى هى ليست مسألة أسبوع، أو مائة يوم».

بزغ دوهل، ٤١ سنة، فى منصب تنفيذى فى مجال الطباعة فى برتلسمان إيه جى، الشركة الأم لراندوم هاوس، وانتقل إلى الولايات المتحدة فى عام ٢٠٠٨. وأعرب عن اعتقاده بأنه يستطيع أن يرى من الخارج التحديات التى تواجه هذه الصناعة بشكل أكثر وضوحا». وأضاف: «إذا كنت تريد اتخاذ القرار الصحيح فى المستقبل، فإن الخوف ليس بالمستشار الجيد». قبل القبول «بتغيير جوهرى فى نموذج الأعمال التجارية»، يريد أن يأخذ وقته «لإجراء محادثات مع جميع شركائنا»، بما فى ذلك الكُتاب، الوكلاء، والمكتبات. «بالنسبة لنا فى صناعة النشر»، يقول: «كانت أمازون العميل الأسرع نموا. أعتقد أنها شركة عظيمة». وهو يرحب بدخول آبل إلى عالم النشر الإلكترونى، ولكنه يقول: «إذا قمت بعقد صفقة مع شركة آبل وفقا لنموذج الوكالة، فإن ذلك يعنى أن عليك القيام بصفقات وكالة مع جميع المكتبات الإلكترونية الأخرى».

مايكل شاتكنز المدير التنفيذى لأيديا لوجيكال، وهى شركة استشارات إعلامية، يعتقد أن راندوم هاوس متمسكة بالحصول على صفقة أفضل. وكذلك يعتقد الكثير من أقرانه فى دوهل. لكن شاتكنز، الذى يكتب مدونة عن النشر، أشار على مدونته أن عن طريق الحفاظ على الوضع الراهن، أى بيع الكتب الإلكترونية لأمازون بأسعار الكتب الورقية وترك أمازون تخسر، ستستفيد راندم هاوس استفادة قصوى فيما يخص المبيعات والأرباح على المدى القصير. فقد كتب: «ستحصل راندوم هاوس عن كل كتاب إلكترونى يباع على مبلغ يفوق ما قد يجمعه أى من منافسيها فى حين أن الجمهور سوف يقوم بدفع مال أقل عن كل كتاب إلكترونى من راندوم هاوس».



قاومت دوهل أيضا الـ«ويندووينج» ممارسة تأخير الإفراج عن الكتب الإلكترونية، والتى أصبحت شائعة بين الناشرين الآخرين. ويندووينج ليست بالفكرة الجديدة؛ فقد حجب الناشرون طويلا الكتب القديمة لتشجيع مبيعاتها، وفى صناعة السينما، غالبا ما تظهر أقراص الفيديو الرقمية بعد عام من العرض السينمائى. ولكن استخدام هذا الأسلوب مع الكتب الإليكترونية يمكن أن يعمل ضد مصالح المؤلفين والناشرين. ففى ١١ يناير، أصدرت دار هاربر كولينز الطبعة الورقية من Game Change «تغيير اللعبة» تأليف جون هاليمان ومارك هالبرين، ولم تطرح النسخة الإليكترونية للبيع حتى ٢٣ فبراير. فى البداية تمت طباعة ٧٠ ألف نسخة ورقية، سرعان ما نفدت بعد طرحها فى الأسواق بقليل، وظلت المكتبات، فى جميع أنحاء البلاد، لما يقرب من ثلاثة أسابيع دون أى نسخة. فحرم المؤلفان والناشر من الدخل، بما أن القراء المحتملين قد اشتروا كتبا أخرى.

يعتقد روس جراندينتى من أمازون أن «الويندووينج» خطأ فادح. ويقول أنه «لا ينجح». «مع مرور الوقت، سوف يقرأ الناس ما يريدون. وعندما يطرح كتاب ما، يحتاج المؤلفون إلى كل الدعاية التى يمكن أن يحصلوا عليها. وضع عائق تعسفى وإبقاء الكتاب بعيدا عن أيدى شخص قد يناصر هذا العمل هو بالتأكيد قرار تجارى سيئ بالنسبة للمؤلف. ناهيك عن إحباط العملاء».

ووفقا لجراندينتى، يطرح الناشرون الأسئلة الخطأ. حيث يقول: «التنافس الحقيقى، لا يكون فى رأينا، بين الكتاب الورقى والكتاب الإليكترونى». «التلفزيون والأفلام وتصفح الإنترنت وألعاب الفيديو تتنافس جميعا على وقت الناس الثمين. وإذا لم يكن الكتاب منافسا جيدا، نعتقد أنه مع مرور الوقت سوف تعانى هذه الصناعة. انظروا إلى أسعار السلع الرقمية الأخرى. لقد قرأت الصحف هذا الصباح عبر الإنترنت، ولم يكلفنى ذلك شيئا. انظروا إلى أسعار استئجار الأفلام. انظروا إلى سعر الموسيقى. من نواح كثيرة، يعد تعويد الزبون على دفع عشرة دولارات مقابل كتاب إليكترونى إنجازا كبيرا».

من وجهة نظر جراندينتى، يرتكب الناشرون مثل غيرهم من التنفيذيين فى المجالات الإعلامية الأخرى، نفس الخطأ الذى ارتكبته شركات السكك الحديدية منذ أكثر من قرن من الزمان: فقد كانوا ينظرون لأنفسهم باعتبارهم يعملون فى مجال القطارات بدلا من كونهم يعملون فى قطاع النقل والمواصلات. ولتتمكن صناعة النشر من الازدهار، جراندينتى يعتقد، أن على الناشرين إعادة تصور الكتاب كواحد من الوسائط المتعددة الترفيهية. يقول ديفيد روزنتال، ناشر سايمون أند شوستر، أن شركته تتسابق «لتضمين الصوت والفيديو وغيرها من المزايا ذات القيمة المضافة فى الكتب الإلكترونية. يمكن أن يكون ذلك عبارة عن حوار لمؤلف يناقش كتابه، أو مقطع من فيلم يتناول موضوع الكتاب». ويعمل الناشرون الرئيسيون الآخرون على مشاريع مماثلة، يجربون الموسيقى والفيديو واللقطات الإخبارية، والرسوم المتحركة. ويأمل الناشرون فى أن يكون المستهلكون على استعداد لدفع المزيد فى مقابل الميزات المضافة. يقول روزنتال أن الـ«آى باد»: «قد يفتح الباب أمام احتمال التعامل مع كتاب غير ثابت. فهو يتيح إمكانيات هائلة».

ويظل السؤال المطروح هو ما إذا كان المستهلكون المعتادون على دفع ٩,٩٩$ للحصول على الكتاب الإلكترونى سيكونون على استعداد لدفع ١٣,٩٩$، أو أكثر، بغض النظر عن إضافات. وجد تيم أوريلى، ناشر الكتب الإلكترونية، أنه كلما انخفض السعر كلما زادت الكتب التى يبيعها. تبيع شركة أوريلى الكتب الإلكترونية كتطبيقات للآى فون بـ٤,٩٥$، ويقول أنهم ينتجون «كمية أكبر بكثير» ويحققون ربحا يفوق ما تخسره شركته من مبيعات الكتب الورقية.

يعتقد جايسون إبستين أن الناشرين حصلوا على فرصة ذهبية. فنموذج الوكالة، كما يقول، هو فى الواقع شكل آخر من أشكال الائتلاف التى اقترحها منذ عقد من الزمان: «سيقوم الناشرون ببيع الكتب الإلكترونية مباشرة إلى الـ«آى باد». سيستخدمون الـ«آى باد» كمستودع كونى». وبذلك، يخلقون فرصا لتقليص تكاليف المرتبات والنفقات العامة. وقال إبستين أن الكتب الإلكترونية يمكن أيضا أن تستعيد الاستقلالية التحريرية. فقد قال: «عندما ذهبت للعمل فى راندوم هاوس، كان يدير المكان عشرة محررين». وأضاف: «وكان لدينا مدير للمبيعات، ومندوب مبيعات، وكاتب حسابات، ومسئول دعاية، ومدير إدارى. وكان سير العمل ناجحا بشكل كبير. لم نكن بحاجة لـ١٨ طبقة من الموظفين التنفيذيين. الرقمنة ستجعل من ذلك ممكنا مرة أخرى، بل ستجعل منه أمرا حتميا».

يبدو أن أمازون تعتقد أنها فى العالم الرقمى قد لا تحتاج الناشرين على وجه الإطلاق. فى ديسمبر باع ستيفن كوفى، كاتب سايمون أند شوستر، أمازون الحقوق الرقمية الحصرية لاثنين من أكثر كتبه مبيعا، «٧ عادات لأكثر الناس فعالية» و«القيادة المرتكزة على المبدأ». تم بيع الكتب على أمازون عن طريق روزتا بوكس، وحصل كوفى على أكثر من نصف العائدات الصافية. وقال أحد الناشرين: «كان أثر ذلك هو التأكيد على أن أمازون ترى نفسها منافسا كتاجر تجزئة. إن لديهم طموحات ليصبحوا دارا للنشر».

أوضح ذلك بشكل صارخ، أحد المقربين من بيزوس قائلا: «ما كانت أمازون تريد القيام به فعلا، هو جعل ثمن الكتب الإلكترونية منخفضة لدرجة تصرف الناس عن شراء الكتب الورقية. وكانت خطتها بالنسبة للخطوة التالية هى القطع مع الناشرين والتوجه للمؤلفين مباشرة». فى العام الماضى، وفقا لعدة وكالات أدبية، طلب مدير تنفيذى كبير فى أمازون اقتراحات حول اسم الشخص الذى يمكن أن تعينه أمازون لكسب المؤلفين. كانت قد بدأت برنامجا يدعى أُنكور Encore لنشر كتب المؤلفين الذين ينشرون أعمالهم بأنفسهم، وتم إرسال عروض جيدة لأعمالهم إلى أمازون دوت كوم. وفى يناير عرضت على المؤلفين الذين يبيعون الحقوق الإلكترونية مباشرة إلى أمازون ٧٠٪ من الأرباح، شريطة أن يوافقوا على أسعار تتراوح بين ٢,٩٩$ و٩,٩٩$. وكان الهدف من

النشـــــر... أو المـــــوت!!



العرض، كما عبر أحد الناشرين الغاضبين: «التحريض ضد الناشرين».

أقر جراندينتي بأن أمازون حاولت عقد المزيد من الصفقات المباشرة مع المؤلفين: «نحن نبحث باستمرار عن طرق تمكننا من أن نفعل شيئا بكفاءة أكثر».

وقال أن لا جديد فى الأمر: «هناك تاريخ طويل لبائعى الكتب فى مجال النشر»، مشيرا إلى بارنز أند نوبل. أشار إلى أن جميع دور النشر الكبرى، تبيع الكتب مباشرة للمستهلكين على مواقعها الإليكترونية. وأضاف: «يبدو أنهم يقومون بأعمالنا، إنها حقا لحجة غريبة أن يرى البعض فى الاتجاه العكسى ما يدعو للقلق». إلا أن مبيعات الناشرين من خلال مواقع الويب الخاصة بهم لا تذكر، وعلى الرغم من أن برنامج بارنز أند نوبل للنشر استعدى الناشرين، إلا أنه لم يهدد بتخفيض قيمة منتجات بائعى الجملة. يعتقد أوريلى أن لدى الناشرين سببا وجيها للقلق. «أمازون هو منافس استثنائى، بعيد النظر، قوى، وبلا رحمة»، كما يقول. وأضاف: «لا اعتقد أننا شهدنا، فى فضاء التكنولوجيا، شركة بهذه القدرة التنافسية منذ مايكروسوفت».

فى الوقت الحاضر، منح دخول أبل إلى سوق الكتاب مهلة للناشرين. قال مساعد مقرب من بيزوس: «كانت أمازون تفكر فى النشر مباشرة، حتى أن ظهر جهاز أبل. الآن، أصبح هناك ما يكفى من التهديد لإجبار أمازون على التفاوض مع الناشرين».

عند سؤالها وصف أكبر مخاوفها، قالت كارولين ريدى، من سايمون أند شوستر: «فى العالم الرقمى، من الممكن للمؤلفين النشر من دون ناشرين. لذلك يتعين علينا أن نثبت كل يوم قيمة جهدنا للمؤلفين». إلا أن الناشرين كانوا بطيئين فى تناول التكنولوجيات الجديدة التى قد تساعد المؤلفين. يعبر أندرو سافاكاس، نائب الرئيس للمبادرات الرقمية فى أوريلى، عن صدمته من عدم قيام الناشرين بفعل شىء يذكر لتطوير تطبيقات رقمية لكتبهم الإليكترونية، قائلا: «لا شىء يمنع الناشرين من وضع تطبيقات للكتب على الآى فون». وأضاف «هناك ٥٠ مليون آى فون فى العالم. هذه قاعدة عملاء كبيرة». قلل الناشرون شديدو التأثر بالميزانية أيضا من خدمات التحرير والتسويق وغيرها من الخدمات التى كانوا يقدمونها للكتاب، مما ترك للآخرين فراغا للملء. لدى أوثور سوليوشان، وهى شركة للنشر الذاتى فى بلومينجتون، إنديانا ٩٠ ألف عميل من المؤلفين. بالنسبة للكتب التى تجذب اهتماما تجاريا، تحالفت الشركة مع ناشرين مثل هارلكوين لإصدارها من خلال القنوات التقليدية، ولكن مع منح حقوق للمؤلف أكثر سخاء.

جين فريدمان، التى شغلت منصب الرئيس والمدير التنفيذى لهاربر كولينز، غادرت فى عام ٢٠٠٨، وأنشأت أوبن رود إنتجريتد ميديا، وهو مشروع للكتاب الإلكترونى. هى تخطط للحصول على الحقوق الالكترونية للكتب القديمة، والتوقيع مع مؤلفين جدد (بنسبة تقاسم أرباح تساوى ٥٠٪)، كما تخطط لتكوين قسم للنشر الذاتى. قالت فريدمان: «إن الناشرين يخافون من تاجر التجزئة الذى يمكنه أن يحل محلهم». وأضافت: «إن المؤلف يحتاج من الناشر الرعاية والتحرير والتوزيع والتسويق. إذا كان الناشرون يقلصون من نفقات التسويق، وهو ما يعتبر أهم شكاوى المؤلفين، وتبقى أمازون محتفظة بـ٨٠٪ من سوق الكتاب الإلكترونى، لماذا تحتاج إلى ناشر؟»».

يبقى الناشرون على جهل الشركات الرقمية بالعملية الإبداعية للكتب. قال ناشر رئيسى فى أمازون: «إنهم لا يعرفون كيف يفكر المؤلفون. لا توجد هذه الخاصية فى حمضهم النووى». لا تملك أمازون ولا أبل ولا جوجل خبرة اكتساب المؤلفين ورعايتهم وتقديم خدمات التحرير والتسويق لهم. يعد تسليم صفحات الكتب امتحانا كابوسيا لكفاءة الخبراء؛ يشكر المؤلفون بشكل روتينى المحررين والناشرين: للموافقة على منحهم سنة إضافية لاستكمال مخطوطاتهم، أو للرد على مكالماتهم الهاتفية فى وقت متأخر من الليل، أو لمنحهم قرضا لشراء منزل صيفى. هذه الأنواع من اللفتات من غير المحتمل أن يتم الترحيب بها فى ظل ثقافة تتمحور حول مهندسين أكفاء.

يجد ويصقل الناشرون الجيدون مؤلفين، لا يكون بعضهم فى الأساس واعدا من الزاوية التجارية. كما أنهم يمنحون مقدمات لحقوق التأليف. بدون هذه المقدمات لن يستطيع معظم المؤلفين تحمل إجراء الأبحاث اللازمة لكتبهم غير الأدبية. تنتج الصناعة أكثر من ١٠٠ ألف كتاب سنويا، ٧٠٪ من بينها لن تربح المال الذى حصل عليه المؤلفون كمقدمات؛ تعد حقوق التأليف حتى الآن هى أكبر نفقات الناشرين. وعلى الرغم من أن النقاد يجادلون بأن نشر الكتب التقليدية يكبد المؤلفين الكثير من المال، فى الواقع تذهب الأرباح التى حققتها نسبة صغيرة نسبيا من المؤلفين، تدر كتبهم مالا، أساسا لدعم مؤلفين أقل نجاحا تجاريا. قد يكون هذا النظام غير فعال، ولكنه يدعم فئة من الكتاب المحترفين، لم تكن لتوجد لولا هذا النظام.

عملت مادلين ماكينتوش، مدير راندوم هاوس للمبيعات والعمليات والشئون الرقمية، لكل من أمازون وناشرى الكتب، ووجدت الاثنين مختلفين بشكل لافت للنظر. حيث قالت عن الناشرين: «أعتقد أننا، كصناعة، نتكلم كثيرا». وأضافت «نتوقع أن يكون الحوار مفتوحا. إنها ثقافة غداء العمل. لا تلعب أمازون وفق تلك الثقافة» لديها «انضباط لا يصدق فى الإجابة على الأسئلة من خلال الاعتماد على الرياضيات، والنظر فى الأرقام، والبحث فى البيانات... يعد هذا تصادما هائلا بين الثقافات، تصادما مع ثقافة غداء العمل المبنية على الكلمة والإقناع. الثقافة التى تركز على المؤلف».



لا يثق معظم الناشرين فى أمازون، ويعتقدون أنها تعتمد السرية دون داع. لا تقول لهم تفاصيل حول عادات العملاء، أو عدد أجهزة كيندل المباعة، أو تكاليف صناعة هذا الجهاز. لا تكشف حتى عن النسبة المئوية، التى تمثلها مبيعات الكتب من إجمالى الإيرادات، وتكتفى بالقول أن «الميديا»، السينما والموسيقى والكتب مجتمعة، تمثل ٥٢٪ من إجمالى مبيعات عام ٢٠٠٩.

يقول الناشرون إن المفاوضات مع شركة أبل كانت أقل إثارة للجدل. كانت هناك حجج حول أسعار الكتب الإلكترونية، أراد الناشرون تحديد السعر الأقصى للكتاب بـ١٧ دولارا ($) بينما كانت أبل تصر على ١٥$. قال أحد الناشرين: «بمجرد إعلان أبل عن أنها فى طريقها لقبول نموذج الوكالة، أصبحت صارمة للغاية: إما القبول أو الرفض». لكن أناس أبل «كان لديهم شعور بالتواضع يفوق بكثير ما لدى ناس أمازون. قالوا إنهم سوف يتيحون لنا بعض بيانات المستهلكين الذين يقومون بشراء الكتب الإلكترونية. ليس لدينا مثل هذه البيانات من أمازون».

أصبح للناشرين مؤخرا حليف جديد: جوجل، الذى كانوا يعتبرونه حتى وقت قريب تهديدا قاتلا. فى أكتوبر ٢٠٠٤، دون الحصول على إذن من الناشرين أو المؤلفين، أعلنت جوجل أنها، من خلال برنامجها جوجل بوكس، ستقوم بمسح كل كتاب نشر فى أى وقت مضى، وستتيح أجزاء من الصور الضوئية من خلال محرك البحث. غضب مجتمع النشر، مدعيا أن جوجل كانت تسرق عمل المؤلفين. رفع مجموعة من الناشرين، جنبا إلى جنب مع نقابة المؤلفين، دعوى قضائية، لم تحل سوى فى خريف ٢٠٠٨، عندما وافقت جوجل على دفع ٢٥ مليون دولار للمؤلفين والناشرين لاستخدام مواد يملكون حقوق طبعها ونشرها. قال جون سارجنت، الذى كان من ضمن فريق التفاوض عن الناشرين، إن الاتفاق كان إنجازا ضخما. فقد قال: «قبل أكبر لاعب فى مجال الإنترنت بضرورة الحصول على ترخيص ودفع الثمن من أجل الحصول على المحتوى، كما قبل بأن صاحب حقوق الطبع والنشر هو المسيطر على المحتوى». سواء قبلت محاكم الولايات المتحدة بهذه التسوية أم لا، ستقوم جوجل بافتتاح مخزن للكتب الإلكترونية على شبكة الإنترنت، يدعى جوجل إدشن، بحلول منتصف هذا العام»، قال دان كلانسى، المهندس الذى يدير جوجل بوكس، والذى سيكون أيضا مسئولا عن جوجل إدشن.

قال كلانسى إن متجر الكتب الإلكترونية، خلافا لمتاجر أمازون أو أبل، سوف يكون فى متناول المستخدمين على أى جهاز. وقال إن جوجل إدشن سيتيح للناشرين تحديد أسعار كتبهم، كما سيقبل بنموذج الوكالة. وبتحويله ١٢ مليون كتاب للصورة الرقمية، بما فى ذلك عناوين نفدت طبعتها، سوف يكون لجوجل مجموعة مختارة أكبر بكثير من أمازون أو أبل. ستتيح جوجل أيضا الكتب الإلكترونية للبيع فى المكتبات، مع منح «الغالبية العظمى» من الإيرادات للمكتبة. وأضاف كلانسى أنه فى محاولة للسيطرة على السوق اتخذت أمازون وأبل نهجا خاطئا للعمل عبر الإنترنت، حيث قال: «إنه بمثابة نظام بيئى مفتوح، حيث تجد للمكتبات المبنية بالطوب والمونة وسيلة للمشاركة فى المستقبل فى العالم الرقمى للكتب». وأضاف: «نحن مرتاحون للغاية بوجود مجموعة متنوعة من تجار التجزئة الماديين، فى حين أن معظم اللاعبين الآخرين يودون الحصول على مساحة تتمتع بقدر أقل من المنافسة، لأنها ترغب فى السيطرة».

الآن، يعتقد العديد من الناشرين أنهم فازوا فى مباراة الشطرنج التى بدأها

«يمكنك محاولة وضع أجنحة وتحدى الجاذبية، ولكن فى النهاية سوف تهوى إلى أسفل»



سارجنت. قال المدير التنفيذى لإحدى دور النشر: «لدينا ثلاث شركات عملاقة تتنافس الآن، وهكذا لن تستطيع واحدة منهما أن ترغمنا على القيام بأى شىء ما لم يتوافق معه الآخرون». تعد المبيعات الأولية للـ«آى باد» واعدة: قالت أبل إن أكثر من ٣٠٠ ألف جهاز بيع فى اليوم الأول، وخمن المحللون أن ما بين خمسة وسبعة ملايين جهاز ستباع هذا العام.وكانت عشرات من أجهزة القراءة الرقمية الأخرى قد عرضت فى معرض الأجهزة الالكترونية الاستهلاكية فى لاس فيجاس، فى يناير، واضعين كيندل تحت المزيد من. لدى الناشرين سبب آخر للأمل .فلقد غير الركود من تفكير شركات وادى السليكون، بهز ثقتهم فى كون الدعاية هى مصدرهم الوحيد للدخل. بدأ يوتيوب فى فرض رسوم على بعض الأفلام المستقلة، وذلك فى محاولة للتنافس مع نتفليكس، ويعلم مديروها أن النجاح يتطلب إنتاجا مهنيا لمحتوى يرغب المعلنون والمستهلكون، فى دفع ثمنه. ما إن بدأت الشركات الرقمية فى فرض رسوم على المحتوى، حتى التقت فى منتصف الطريق مع شركات إعلام قديمة تبحث عن سبل لفرض أسعار على ما ينتجونه. يبدو أن مصالح شركات الإعلام القديمة والجديدة فى تشكيل شراكات قد تلاقت.

قال مصدر مطلع من شركة أبل: «فى نهاية المطاف، تعمل أبل فى مجال الأجهزة وليس فى مجال المحتويات». وأضاف: «ستيف جوبز يريد التأكد من أن أناس المحتوى هم شركاؤه. ستيف ينتمى لمدرسة أنا أفوز/ وأنت تفوز. فى حين أن جيف بيزوس ينتمى لمدرسة أنا أفوز/ وأنت تخسر». التقى جوبز مؤخرا بصحف نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، وممثلى شركة تايم إنكوربوريشن، كل على حدة، لإثبات إمكانية الـ«آى باد» على توليد المال للصحف والمجلات. قال المصدر المطلع: «جوبز الذى خضع لعملية زرع كبد فى العام الماضى والذى خاض معركة مع سرطان البنكرياس، بدأ التفكير فى إرثه. وأضاف: «إنه فى عجلة من أمره ليحقق فى العامين المقبلين ما كان يفكر فى تحقيقه فى السنوات العشر القادمة. إن رؤيته تبقى على قدرته على الحركة. ليس هناك ما هو قادر على إيقافه، إلا الموت»، وقال إن جوبز كان مسرورا من تأييده للناشرين: «إنه يشعر وكأنه بطلهم».

حتى هذه اللحظة، يعتبر جوبز أفضل حليف للناشرين. قال المصدر المطلع: «ستيف فخور جدا بتوجيه ماكميلان مسدسا إلى رأس أمازون». لكن على المدى الطويل لن تكون أبل أو جوجل بالضرورة شركاء أفضل من أمازون. ففى يوم ما، سوف يشكون هم أيضا من بطء عملية النشر، أو المغالاة فى الأسعار. قبل بضعة أيام من طرح الـ«آى باد» للبيع، فى ٣ أبريل، كانت هناك شائعات بأن أبل ستطرح أكثر الكتب مبيعا بأقل من ٩.٩٩ $. لقد وافقت شركة آبل على نموذج الوكالة لسنة واحدة فقط، وكما تدرك دور النشر تماما، لدى جوبز تاريخ، مع شركات الموسيقى والتلفزيون، فى القتال من أجل خفض الأسعار. قال أحد الناشرين: «ربما تريد أبل أن تعود خلال السنة، للتفاعل معنا بقسوة وبوقاحة». يمكن أن يجعل الـ«آى باد» أمازون قادرة على الوصول إلى فئات جديدة من المستهلكين. تتيح أبل الآن نحو ٦٠ ألف كتاب إلكترونى، أقل بقليل عما يتيحه كيندل، كما أطلقت أمازون تطبيقا يسمح لها ببيع الكتب الإلكترونية على الـ«آى باد». و بغض النظر عن المكان الذى يشترى منه المستهلك الكتاب، فهو يعتقد أن الوسائل الالكترونية ينبغى أن تكلفه أقل، إن شيئا لا يمكنك الإمساك به لا يجب أن يكون سعره غاليا. ردا على سؤال حول جهود الناشرين لرفع الأسعار، قال وكيل أدبى متشككا: «يمكنك محاولة وضع أجنحة وتحدى الجاذبية، ولكن فى النهاية سوف تهوى إلى أسفل». ■

هوامش المترجم:

(١) يُعد مزار كهف لورد فى جنوب فرنسا من أشهر المزارات التى يتوافد عليها الحجّاج وخاصة المرضى من كل مكان من العالم للصلاة وطلب الشفاء والحصول على تلك المياه المقدسة التى تفجّرت كعلامة سماوية لظهور مريم العذراء.

(٢) أمريكى من أصل صينى، يعتبر واحدا من أهم عازفى التشيلو فى العصر الحديث. وهو ملحن أوركسترالى، حائز على جوائز جرامى متعددة.

(٣) هو مغن وملحن وشاعر يتمتع بصوت رائع ومرن، وكلمات أغانيه فيها من الحكمة والاحتجاج الشىء الكثير لأنه كان من الطبقة العاملة والمضطهدة بأمريكا.

(٤) هو برنامج من شركة أبل يشتمل على متجر إلكترونى وإمكانية مزامنة الملفات مع ثلاثة أجهزة من شركة أبل وهى آى بود، آى فون وآى باد. وتبيع أبل من خلال المتجر الإلكترونى الموسيقى والأفلام والبودكاست وتطبيقات نظام تشغيل آى فون وتوجد أيضاً بعض المواد المجانية.

(٥) برنامج لتشغيل الأفلام والمسلسلات.



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٢)

واسمحوا لى أن أوجز بعض الحقائق التالية حولها:

كان عدد سكان فلسطين، عند بداية الغزو عام ١٨٨١ وقبل قدوم أول موجة استيطان، حوالى نصف مليون نسمة كلهم من العرب، مسلمين ومسيحيين، ومنهم حوالى عشرون ألفًا من يهود فلسطين يعيشون جميعًا فى كنف التسامح الدينى الذى اشتهرت به حضارتنا.

وكانت فلسطين أرضًا خضراء معمورة بشعبها العربى الذى يبنى الحياة فى وطنه، ويغنى ثقافته.

وعمدت الحركة الصهيونية إلى تهجير حوالى خمسين الف يهودى أوروبى بين عامى ١٨٨٢ و١٩١٧، لاجئة إلى شتى اساليب الاحتيال لتغرسهم فى أرضنا. ونجحت فى الحصول على تصريح بلفور من بريطانيا، فجسد التصريح حقيقة التحالف الصهيونى الاستعمارى. وعبر هذا التصريح عن مدى ظلم الاستعمار للشعوب حيث اعطت بريطانيا، وهى لا تملك، وعدًا للحركة الصهيونية، وهى لا تستحق. وخذلت عصبة الأمم بتركيبها القديم شعبنا العربى، وتبخرت وعود ومبادئ ويلسون فى الهواء، وفرضت علينا، قسرًا، الاستعمار البريطانى بصورة الانتداب. وتعهد صك الانتداب الذى اصدرته عصبة الأمم المتحدة، صراحة، بالتمكين للغزوة الصهيونية من أرضنا.

وعلى مدى الثلاثين عامًا بعد صدور تصريح بلفور، نجحت الحركة الصهيونية مع حليفها الاستعمارى، فى تهجير مزيد من يهود أوروبا، واغتصاب أراضى عرب فلسطين. وهكذا أصبح عدد اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٧ حوالى ستمائة الف، يملكون أقل من ٦٪ من أراضى فلسطين الخصبة، بينما كان تعداد عرب فلسطين حوالى مليون وربع المليون نسمة.

إن أردت أن تحـــــــــطـــــــــم شـــــــــــــــعـــبا

غرناطة أمريكية!

هاواى فى الحرب ١٩٤٢



حطـــــم ثقـــــافته

فكـــري أنـــدراوس



هاواي ينـاير ١٩٤٨

غرناطـــــة أمريكيـــــة!

"قــابــيـــل.. قــابــيـــل.. مــاذا فــعــلــت بــأخــيــك هــابــيـــل؟"

التوراة: سِفْر التكوين

■ هاواى.. ليست فقط ذلك المنتجع الساحر، ولكنها قصة أخرى (تكررت عبر التاريخ) لأقدم تراجيديا إنسانية «حين قتل قابيل أخاه هابيل» جغرافيا هى وِلاية أمريكية فى وسط المحيط الهادئ، ولكنها تختلف كثيراً عن باقى أمريكا. فهناك على الأقل عشر أقليات بينهم بعض العرب والمسلمين يعيشون فى وِفَاق ظاهر. تذكرنا هاواى الحَاليَة بغرناطة إسبانيا فى القرون الوسطى. لقد كانت غرناطة منارةَ أمل لعَالم يتحول بالاختلاط بين الشعوب واحتكاك أو امتزاج بين الحضارات.

فكما لكل عملةٍ وجهان

فلجُزُر هاواى قِصَّتَان

كان لجمَال وسِحر جُزُر هاواى وتاريخها سواء الحَقيقى أو الذى أوهمَنا به بَعضُ الكتاب الأوائل من المستشرقين(*) وبعض المبشرين الغربيين، أن ألهم كل ذلك مِئَات الكُتَّاب وصُنَّاع الأفلام فى الإيحاء بصورةٍ جميلة لتلك الجُزُر وتَغَاضِى الكَثير منهم عن النقاط السوداء فى ذلك التاريخ. فى هذا المقال سأتعرَّض لوجهى هاواى. وسأتعرَّض قليلاً للجالية العربية والإسلامية بتلك الجزر، ولتلك الفتاة الأمريكية الجميلة والتى كانت أغنى امرأةٍ فى العالم والتى عشقَت الفَن الإسلامى وعشقت هاواى فأنشأَت مُتحفاً إسلامياً فى هاواى يُعد أحد أجمل المتاحف الإسلامية فى بقعةٍ رائعة الجَمَال وعاشت فى ذلك المتحف، وبعد وفاتها عام ١٩٩٣ أوصت بتحويله لمُتحَف إسلامى ولدرَاسَة الفن الإسلامى وثقافة الشرق الأوسط.

[١]

جزر هاواى تعد حديثة فى تاريخ تكوينها الجيولوجى، فعمرها حوالى ٧٠ مليون سنة فقط وتكونت من براكين انبثقت من قلب الأرض فى وسط المحيط الهادئ، وما زال بها بعض أكبر البراكين النشطة فى العالم، وهى أحد أسباب السياحة لتلك الجزر، إضافةً إلى جبالها وجمال شواطئها وطبيعة مناخها المعتدل على مدار العام. من الصعب العثور على هاواى فى خريطة العالم؛ حيث إنها ليست أكثر من نقطة فى المحيط الهادئ. يعتقد علماء الأنثروبولوجى بناءً على دراسة فقه اللُّغَة التاريخى (philology) وبعض الأغانى القَديمة والتُراث الشفهى المتوارث

Emma, Queen of Sandwich Islands - Hawai'i (1836-1885) © Mathew Brady, Library of Congress



كان نتيجةُ انعزال جزر هاواى أن تكوَّنَ بها نظامٌ طَبَقِىٌّ يشابه ما كان سائدا فى العَالَم فى القرون الوسطى. كَانَت طَبَقَة الحُكَّام، فَطَبَقَة رِجَالُ الدين، ثم باقى الناس، فطبقة العبيد أو الطبقة المستعبدة. كان من الصعب أن تتداخل الطبقات، فمن وُلِد فى طبقةٍ مَا ظل بها حتى وَفاتِه



أن أهالى هاواى الأوائل جاءوا أصلاً من جَنوب شَرق آسيا لجُزُر تاهيتى، ومنها لجُزُر هاواى على بُعد آلاف الكيلومترات منذ حوالى القرن الرابع. جاءوا فى مَراكِب بسيطة وأصبحوا سكان هاواى الأصليين. ربما كان هؤلاء البَشَر أول من سافر مسافات طَويلَة على مَراكِب بسيطة لآلاف الكيلومترات، فلا بُد أنهم كانوا على دراية بالبحار وببعض عُلُوم الفلك والرياح واستخدامها فى الملاحة، لقد كانوا قادرين على التمييز بين أكثر من ٥٠ نوعاً من الرياح. استمرت خطوط الملاحة بين هاواى وتاهيتى، فأحضروا معهم بعضاً من نَبَاتَاتِهِم، ومن ضمنها نباتٌ شَديدُ الشَّبَه بـ «القلقاس» وأصبح مَادة الغذاء الرئيسية. أحضروا بذور بعض الأشجار، ومن ضمنها المانجو والجوافة ونخيل جوز الهند، وكذلك بعض الدواجن والحيوانات، وتمرَّسوا فى فن صيد الأسماك. لأسباب غير معروفة توقَّفَت الملاحَة بين جُزُر هاواى وتاهيتى مُنذُ القَرن الثالث عَشَر وأصبحَت تِلكَ الجُزُر معزولةً تماماً عن العالم، إلى أن اكتشفها بالمصادفة جيمس كوك المستكشف الانجليزى عام ١٧٧٨.

كان نتيجةُ انعزال جزر هاواى أن تكوَّنَ بها نظامٌ طَبَقِىٌّ يشابه ما كان سائداً فى العَالَم فى القرون الوسطى. كانَت طَبَقَة الحُكَّام، فَطَبَقَة رِجَالُ الدين، ثم باقى الناس، فطبقة العبيد أو الطبقة المستعبدة. كان من الصعب أن تتداخل الطبقات، فمن وُلِدَ فى طبقة مَا ظل بها حتى وَفاته. كانَ الشُيوخ أو السَادة يهتمون بالبيئة الهَشَة للجزيرة فاحترموا الطبيعة، واستخدموها دون الإضرار بها. كان يُمنع صيد الأسماك فى بعض الأماكن حتى لا تستنفد مصادره، واتُّبِع نفس النظام فى الزراعة حتى لا تجهد الأراضى ويقل أو ينعدم الإنتاج.

اكتشفت أوروبا الصناعة، وبَنَت الأساطيل واستفحل نظامها الرأسمالى. اكتشفت أوروبا الأمريكتين، استراليا، نيوزيلندا وجزر هاواى، فصدَّرَت بعضاً من متاعبها (من قبيل الأقليات الدينية والفقراء، ونزلاء السجون أحيانا) للعالم الجديد، واستوردت ثروات طائلة، فزادت قوةً وجَشَعَاً. استعمرت أيضاً أفريقيا بأكملها تقريباً والشرق الأوسط ومناطق شاسعةً من آسيا، إمَّا عسكرياً أو أوقَعَتها تحت نفوذها اقتصادياً وعسكرياً، ومن ضمن ذلك الصين والهند وأندونيسيا واليابان. أما عن جزر هاواى- وكانت ثمانى جُزُر- فلم تتغير أحوالُها إلى أن اكتشفها جيمس كوك سنة ١٧٧٨ بالمُصادفة، فلم تكُن أكثر من نُقطة فى المحيط الهادئ الشاسع. كان انفتاح هاواى على العالم الغَربى يُمثِّل تياراً جارفاً، لم يكُن من الممكن لتلك الحضارة البسيطة أن تَقِف أمامه. اكتَشَفَ حُكَّام هاواى أن للغربيين أسلحةً من سيوف وبنادق ومدافع، فاستغلوا ذلك لمزيد من السيطرة على الأهالى. لم يكُونُوا على معرفة بالمعادن وكان مجرد مسمار من الحديد يمثل عملاً إعجازياً بالنِّسبة للأهالى، وقِس على ذلك الكثير. كان لا بد للثقافة الغربية الهادرة أن تكتَسِح تلك الحضارة الزراعية البسيطة بمدافع النظام الرأسمالى كما سبق لها أن اكتسحت حضارات الأمريكتين قبل اكتساحها هاواى.

أصبحت هاواى محطة تمويل بالماء والغذاء لصيادى الحيتان والسفن المُسافرة إلى الصين واليابان للتجارة. أصبحت هناك تجارة فى صورة مُقايَضَات، فالجُزُر لم تعرف المَال ولا التجارة من قبل. كان من نتيجة ذلك أن عَرِفَ أهل هاواى معنى الملكية الفردية، وبدأت طبقة الحُكَّام تَستَغِلُّ الأهالى للحصول على مايريدون من سفن الغرب، وما يحملون من سلع غربية مقابل تموينهم بالماء والغذاء أولاً، وامتد ذلك لبعض منتجات الجزيرة من أخشاب. ففى فترة بسيطة سَخَّرَ الحُكَّام الأهالى فى قَطْع ونَقل أخشاب شجر الصندل ذى الرائحة الذكية والمستخدم فى البخور فى المعابد فى أماكنَ عَديدة من العالم القديم. ازداد الطلب على أشجار الصندل من هاواى لتصديره للصين، مما أدى إلى اختفاء أشجار الصندل من الجزيرة اختفاءً يكادُ يكون تاماً نتيجة الطبيعة الهشة لأراضيها. ثم تنبه بعضُ الغربيين لصلاحية هاواى لزراعة القصب من أجل صناعة السكر. قيل للأهالى وللحكام إن ذلك سيدخل لهم العملة «الصعبة» ليشتروا ما يريدون من المنتجات الغربية التى لم يكونوا فى احتياج لها من قبل ومن ضمنها الخمور (لاحظ أن ذلك كان قبل البنك الدولى و«مشتقاته» بقرابة قرنين من الزمان) باختصار دخلت هاواى فى الفَلَك الاقتصادى للدول الغربية.

مع دخول الغرب لهاواى دَخَلَت بعضُ الأمراض مثل الحصبة والجُدَرى والأمراض الجنسية ولم يكن للأهالى مناعة طبيعية لتلك الأمراض ففتكت بالعديد من الأهالى. كانت تلك الأمراض - والتى لم تؤثر على سكان العالم القديم- أحد الأسباب التى فتكت بالسكان الأصليين للعالم الجديد سواء فى الأمريكتين أو استراليا أو نيوزيلندا أو جزر هاواى.



استخدم صيادو الحيتان هاواى كمحطة للراحة والتموين والمتعة الجنسية مع الأهالى. ثم جاء المبشرون بالمسيحية بدايةً من سَنَة (١٨٢٠) من أمريكا نتيجة صلاتهم الوثيقة بصيادى الحيتان، والتى كانت متمركزةً فى شَمَال شَرق أمريكا مركز نشاط المبشِّرين وصيَّادى الحيتان. تبع المبشرون الأمريكان مبشرون أوروبيون وكانوا أساساً مُتشابهين. كان الكثير من الدمار الذى أصاب هاواى من وراء هؤلاء المبشرين، فرغم حُسن نَوايا البعض، إلا أن البعض- إنْ لَم يكُن الكثير منهم- عنصريون، والتحموا بباقى الأوروبيين الذين بدأوا إنشاء مزارع قصب السكر وتصنيعه. لقد نسى هؤلاء المبشرون أن المسيحية- كما فى الأديان السَمَاويَّة الأخرى- قد أوصت الإنسان بأخيه الإنسان، إلا أن ذلك قد نسيهُ أو تناساه الكثيرون. لقد ترك البعض من المبشرين مهمتهم الأساسيَّة كُليَّةً واتجهوا إلى التجارة وامتلاك الأراضى. كان خطر المبشرين الأكبر هو نجاحهم فى السيطرة على الطَبَقَة الحَاكِمَة، وأصبحوا مستشاريهم والمُتحكِّمين فيهم ولم يستطع هؤلاء المبشرون أن يروا أىَّ شىء جيد فى تلك الثقافة البسيطة غير المادية والمحبة للآخر بالفطرة. إن كلمة ألوها (Aloha) والمُستَخدَمَة كثيراً فى التراث الشعبى، وللآن، جزءٌ من مُعتقَد الأهالى الدينى وتعنى «أهلاً وسَهلاً»، و«وداعاً»، وتعنى أيضاً «الحب» عَامةً والحُبُ للفَرد أيضاً. ثقافة وإن كانت قد ميَّزَت بين الرجل والمرأة إلا أنهُ كان تمييزاً مُختَلِفاً عما كان سائداً فى الغرب- بل وفى باقى العالم القديم. فمثلاً كانت الأسماء لا تُفرِّق بين الذكر والأنثى، وكان من حق الأنثى فى الأسرة الحاكمة أن ترثَ الحُكم وأن تصبح ملكةً تحكُم بالفعل.

إن دخول المبشرين الغربيين عادةً ما كان يتبعهُ احتلالٌ عَسكَرِىٌّ، حدث ذَلِكَ فى بَعض البلاد العربية ومن ضمنها مصر والشام وكذلك الهند والصين واليابان وبعض الدول الإفريقية. ولم يكونوا فى هاواى يختلفون عن ذلك. إن العلاقة بين رجال الدين والنظام الحاكم غالباً ما تَكون قويةً. بدأ المبشرون فى هاواى بإقناع الحُكَّام بضرورة وجود حيازات ملكية للأراضى، ولم تكن موجودةً من قبل فامتلك الحكام والمبشرون أفضل الأراضى وتجلى ذلك أكثر فى أجيال أولاد المبشرين وأحفادهم، وملكوا الأبعديات للزراعة والصناعة. امتلك الأجانب فى فترة بسيطة حوالى ٨٠٪ من الأراضى الصالحة للزراعة. أنشأ المبشرون المدارس، وكانت نوعين: أحدهما للتعليم الخاص، ويشمل أبناء الأجانب والطَبَقَة الحاكمة والآخر تعليمٌ عامٌ لبقية الناس. كان من الطبيعى نتيجة ذلك أن ينال أبناء الأجانب الوظائف الكبرى والقياديَّة وأن يَتَحكَّموا فى البلاد. وإن كان من مزايا بعض المبشرين أنهُم كَتَبُوا لُغَة الأهالى بالحروف الإنجليزية فحفظ ذلك البعض من ثَقَافَة الأهالى وتُراثهم وحتى الآن، بالإضافة إلى تعليم الأهالى القراءة والكتابة. الكثير من أسماء الشوارع والأماكن احتفظت بالأسماء القديمة للأهالى. باختصار أصبح المُبشِّرون جزءاً من أداة استعمارية.

«إن أردتَ أن تُحطِّمَ شعباً حطم ثَقَافَتَه». تحطيم أو استبدال الدين، بالإضافة لسيادة اللغة الإنجليزية، بل وتحريم تدريس لغة الأهالى اعتباراً من سَنَة ١٨٩٣، تغلغل الحضارة الغربية فى المأكل والمشرب، ثم إزاحة الملكة ليليوكالانى (Liliuokalani) وإنهاء حكومتها، فكانت آخر ملكة من الأسرة الحاكمة وكانت مُتعلمةً ومحبوبةً من الأهالى، ساهمت كل تلك العوامل فى انهزام وتَحطيم الإنسان وحضارته أمام هذا الزحف الكاسح. لم تكن تلك سياسة الماضى فقط بل موجودة وتمارس للآن فى



إن دخول المبشرين الغربيين عادةً ما كان يتبعهُ احتلالٌ عَسكَرِىٌّ، حدث ذَلِكَ فى بَعض البلاد العربية ومن ضمنها مصر والشام وكذلك الهند والصين واليابان وبعض الدول الإفريقية



عالمنا المعاصر أحياناً بقصد وبدون قصد أحياناً. فيجد البعض فى دول العالم النامى- ومن ضمنها منطقتنا العربية- صعوبةً فيما يجب أن يستقطع من الحضارة الغربية المتقدمة وما يجب أن يَرفض وخصوصاً فى زمن العولمة. يعتقد جلال أمين أن أكثر ما فقدناه من علاقتنا مع الغرب فى القرنين الماضيين أو ما يُسمَّى بالتَّغريب ما هو فى حقيقة الأمر إلا « اغتراب حضارى وثقافى»[٨]. لذلك يجد بعض المثقفين عِندَنا (ليس من ضمنهم جلال أمين (أن الحل للمحافظة على ثقافتنا هو التمسك بصور سلفية من الإسلام.

فى هاواى دُمِّرَت ثَقَافَةُ الإنسان، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الأهالى يختفون من سطح الأرض. وقد عبَّرَ عن ذلك أحد الأهالى فقال: « لقد صرفَ الناسُ أرواحَهُم وقرروا الموت» (مرجع ١ ص ١٠) فى الرُبع الأول من القرن العشرين كانت نِسبَة الوَفيَّات بين أطفال الأهالى أكثر من خمسة أضعاف المُعدَّل العالمى فى ذلك الوقت. قُدِّر عدد الأهالى فى هاواى عندما اكتشفها كوك سنة ١٧٧٨ بحوالى ثلاثمائة ألف، إلا أن الاعتقاد السائد الآن أنَّ عَدَد الأهالى كان حوالى مليون نَسَمَة. تناقص العدد سنة ١٩٣٠ إلى ما يقارب ستين ألفاً فَقَط (المَرجِع السابِق). هذا الرقم ليس ذا قيمة الآن إلا من الناحية التاريخية؛ فمن بقى من الأهالى اختَلَط مع المستعمر الأبيض بالزواج، وحدث نفس الشىء مع كل من استوطن الجزيرة فيما بعد، وهم كثيرون وسنتحدث عن ذلك. تعداد الأهالى الذين لم يختلطوا مع الأجانب بالزواج أقل من الألف وهم فى طريقهم إلى الاختفاء بالذوبان فى باقى الثقافات. نعم كانت هناك مُقَاوِمَة لهذا التدخل ثم الاستعمار ولكنها لم تكن متكافئة وسنرى ذَلِك.

كان من نتيجة تغلغل الأوروبيين أن أصبَحَت هاواى مملكةً ولها دستور وبرلمان يشابه النظام الإنجليزى من حيث المظهر فقط. زاد تعداد الأوروبيين، وزاد نفوذهم، واستجابت الحكومة لكثيرٍ من مَطَالِب الأوروبيين ولكن عندما أصبَحَت القُوَّة الحَقيقية فى أيدى الأوروبيين بدأت المَملَكَة تُحاوِل الحَد من ذلك النفوذ. فى ذلك الوقت فَرَضَت الحكومة الأمريكية ضَرَائِبَ على السُكَّر المُستورَد من هاواى بعد أن كانت مُلغاةً. ظهرت كوبا كمصدرٍ آخر لصناعة السكر، أو كَمَزرَعة أمريكيَّة لصِناعَة السكر، فَكَانَت هُناك مُنافَسَة. كانت النتيجة أن رِجَال الأعمَال «أولاد وأحفَاد المُبشِّرين- هكذا سموا أنفسهم» رأوا أن الحل يكمن فى أن تصبح هاواى مُستَعمَرَةً أمريكيّة، بذَلِك تُلغى الضَرَائب على السُكر والذى أصبَحَ شريان الحياة لهاواى. رَتَّب رجال الأعمال انقلاباً ضِد المَملَكة، وأعلنت جمهورية سنة ١٨٩٤، وأُعلِنَ دُستورٌ جَديد يعطى الأوروبيين مزيداً من القُوةِ وعملياً حَرَمَ الأهالى من الاشتراك فى الانتخابات. ويكاد الدستور الجديد لا يَعتَرِف بِوجود أجانِبَ سِوى الأوروبيين، على رُغمِ وُجُود الكَثير من الآسيويين، ويشابِه هذا ما فَعَلَتْهُ حُكُومَة جنوب إفريقيا البيضاء. ترددَت الحكومة الأمريكية أن تصبح هاواى مستعمرة، وأرسَلَت لَجنَةً لتقصّى الحقائق وقرّرَت إعادة النِظام الملكى كما كان وأُدينَ الانقلاب. ولكنَّ أولاد المبشرين أو رجال الأعمال الجُدُد رَفَضُوا ذلك، وتتوالى الحَوَادِث سريعاً، ففِى عَام ١٨٩٨ قَرَّرَت الحُكُومة الأمريكية أن تعكِس رَأيها وتضم هاواى لمتلكاتها نتيجة ما سُمِّىَ بالحرب الأمريكية الإسبانية. قررت الحكومة الأمريكية أن تَتَجِه غَرْباً وأن تزيح إسبانيا من كُلٍّ من كوبا وبورتوريكو وجزر الفلبين وتحل محلها. استغرقت تلك الحرب أربعة أشهر فقط، وأدت إلى إزاحة إسبانيا من نادى الكبار وبداية انحِدارها. لكل ذلك كان ضم هاواى لمتلكات أمريكا أمراً حيوياً. اتَضَح الوجه الاستعمارى الحقيقى لأمريكا وبدأ نُفوذُها يَتّسِع وحَلّت مَحَل الاستعمار القديم بوجه جديد وبعبارات رنانة من قبيل «حق تقرير المصير» و«الديمقراطية» و«حقوق الإنسان» وما إلى ذلك. وإن كانت تلك العِبارات الجذابة والمهمة خالية تماماً من الإرادة الفِعليّة للسياسة الأمريكية، بل كانت السياسة الأمريكية أحياناً تفعل عَكسَ ذلك تماماً.

[٢]

يجعلنا بعضُ الكُتّاب الغَربيّين القدامى نَعتَقِد أن استسلام أهالى هاواى كان بدون مقاومة، ولكن ذلك إمّا عن جهل بالتاريخ أو تزييفه. بَعضُ البَاحِثين الجُدُد من أمثال «Noenoe K. Silva» وآخرين وجدوا وثائِق كثيرةً تدل على مُقاومَة الأهالى لضَمِ بلدهم لأمريكا. قد يكون أهم تلك الوثائق عرائِض من ٥٥٦ صَفحَة مُوقَّعَة من الأهالى لمعارضة ضم بلادهم لأمريكا. أطلق على حركة اسم مقاومة الاحتلال والتدخل اسم حب الارض (aloha aina) عارضت الملكةَ وأيّدها الأهالى فى أن تصبح هاواى مُستعمَرَةً أمريكية ورَفَع الأهالى قَضايا أمام المَحكَمة الدستورية العليا بأمريكا، وكذلك محكمة العدل الدولية، ولكن بدون جدوى. كانت هناك صور أخرى لمُقَاوَمَة شعبية سلميّة. أخيراً فى عام ١٩٥٩ أصبَحَت هاواى الولاية الأمريكية رقم ٥٠.

ازداد عدد الأجانب الأوروبيين الذين استوطنوا هاواى منذ أواخِر القَرن السابِع عَشَر، انهَزَمت الثقافة الأهلية، ولكن لم يكن انهزاماً تاماً، فقد بقىَ تُراثٌ من ذَلِك، تراهُ فى بَعض الصور الثقافية من كلمات وأسماء كَثيرَة، وكَذَلِك فى بَعض المَدَارِس والجَامِعَات، تَراهُ فى بَعضِ المَراجِع المَرصودة فى هذا المقال وإن كَانت هُناك مَراجِع أخرى ودوريات كثيرة. كل ذلك يُذكِّرنَا بمَا فَعَلَ الإنسانُ بأخيهِ الإنسان. لم يكُن ذَلِكَ بجَديد فى تاريخ الإنسانية، ولكن الجديد كان مدى سيطرة الغرب - القليل العدد نسبياً- على مقادير وثروات بقية العالَم وغالباً للآن.

[٣]

المستعمر لم يُغيِّر الثَقَافَةَ بالمدافع والعساكر فقط، بل غيَّرَهَا بالفِكرِ أيضاً، وكان إدوارد سَعيد أحد رُواد تلك المدرسة[*] وصَفَ بعض الغربيين- ومن ضمنهم المبشرون بالمسيحية- الأهالى «بالمتوحشين» والذين كان على الرَجُل الأبيض عبء تحديثهم وتمدينهم، وإدخالهم إلى حظيرة العالم المسيحى ولو بالقوة. وقد نَجَحُوا فى ذلك، فأعطوهم الإنجيل وسلبوا ثرواتهم، كما حَدَثَ فى مناطق أخرى. جيمس كوك، الذى اكتشف الجزر بالمصادفة، قتلهُ الأهالى، فاتُهِم الأهالى بالوحشية، ولم يذكر الكثير من الكُتّاب القُدامى أن كوك كان قد قتل أحد الأهالى قبل أن يُقتَل وكان ذلك سبب قتله، وأن بَحَّارَته بعد قتلهِ بيومٍ واحِد قد انتقموا بقتل العديد من الأهالى بدون تمييز بين كبيرٍ وصغير. لقد كانت مذكرات كوك والتى نشرت سنة ١٧٨٤، والتى لقيت انتشاراً واسعاً فى أوروبا وأمريكا بها الكثير من المغالطات والكذب الذى كشفه بعض المؤرخين الجدد من أمثال : «Wood, Okamura, and Silva». لقد أشيعَ مَثَلاً أن الأهالِى قد قَتَلوا كوك وأكلوا لَحمَهُ، كما أُشيع عن بعض القادة الأفارقة، وجاء تعبير «آكلى لحوم البشر». يعتبر كوك أهم مُستكشِف فى عصره فقد اكتَشَفَ للغرب استراليا، وأجزاء من نيوزيلندا وجُزُرا أخرى وسُميَت باسمِهِ بعضُ البلدان والمناطق والجبال.

تناقَصَ عددُ الأهالى كثيراً، واحتَاجَت مَزَارِع القَصَب والتى أُنشِئَت فى النّصف الثانى من القرن الثامن عشر لكثيرٍ من العُمَّال، فاتَّجَه أصحابُ الأراضى الجُدُد من الغربيين إلى استيراد عُمالٍ من الخارج. كانت تجارةُ العَبيد من إفريقيا قد أُوقِفت بحُكمِ القَانون فى أمريكا فى مُنتصَفِ القَرنِ السّابِع عَشَر، وإن كَانَت قد استَمَرَّت بصُورةٍ غَير قَانونيّة بعد ذلك، إلا أنها أُوقِفَت تماماً خلال الحرب الأهليّة الأمريكية سنة١٨٦١-١٨٦٥. كان لا بُد من إيجاد وسيلةٍ أُخرَى لاستيراد العِمَالة. كانت الوسيلة الأخرى هى استجلاب عُمَّال «التراحيل» من بعض الدول الآسيوية الفقيرة، كانت مُدَّة العقد ثلاث سنوات بأجر قدره ثلاثة دولارات بالشهر، بالإضافةِ إلى مكان للسكن. كانت تلك الظروف لا تختلف كثيراً عَمَّا كَان يُمنَح للعبيدِ السُودِ بأمريكَا إلا فى وجود عقدٍ بانتهاء العبودية بعد ثلاث سنوات. كانت الغالبية العظمى من عُمَّال التراحيل آسيويين من الصين واليابان والفلبين وكوريا وغيرها. كان لذلك تأثيرٌ جيدٌ على الأمد الطَويل حيثُ إن بَعض عُمَّال التَرَاحِيل قد عادوا إلى بِلادِهم، إلا أن الكَثيرَ مِنهُم قد استَقَرُّوا نهائياً فى هاواى وأصبحوا جزءاً مُهماً فى الموزاييك البَشَرِى الذى نَرَاهُ فى تِلكَ الجُزُر. فكما كان لهجرة الأوروبيين لأمريكا أن لُوِّنت ولايات أمريكا الشَمَاليّة بِلونٍ أوروبى، أو كَمَا لُوِّنَت تكساس وكاليفورنيا بطابع مكسيكى إسبانى، فقد وسمَ الآسيويون جُزُر هاواى بطابِع آسيوى، وأعطوها طابعاً خاصاً لهُ مُميِّزات إنسانيّة تَفتقدُها أمريكا أحياناً.

فى بدايةِ الأمر كَانَ أغلبُ المُهاجِرين لهاواى أوروبيين، ومع الحاجة للعِمَالة جاء الآسيويون، وبمرور الوقت تزاوج الأهالى مع البيض والآسيويين وغيرهم فأصبَحَت نِسبَةُ البِيض حسب إحصاءات سنة ٢٠٠٠، ٢٤٪، اليابانيين ١٧٪، الفلبينيين ١٤٪، الصينيين ٧٪، الكوريين ٥٪ (مرجع ٥ ص ٢٣).

إذا نظرنا إلى المَنَاصِب الإدارية والدَخل العام سنجد أن اليابانيين والكوريين والبيض والصينيين يكادون يكونون متقاربين، بينما الأهالى الأصليون والفلبينيون والسود يأتون فى المَرتَبَةِ التَالِية (مرجع ٥ ص ٤٤ و ص ٥١). إذا نظرنا لدخل العائلة نجد أن العَائِلة اليَابَانية فالصينية دخلهما أكبر قليلاً مِن دَخلِ العَائِلة للبيض وإن كانَ الفَرقُ بينَ دَخلِ كُل الطوائِف يتراوح ما بين ٦٩ ألف دُولار فى العام إلى ٤٢ ألف دولار فى العام؛

كانت الغالبية العظمى من عُمَّال التراحيل آسيويين من الصين واليابان والفلبين وكوريا وغيرها. كان لذلك تأثيرٌ جيدٌ على الأمد الطويل حيثُ عاد بعضهم إلى بلادهم، بينما استقر الكثيرَ منهُم نهائياً فى هاواى وأصبحوا جزءاً مُهماً فى الموزاييك البشَرِى فيها

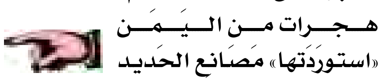


وهى نسبة متقاربة جداً إذا ما قُورنَت بباقى الولايات المتحدة الأمريكية، بل وبباقى العالم. أصبحَ من المُستحيل فى المناخ السياسى الحالى أن تَستأثر إحدى الطوائف بالقيادة السياسية أو الاقتصادية أو بالمَناصب المُهمَّة، فأصبحَت كُل طائفة تعملُ حسابَ الطوائف الأخرى بالإضافةِ للنسبةِ العالية للتزاوج بين الطوائف المختلفة. لقد أصبح محافظ هاواى وممثلوها فى الكونجرس الأمريكى يمثلون ذلك الخليط البشرى بدون تمييز من أصول يابانية، فليبينية، صينية، بيضاء، أو من الأهالى. كل ذلك أدى إلى أن تُصبح هاواى مُوزاييك بشرياً فريداً ولكن ليسَ بدون بعض المشاكل والتى منها أن الأهالى الأصليين نصيبهُم من دَخلِ بلادهِم وفى التعليم ما زال فى ذيل القَائمة وإن كانت الفروق كما سبق أن أشرتُ ليست شاسعة كما فى باقى الولايات الأمريكية. على رغم كل الإيجابيات المذكورة عن هاواى المُعاصِرَة، إلا أن السكان الأصليين يشعرون بالإحباط- ولهم الحق - أنهم فى ذيل المُجتمع اقتصادياً وثقافياً وفى التعليم أيضاً. بدأت تظهر بعض الجرائم وإن كانت ما زالت قليلة العدد- بل فردية- إلا أنها مُؤشرٌ يَحتاجُ إلى الاهتمام. ولكن مع كل ذلك إذا نظرنا إلى هاواى ككل، فهى تعد نموذجاً طيباً للتعايُش السلمى لمجموعات مُختلفة كثيراً. هناك وعىٌ عامٌ فى المُحافَظة عَلى حالَة التَوافُق والانسجام الموجودة فى هاواى. فى جامعة هاواى يوجد قسمٌ يهتَمُ بدراسة العلاقات الاثنية بين المجموعات المختلفة Ethics Department ويرأس هذا القسم «إبراهيم عودة» العربى، وله العديد من الأبحاث والكتب.

إحدى مُميِّزَات هاواى المُعاصِرَة اهتمامها بالبيئة الهشة للجزيرة، وهو ما اهتَمَّ بهِ السُكّان الأصليون، ولكن تدهورت الأحوال عندما سيطر المستعمر وحولها إلى مزرعة للأناناس وقصب السكر وتصنيعه، وأُهملت احتياجات الطعام، الذى أصبحَ يُستورَد أغلبُه من الخارج. بعد ذلك توقفت صناعة السكر أو كادَت واهتَمَ حُكَّامُ الجَزيرة بالسياحة. الآن تُحاول هاواى أن تُعيد بَعضَ التَوازن بزراعة بعض الخضروات والفواكه بدون استخدام مبيدات مُصنَّعَة كيميائياً وتهتم أيضاً بالزراعة «الهيدروبونية» وهى الزراعة فى قليل من الماء. هَذا النوع من الزراعة راده الرُوس فى ستينيات القرن الماضى وزاد بهِ مَحصول الطماطم مثلاً خمسة أضعاف، ويصبح أيضاً الاحتياج إلى الماء قليلاً. هذا النوع من الزراعة يُناسبُ مِصر وبعض الدول العربية ذات الكثافة السكانية العالية والتى تعانى من قلة المياه. هاواى استخدمت المبادئ القديمة بأساليب تكنولوجية جديدة. كل ذلك أصبح معروفاً ومتاحاً ويَحتاجُ إلى تكنولوجيا بسيطة.

[٤]

بدأ العربُ هجرات فَردية للولايات المتحدة منذ القرن السابع عشر، وكان أغلبها من منطقة الشام. كانت هناك هجرات من اليَمَن «استوردَتها» مَصَانع الحَديد



اهتمت دوريس بالفن عموماً وخصوصاً الإسلامى منه منذ طفولتها، حيث اعتادت العائلة زيارة متاحف لندن وباريس بالإضافة إلى مُتحف المتربوليتان بنيويورك، الذى افتتح مجموعته الإسلامية سنة ١٩٣٢ وكانت العائلة تسكن بالقرب من المتربوليتان



لصناعة السيّارات؛ حيث قيل لصانعى السيارات إن اليمنيين يتحملون درجات الحرارة العالية، وما زالت هناك جالية يمنية وعربية كبيرة فى ولاية ميتشيجان، مركز صناعة السيارات. لم تبدأ هجرات عددية كبيرة من الدول العربية إلا فى منتصف القرن الماضى، وبعد أن تغيّرت قوانين الهجرة الأمريكية للسماح بذلك، لأنها قبل ذلك كانت تُفضّل الأوروبيين. ساعد على ذلك أيضاً زيادة مطردة فى عدد السكان، مما أثر على الدخل الفردى بالإضافة إلى بعض القوانين الاشتراكية، والتى أثرت على بعض الأغنياء، وكان هؤلاء أول من هاجر.

تعداد العرب الأمريكيين حوالى ٤ ملايين، وتجد أغلبهم مركّزين فى الولايات الكبيرة مثل نيويورك، كاليفورنيا، فلوريدا، ميتشيجان، وتكساس. وإن كنت تجدهم فى كل الولايات، ولكن بأعداد قليلة نسبياً. أما جزر هاواى فعدد العرب فيها قليل، وإن كان أغلبهم قد هاجروا إليها من الولايات الأمريكية الأخرى، البعض منهم أساتذة فى الجامعات وأصحاب أعمال ناجحة وإن كان البعض مجندين فى الجيش والبحرية الأمريكية لوجود قواعد عسكرية كبيرة أهمها «بيرل هاربر» والتى دمرها اليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية. تجد فى هاواى جامعاً ومركزاً اسلامياً واحداً وكنيسة قبطية واحدة، يمثلان مركز تجمع العرب والمسلمين. فى العام الماضى تقرر أن يُحتفل بيوم إسلامى فى الولاية، وصوت لصالح القرار ٢٢ ممثلاً، ولم يُصوّت ضد القرار إلا ثلاثة أصوات فقط. وكانت حيثيات القرار مبنية على مساهمة المسلمين فى الحضارة الإنسانية، وأن هاواى لا تُميّز بين الأقليات الدينية أو الاثنية.

تعداد المُسلمين بهاواى حوالى ٣٠٠٠، ما يجمعهم هو الإسلام، وما يُفرّقهم هو ما يفرق المجتمعات الإسلامية والمجتمعات المسيحية عامة؛ فثقافة المسيحيين فى السويد خلاف ثقافة المسيحيين فى بوليفيا مثلاً. تجد فى المركز الإسلامى بهاواى مسلمين أصولهم من كل أركان المعمورة. فى مناخ هاواى المُتسامح نَتوقّع أن يستطيع المسلمون أن يحلوا ما بينهم من خلافات ثقافية قد لا تمت للإسلام بصلة حقيقية، بل قد تكون من قبيل بعض العادات التى اكتسبت مظهراً إسلامياً فقط. ولكنك تجد مثلاً بعض المُحافظين الذين يرفضون تغيير ما اعتادوا عليه فى موطنهم الأصلى بل قد يصبحون أكثر تزمّتاً اعتقاداً منهم بالمحافظة على هويتهم، بينما آخرون أكثر تحرّراً ويريدون أن يندمجوا فى البلاد التى يعيشون فيها مع المحافظة على دياناتهم وعلى ثقافة إسلامية مُستنيرة. فمثلاً تجد خلافاً حول الحجاب وخلافاً فى بعض المفاهيم الإسلامية الأخرى والتى قد تكون فى حقيقتها ثقافية، اعتقد البعض أنها إسلامية. يهتمُ البعضُ بالطقس وبالشكل الخارجى (للنساء فقط) على حساب الجوهر، ليميزوا أنفسهم عن الآخرين، وهذه مشكلة تعانى منها الأقليات الإسلامية فى المهجر. ثقافة الإسلام تختلف من بلد لآخر، بل وتختلف فى البلد الواحد. لقد أعطى نجيب محفوظ أمثلة عديدة من ذلك فى قصته الشيقة «رحلات ابن فطومة». فمثلاً الصينيون المسلمون فى شمال غرب الصين لهم أصولٌ تُركيّة إيرانية بوذية صينية (يسمون Uigur وتنطق ويجر) فنساؤهم ورجالهم يرقصون معاً ومع ذلك يختلفون عن أغلب مسلمى الغرب، بينما مثلاً بعض النساء فى منطقتنا العربية عبارة عن خيام سوداء متحركة.

إن هذا الاختلاف إثراء للثقافة، وليس إضعافاً لها، ومثالُ ذلك ما يحدث فى هاواى. تعتقد منى درويش- وهى باحثة كانت تعيش فى هاواى (مرجع رقم ٧) أن على بعض المسلمين أن يكفّوا عن فرض اعتقاداتهم على الآخرين من المسلمين، وأن يحترموا بعضهم بعضاً قبل أن يطلبوا من الآخرين أن يحترموهم. ونفس الشىء ينطبق على مجتمعاتنا العربية والإسلامية. هاواى ولاية بها الكثير من التسامح واحترام الآخر، تعتقد منى درويش أنّنا يجب أن نتعلم منهم، وأن الإسلام يحتمل تفسيرات عديدة ترتبط بثقافة المكان ويجب علينا احترام تفسير الآخرين حتى يحترموا هم تفسيراتنا.

[٥]

الجزء الأخير من هذا المقال يخص امرأةً أمريكيةً ثرية، فى شبابها عشقت الفن الإسلامى وعشقت هاواى وبنت منزلها فوق ربوة تُطلّ على المحيط الهادئ كمتحف إسلامى على مساحة قدرها خمسة هكتارات. هذا المنزل خلّد ذكراها أكثر بكثير من الملايين التى ورثتها أو التى تركتها بعد وفاتها سنة ١٩٩٣. سُمّىَ ذلك المنزل المتحف شانجريلا «Shangri La». الاسم مقتبس من مكان فى رواية جيمس هيلتون (الأفق المفقود) «Lost Horizon» والتى كانت مقررة على طلبة المرحلة الثانوية فى مصر فى أواخر الخمسينيات. والاسم فى تلك الرواية يشير إلى منطقة خيالية فى رواية هيلتون بعيدة عن العمران فى مكان غير مطروق يعيش فيه بعض الرهبان البوذيين لأعمار خيالية.. حياة سعيدة بعيدة عن التعصب، إنها الجنّة الخفيّة. هذا ما تمنته دوريس ديوك لمنزلها أو لمتحفها. وإن كانت دوريس نفسها لم تحقق الخلود؛ فالمتحف الذى تركته لنا حقق لها ذلك.

وُلدت دوريس ديوك لثروة خيالية، فكان جدها ثم والدها أكبر زارعى وتجار الدخان، بالإضافة إلى أعمال أخرى. اهتمت العائلة بكثير من المشروعات الخيرية والتى قد يكون أهمها إعطاء ٤٠ مليون دولار لجامعة «ترينيتى» سنة ١٩٢٤، ويُعدّ ذلك المبلغ ثروةً خُرافيّة فى ذلك الزمان. تغير اسم الجامعة بعد ذلك لتصبح «جامعة ديوك» والتى أصبحت واحدة من أهم جامعات أمريكا. كانت دوريس الطفلة والوريثة الوحيدة لتلك الأسرة. والدها جيمس بيوكانون ديوك توفى سنة ١٩٢٥ وابنته لم تتجاوز الثانية عشرة. ترك لها ثروةً جعلتها أثرى امرأة «فى الحقيقة أثرى طفلة» فى العالم. أصبحت مصدر اهتمام الصحافة والإعلام، ولكنها عاشت حياتها بعيداً عن الأضواء.

اهتمت دوريس بالفن عموماً وخصوصاً الإسلامى منه منذ طفولتها، حيث اعتادت العائلة زيارة متاحف لندن وباريس بالإضافة إلى مُتحف المتربوليتان بنيويورك، الذى افتتح مجموعته الإسلامية سنة ١٩٣٢ وكانت العائلة تسكن بالقرب من المتربوليتان. منذ صغرها كانت تَزور مع والديها أثرياء نيويورك، فكانت ترى الغُرف أو الأركان الأندلسية، المغربية، الإيرانية، التركية، والهندية. ولا بد أن ذلك ترك انطباعاً لديها منذ الصغر. عندما كان عمر دوريس ٢٢ عاماً تزوجت من جيمى كروموبل وكان أكبر منها بستة عشر عاماً ويعمل بالسياسة. سافروا حول العالم فى شهر العسل، والذى استمرّ عشرة أشهر. خلال شهر العسل شاهدت الكثير من المناطق الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والهند حيث تبلور لديها حب الفن الإسلامى حين شاهدت تاج مَحل فى أجرا، وتعرضت للفن الإسلامى الهندى. انتهت رحلة شهر العسل فى

نيكسون فى هاواى (أغسطس ١٩٦٠) © Hank Walker



غرناطـــــة أمريكيـــــة!

هاواى فوقعت فى غرامها وامتدت إجازتها فى هاواى، وفكّرت أن تبنىَ قصراً فيها.

تعرفت دوريس على آرثر أوبهام بوب، وكان خبيراً وعاشقاً للفَن الإيرانى الذى رتَّبَ لها رحلة لإيران عام ١٩٣٨ وبدأت تشترى التحف الإسلامية من الهند، إيران، تركيا، مصر، سوريا، إسبانيا والمغرب. لم تكن تشترى ما يروق لها فقط، بل كلفت بعض الصنَّاع المهرة بتصنيع ما يماثل التحف التى لم تستطع شراءها مثل بعض الحوائط والأسقف المزخرفة. اشترت الكثير من التحف من غُرف كاملَة، إلى أرضيات وأسقُف، إلى قطع فَنيَّة رَائعة من الأخشاب والمَعادن المُطعَّمَة، والزُّجَاج المُلَوَّن، إلى نوافير وأعمدَة وتماثيل وشبابيك وأبواب. صُنعَت خصيصاً لَهَا غرفة نومها وكذلك الحمام لتشبه زخرفة تاج محل الشهيرة والتى بناها الامبراطور شاه جيهان المغولى كمقبرةٍ لِزَوجته المحبوبة محل ممتاز والتى توفيت أثناء الوضع سنة ١٦٣١ بعد زواج دام تسعة عشر عاماً. تاج محل استغرق بناؤها ٢٢ عاماً وتكلفت حوالى ٤٠ مليون روبية، وهى إحدى مَفَاخر الفَن الإسلامى الذى يجمع بين عناصر هندية وتركية وإيرانية، وتُمَثِّل أجمل صور الفن والحب والوفاء. فلم يكُن غريباً أن تُعجَب دوريس بتاج محل، وأن تَرغب فى قطعة منها فى منزلها، فأُنشئت غرفة نومها وكذلك حمامها الذى صُنعَت أجزاؤه فى الهند خصيصاً لها، فكانت الأحجار الرخامية البيضاء مطعمةً بالأحجار الملونة الكريمة وشبه الكريمة مثل اللازورد والجيد والملاكيت. بالإضافة إلى النوافذ التى على هيئة ستائر مصنوعة من المصيص والتى تسمح فقط بنفاذ الضوء خلال فتحات صغيرة أو قطع من الزجاج الملون لتعطى النافذة أشكال بعض الزهور أو الأشكال الهندسية الإسلامية. وكما فعلت مع غرفة نومها والحمام اللذين صُنِعا فى الهند.. كانت الرباط فى المغرب تصنع لها سقف حجرة الجلوس من الخشب المُطعَّم. لم تكن التكاليف تمثل أى عقبة. احتوت شانجريلا على حوالى ٣٥٠٠ قطعة تمثل أرقى ألوان الفن الإسلامى. تتفوق هذه المجموعة على ما هو موجود فى متاحف نيويورك، وتُعد خامس وأهم متحف إسلامى بأمريكا (مرجع رقم ٩). بالإضافة إلى التُحَف الإسلامية، فقد جعل الموقعُ الخُرافِى والنَوافير وحمام السباحة ونخيل جوز الهند الرشيق..كل هذا جعل المكان كأنه الجنة.

كانت دوريس تشترى وتتخيل أين سيكون موضع ما تشتريه فى منزلها.

بجوار كل هذه التحف اشترت الأقمشة من أسواق الهند ومصر وإيران لعمل الستائر وأغطية الكتب والمَقَاعد لتناسب الفن الإسلامى، بالإضافة للسجاجيد الشرقية القديمة. استمرت دوريس فى جمع التحف الإسلامية لقرابة ستة عُقود. كانَت تُقَرِّر أينَ وكَيف توضع تلك التحف على رغم وجود العديد من المتخصصين فى الديكور. كانت القطع متناسقةً ومتسقةً مع بعضها بعضاً وكأنها أغنية أو سيمفونية رائعة.

قررت دوريس ديوك فى وصيتها أن يُفتَح مَنزلُها للعَامَّة والمهتمين بالفن والثقافة الإسلامية فأنشأت مؤسسةً للفنِّ الإسلامى وأوقفت على كل ذلك الكثير من المال، ومن الممكن أن تشاهد بعض صور هذا المتحف على الإنترنت على موقع www.shangrilahawaii.org. هذه قصةُ امرأة عشقت هاواى والفن والثقافة الإسلامية، وتركت للعالم مثالاً لما يمكن أن يقدمه الإنسان المقتدر. وليس بغريبٍ أن يحدُث ذَلِك فى هاواى بلد الجمال والتسامح. ■

المـــــــراجــــــع

(*) إن كلمة «الاستشراق» والتى استخدمها إدوارد سعيد كثيراً لتعرية طرق الغرب الاستعمارية وأُلِّف وأُلفَت عنها الكثير من الكتب، أصبحَت تُستَخدَم استخداماً عاماً للتدليل على ثقافة الغزو الفكرى الغربى ليس فى الشرق الأوسط فقط بل فى مناطق كثيرة دخلها الاستعمار الغربى. انظر مرجع ٢ ص ٢، ٥، ١٥، ١٦٥ وكذلك مرجع ٣ ص ٣.

(1) People And Culture of Hawaii. Edited by John. F. Mcdermott, Jr. Wen-Shing Tseng , and Thomas W. Maretzki. The University Press of Hawaii 1980.

(2) Aloha Betrayed , Noenoe K. Silva, Duke University Press , Durham & London . 2004

(3) Displacing Natives , Houston Wood, Rowman & Littlefield Publisher inc. 1999.

(4) Doris Duke‘s Shangri La, Doris Duke Foundation of Islamic Art , Honolulu Academy of Arts, 2008.

(5) Ethnicity and Inequality in Hawaii, Jonathan Y. Okamura, Temple University Press. 2008

(6) Documentary movie on the last queen of Hawaii produced by PBC , 1997

(7) Review 15/ Spring 2005 Mona Darwich-Gatto, ISIM

(٨) جلال أمين، العولمة، دار الشروق ٢٠٠٩، ص ٢٢٥.

(9) Doris Duke‘s Changri La, Hinilulu Academy of ART , Dris Duke Foundation of Islamic Art , 2002 page 35



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٣)

وبفعل تواطؤ الدولة المنتدبة مع الحركة الصهيونية، ودعم الولايات المتحدة لهما، صدر عن هذه الجمعية، وهى فى بداية عهدها، التوصية بتقسيم وطننا فلسطين فى ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧، وسط تحركات مريبة وضغوط شديدة، فقسمت ما لا يجوز لها ان تقسم، أرض الوطن الواحد. وحين رفضنا ذلك القرار، فلاننا مثل ام الطفل الحقيقية التى رفضت ان يقسم سليمان طفلها حين نازعتها عليه امرأة أخرى. ومع ذلك، فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من أرض فلسطين، وكأن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة إليهم، فشنوا حربًا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١٪ من مجموع مساحة فلسطين، وشردوا مليون عربى، مغتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية، دمروا منها ٣٨٥ مدينة وقرية تدميرًا كاملا محاها من الوجود – وحيث فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض وبين بساتيننا وحقولنا.

ومن هنا، يبدأ جذر المشكلة الفلسطينية. ان هذا يعنى ان أساس المشكلة ليس خلافًا دينيًا أو قوميًا بين دينين أو قوميتين، وليس نزاعًا على حدود بين دول متجاورة. انه قضية شعب اغتصب وطنه وشرد من أرضه لتعيش اغلبيته فى المنافى والخيام.

وقد استطاع هذا الكيان الصهيونى، وبدعم من دول الاستعمار والإمبريالية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، ان يتحايل على هيئة الأمم لقبوله فى عضويتها، ومن ثم على شطب قضية فلسطين من جدول اعمالها، وتضليل الرأى العام العالمى بتصوير المشكلة كمشكلة لاجئين بحاجة إلى عطف المحسنين أو إعادة توطينهم فى بلاد الآخرين.

كـــــــافـــــــكـــــــا

خيـــــــرى شـــــــلـبـى

[١]

■■ منذ أيام قليلة انتهيت من قراءة رواية يابانية جديدة لكاتب كبير لم أكن أعرف عنه شيئًا برغم متابعتى الدءوبة للأدب اليابانى المترجم إلى العربية، مع أنه كاتب معروف للعالم منذ وقت طويل مضى واسمه: «هاروكى مورا كامى». ترجمت أعماله إلى ٣٤ لغة، وحصل على العديد من الجوائز. أما الرواية فعنوانها: (كافكا على الشاطئ). وقد صدرت بالعربية مؤخرًا عن المركز الثقافى العربى (كلمة)، فى مجلد ضخم يضم نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير؛ ترجمة: «إيمان حرز الله» ومراجعة: «سامر أبو هواش»؛ وهى ترجمة تبدو دقيقة، ولغتها العربية ترقى إلى مستوى الأدب الرفيع؛ مثلما يرتقى النص اليابانى إلى مستوى الأدب العظيم، أى المحرض للإنسان على تغيير نفسه وتطهيرها. ذلك أدب يرج النفس رجا، فيتبعثر المحتوى النفسى للقارئ ليصبح مرئيًا له، وما كان مختبئًا فى الأركان المظلمة من عقد نفسية أو طبقية أو تربوية، ومن رواسب راسخة ناتجة عن قناعات ربما كانت عتيقة وبالية، وتثور فى الوجدان عواطف كانت مخبوءة أو معطلة، وتبزغ فى العقل أضواء على قضايا وآراء ومعتقدات قد تكون على كثير من الخطل أو عدم الفهم أو لعلها من الضلالات. حسب الرواية العظيمة أن تثير فيك ما تثيره من بعثرة تتيح لك الرؤية والمراجعة والفهم؛ تقلقك بالكشف عن الحقائق مهما عظمت بشاعتها، بتسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة، باقتحام حقول الأشواك واختراق التابوهات المحرمات بفعل بشر من أهالينا القدامى لا تزال تحكمنا بقدسية مجانية بل هى تمنعنا من فض مغاليق الأمور والنظر فى كل مخبوء حتى وإن كان قبيحًا؛ ففى فضح القبح تكريس للجمال وتحريض عليه، وفى التخلص من القمامة حماية للصحة من براكين تفريخ الجراثيم القاتلة فى نفوسنا.

كافكا على الشاطئ
تأليف: هاروكى مورا كامى
ترجمة: إيمان حرز الله
مراجعة: سامر أبو هواش
كلمة - المركز الثقافى العربى
٦٧٢ صفحة من القطع الكبير

رواية (كافكا على الشاطئ) تفعل شيئًا من هذا: تفضح جرائم الحضارة الغربية التى فُرضت على العالم منذ عصر النهضة الأوروبى إلى اليوم، حضارة الميكنة التى غزت العالم المتقدم ثم حاصرته أخيرًا بمنجزات التكنولوجيا الحديثة؛ وما فعلته بإنسان العصر الراهن. تقدم الرواية مأساة إنسان العصر فى واحدة من كبريات دول العالم الصناعى المتقدم: اليابان. إنسان العصر الذى قامت نهضته على قتل الأب. الإلحاد يعنى. نرى ملامحه الدرامية مكتملة فى هذا الصبى بطل الرواية البالغ من عمره خمسة عشر عاما. ثمة إشارات فنية بارعة مبثوثة فى تفاصيل السياق وحاشية الحوار تربط بين تراجيديا أوديب الأسطورة الشهيرة جدًا فى الميثولوجيا الإغريقية وفى الأدب العالمى وبخاصة فى صيغتها الشكسبيرية على وجه التحديد، وبين هذا البطل الصبى. وأخرى تربط بين هذا الصبى المدعو: «كرو»، والروائى العالمى الشهير «فرانزكافكا» ذى الأصول التشيكية وكان يكتب بالألمانية. ذلك أن كلمة «كافكا» فى التشيكية تعنى: الغراب الرحال، بينما كلمة: «كرو» فى اليابانية تعنى: الغراب. وهذا الصبى هو الذى اختار لنفسه اسم كافكا بدلاً من كرو ليتعامل به مع المجتمع حينما قرر فجأة أن يواجه الحياة بمفرده، أن يتمرد على سلطة أبيه النحات الشهير أو بمعنى أدق يقتله معنويا يعنى يلغيه وينفيه من حياته؛ أن يثور على واقعه الرتيب الراكد القاحل. إنه وأبوه فقط فى البيت وفى الحياة. ذلك أن أمه اختلفت مع أبيه ذات يوم بعيد جداً فانفصلت عنه وغادرت المدينة كلها؛ لم تتورع عن ترك ابنها هذا وعمره أربع سنوات فى حضانة أبيه وأخذت ابنتها التى تكبر أخاها بقليل. انشغل الأب النحات عن الحياة بمجده الشخصى. وكانت السنون تمضى فتتسع مساحة الانفصال بينهما.

قامت حرب باردة بين عملاقين آثمين يريدان اقتسام العالم ويا حبذا لو أبعد أحدهما الآخر ولو بالقضاء عليه نهائيا



الولد ما إن بلغ عمره خمسة عشر عامًا حتى كاد الشعور بالخواء يقضى عليه يسحق إنسانيته من فرط الجفاف العاطفى الذى يعانيه فى البيت وفى المدرسة وفى الأندية الرياضية وفى المجتمع من حوله؛ حيث الناس من فرط الانخراط فى ماكينة العمل وفى جهامة الحياة المكبلة بالقوانين الصارمة، ولا ملاذ له ولكثيرين من أمثاله سوى القراءة والرياضة البدنية؛ يقرأون بغزارة، يبحثون فى الكتب عن عالم مفقود، عن ملاذ آمن، عن خلاص. كانت الحرب العالمية الثانية قد تركت الخراب والدمار فى أنحاء مختلفة من العالم؛ ضُربت اليابان بأول قنبلة ذرية فى أربعينيات القرن العشرين، فتخلفت عنها كائنات شوهاء؛ أصيب الكثيرون بالعته والصمم والفصام والجنون، ناهيك عن التشوهات الخلقية. ساد العنف أنحاء العالم، وقرينه الإرهاب، وقامت حرب باردة بين عملاقين آثمين يريدان اقتسام العالم ويا حبذا لو أبعد أحدهما الآخر ولو بالقضاء عليه نهائيا. كل ذلك من أجل الاستئثار بمصادر الطاقة وخيرات الشعوب المتخلفة.

فلتكن الحياة ما تكون خارج عالم الصبى المحدود؛ لكنها ستكون بالقطع متاعا لتحرره. فلسوف يجد نفسه، وسوف يكون: «أعظم فتى فى الخامسة عشرة من عمره فى العالم». سوف يهرب من هذا البيت، من المدرسة، من حياة أبيه، تماما مثلما فعلت أمه منذ أحد عشر عاماً. ولئن كانت أمه قد رحلت دون أن تترك أية صورة لها فانمحت ملامحها من ذهنه وسقطت هى من ذاكرته فإنه سيفعل هذا مع الخمسة عشر عاما الماضية من عمره. وهكذا، فى يوم عيد ميلاده رتب للعيش فى مدينة بعيدة جداً عن طوكيو عاملاً فى إحدى المكتبات العامة، يقرأ ويعمل بلا حدود، يمارس الحرية لعله يصل إلى بكارة الحياة البدائية، بكارة الطبيعة الطاهرة البريئة من التلوث ومن طغيان الآلة والأسمنت. كانت تطن فى ذهنه عبارة اعتاد أبوه أن يؤنبه بها، تأنيب أب يشعر أن ابنه الوحيد غير راض عن حياته غير مستقر النفس غير جاد فى الدراسة فيختار نبوءة بشعة يرميه بها بقصد إرعابه حتى يرعوى ويرتد عن الوقوع فى الضلال. كان يقول له: «سوف تضاجع أمك وأختك ذات يوم». ربما لم يكن يقصد النبوءة حرفيًا بقدر ما كان يشعره بأنه سوف يضل ويتوه فى الحياة إذا هو ركب الشطط وتمرد على واقعه. كانت هذه النبوءة لا تنى تلفت نظر الصبى من زاوية الدهشة والسخرية فحسب لكنه يتذكرها دائماً. وحين شرع فى الهرب اختلس من درج أبيه مبلغا من المال يكفيه إلى أن يستقر فى عمل، وأخذ هاتف أبيه المحمول، وأخذ ما يهمه من ثياب، والسرير الذى يُطوى مثل حقيبة، أمسكها بيده، وعلق الهاندباج فوق ظهره، واتخذ لنفسه اسم كافكا تامورا.



ولكن ما الحكمة فى اختياره لاسم كافكا بالذات؟ هل لأنه مرادف لاسمه: كرو فى اللغة اليابانية أى أن كليهما غراب ومن ثم يكون اسم كافكا هو الأليق والأكثر انطباقا على حالته باعتباره سيكون الغراب الرحال بالفعل؟ ربما يكون هذا هو المبرر الفنى الظاهرى؛ ولكن ثمة مبررًا موضوعيًا نستشعره فى السياق وفى تلميحات الحوار العابرة.. ذلك هو أن كافكا، فرانز كافكا الروائى، جزء أصيل فى تركيبة الرؤية الفنية التى بنيت بها هذه الرواية. فروايات وقصص كافكا كانت فى الواقع أول وأخطر صرخة أدبية فنية هزت العالم ونبهته إلى جرائم الثورة الصناعية وما بنى عليها من تقدم اجتماعى مدنى أنشأ مجتمعا مركبا بعلاقات معقدة فقدت فيه الحياة معناها والأحلام مذاقها الإنسانى؛ بات الإنسان تعيسا بائسًا، مجرد ترس فى ماكينة عنيفة قاسية؛ بل الأسوأ من ذلك أنه بات متهما فى قضية مجهولة لا يعرف عنها أى شىء قط بله أن يكون مسئولا عنها لكنه مع ذلك مطلوب للمحاكمة، وهو ينزل من بيته ذات يوم مخفورا إلى المحكمة فلا يعود، يظل طول عمره فى دوامة يومية لا نهاية لها. ما الحياة عند فرانز كافكا الروائى إلا محاكمة غاشمة عنيفة لإنسان ذلك العصر. وهاروكى مورا كامى يريد أن يذكر قارئ روايته: (كافكا

علـــــــى الشـــــــاطئ

على الشاطئ) بالرؤية الكفكاوية للعالم الحديث. فكأن هاروكى مورا كامى يتبنى هذه الرؤية من طرف خفى، ليتناغم معه فى رؤية جديدة للعالم أقل عدمية أقل عيشة ذات عصب عقلانى خفى كامن فى المعمار الفنى.

[٢]

الغراب الرَحَّال يسعى إلى الخطيئة

ما تلبث النبوءة التى دأب أبوه على رميه بها . والتى كانت محض أسطورة . حتى تخطو معه نحو المواقع منذ خروجه من البيت كأنها القدر المصاحب له أينما ذهب، كأن شروعه فى الترحال شروع فى تحقيق تلك التراجيديا الأسطورة على أرض الواقع الراهن. لقد استقر عزمه على السفر إلى مدينة تاكا ماتسو فى أقاصى اليابان تشبه السلوم عندنا أو مرسى مطروح. فالمسافة من طوكيو إليها يقطعها باص الرحلات الطويلة فى يوم وبعض يوم. فى استراحة الطريق تقاربت منه فتاة كانت وحيدة ومسافرة إلى تاكا ماتسو لتعمل كوافيرة فى أحد محلاتها وفى نفس الوقت تستروح نسمات البحر وهواءه النقى لعدة أشهر تعود بعدها لطوكيو. سرعان ما قامت بينهما علاقة استلطاف وانجذاب، فنقلت كرسيها فى الحافلة إلى جوار كرسيه، وأمنت إليه، فنامت تاركة رأسها ينحدر على كتفه. انشغل بأمرها، تدور فى خلده خواطر مستخلصة مما حكته له بسرعة عن وضعها وظروف حياتها، وما بين وضعيهما من تشابه فى كثير من السمات والوضع العائلى؛ أوعزت إليه بأن هذه الفتاة ربما كانت أخته التى رحلت مع أمه ذات يوم بعيد.. ثم استراح إلى هذا الاستنتاج ربما لأنه كان يريده، ولأن هناك شواهد دعمت هذا الاستنتاج، فمجرد انجذابها إليه دون جميع الركاب بدا كأنه التقاء أخت بأخيها بعد فراق طويل؛ ثم إنها اكتشفت من أول وهلة أنه تلميذ هارب من المدرسة ومن أهله، فاهتمت بأمره كما تهتم الأخت بأمر أخيها، أعطته رقم هاتفها، عرضت عليه أن يتصل بها إذا احتاج لمساعدتها، أبدت استعدادها لأن تستضيفه فى الشقة التى ستسكن فيها إذا ما تعذر عليه أمر المبيت، مذكرة إياه بأنها مخطوبة وتحب خطيبها ولا تستطيع إقامة علاقة جنسية مع أحد سواه مهما كانت الظروف والأحوال. وقد أعجبه منها هذا الوضوح وهذه الثقة فى نفسها؛ كما أنه لم يكن يفكر فى علاقة كهذه باعتباره قد شعر بأنها ربما كانت أخته؛ ثم إنه كان ميالا إلى الوحدة والاستقلال. احتجز لنفسه غرفة فى فندق رخيص لعدة أيام. ثم راح يتعرف على المدينة حتى عثر على أهم مكانين يطلبهما: النادى الرياضى ليمارس فيه ألعاب القوى، ومكتبة عامة ذات شهرة واسعة فى المدينة، تمتلكها عائلة من كبار الأثرياء، ورثتها عن أب مثقف كان معنيا بشئون الثقافة والعلم؛ فلما رحل نفذوا وصيته بتحويل مكتبته الخاصة إلى مكتبة عامة، وخصصوا لها هذا المبنى الفاخر بحديقته، وعينوا لها مديرة حسناء تَمُتُ إليهم بصلة صداقة عائلية قديمة، وموظف استقبال، ووفروا كل وسائل الراحة، وفتحوها للباحثين والدارسين والقراء بجميع مشاربهم واهتماماتهم.

دخل الفتى المكتبة بلهفة من عثر على ضالته. قرأ بنهم. أقام علاقة ود مع موظف الاستقبال الشاب اللبق المثقف. بضعة أيام وأوشكت نقوده على النفاد، فراح يقتصد فى الطعام ويكثر من التجوال فى الحدائق العامة. وذات مساء أخذته سنة من النوم على أرض الحديقة استيقظ منها مفزوعا مجهدا يدق قلبه بعنف. فوجئ بأن قميصه ملوث بالدم!.

ظنها بقعا لونية حمراء فلما حاول إزالتها بالماء اتضح أنه دم تقرح فى نسيج القميص!.

عندئذ وقر فى وهمه أنه لا بد قد ارتكب جريمة قتل فى غيبوبة منه. عبثا حاول التذكر؛ لكنه ظل على شىء من اليقين الغامض بأنه قاتل وأنه إن عاجلا أو آجلا سيقع فى قبضة الشرطة. تعاظم شعوره بالوحدة والخوف، إنه فى أشد الاحتياج إلى رفيق يبادله الرأى فى هواجسه لعله يعاونه على الفهم أو يملأ خواءه الداخلى. فى الحال تذكر الفتاة «ساكورا» رفيقة المشوار التى اعتبرها أخته. هاتفها، فأذنت له بالمجىء. فى شقتها شديدة التواضع غسل ثيابه وشرب القهوة وحدثها عن هواجسه. فاندهشت، لكنها طمأنته بأنه لا جريمة بدون جسم للجريمة. نامت على سريرها، وفرد هو سريره الحقيبة على الأرض ورقد فى داخله يحاول استدرار النوم دون جدوى. وكانت هى الأخرى قلقة لقلقه، فنادته لينام بجوارها على السرير لعل دفء كليهما يجلب النوم للآخر. وحينما تمدد بجوارها ذكرته بخطيبها الذى لا يمكن لها أن تخونه. هو أيضًا كانت خواطره المتوترة مركزة على ما هو فيه من ورطة إضافة إلى اعتبارها أخته التى أخذتها أمه معها عند رحيلها الغامض. إلا أنه حينما احتضنته كأخت واستسلمت لبوادر النوم ضخ جسدها الكهرباء فى جسده وبشكل استحال عليه إخماده. أشفقت هى عليه؛ ببساطة عرضت عليه أن تساعده كأنثى فى تفريغ توتره. وهكذا مارست له الجنس دون أن يدخلها. وهكذا أفاق فى الصباح على أنه يعتبر قد



مارس الجنس مع أخته.. أى أن خطوة من نبوءة أبيه قد تحققت. وفى الواقع لم تكن هذه الخطوة هى الأولى فى تحقيق النبوءة؛ إنما قد سبقها بساعات قليلة. ربما فى اللحظة التى استيقظ فيها الصبى على بقع الدم فى قميصه. جريمة قتل الأب واقعيا وبفعل فاعل بالطبع..

ففى تلك الأثناء كنا قد شاهدنا جريمة قتل فى الحى الذى يسكن فيه والد الفتى كرو فى طوكيو، اغتيل فيها دكتور من علية القوم كان مهموماً يجمع القطط من الشوارع ليذبحها فى معمله ويأكل أكبادها وقلوبها ثم يحنط الجسد ويحتفظ به فى ثلاجة تمهيداً لاستخدامها فى مشروع علمى مهم. فى المقابل كان هناك رجل من عامة الشعب مصاب بفقدان الذاكرة لكنه طيب القلب ملىء بالنوازع الخيرة ويعيش على معونة ضئيلة من محافظ طوكيو. هو مع ذلك ذكى جداً وإن كان يتهم نفسه بالغباء دائماً. كثيراً ما يجىء كلامه بمثابة حكم وأمثال دامغة معبأة بخبرات الحياة. أعطاه الله موهبة فريدة: التحدث مع القطط، يفهم كلامها ويتحدث معها حديث الصديق للصديق. هو بوجه عام رجل يحيطه الغموض الأسطورى الجذاب. فيه أشباه كثيرة من المتصوفة والمجاذيب الدراويش والمكشوف عنهم الحجاب فى التراث الشعبى الفولكلورى؛ كل ذلك على أرض من الطيبة والبراءة. وكانت إحدى سيدات الحى المصونات العاطفات عليه قد كلفته بالبحث عن قطتها الضائعة؛ فراح يسأل عنها القطط حتى أفادته تحرياته بأن هذا الدكتور المدعو جون واكر قد استدرجها فى الحديقة الفلانية وأخذها فتلك هى هوايته المفضلة. لم يكد يهتم بالبحث عن عنوان هذا الدكتور حتى فوجئ فى الحديقة بكلب مهيب يتمسح فيه ثم يستدرجه إلى الطريق. قاده الكلب إلى قصر الدكتور، فدخل عليه فإذا هو فى انتظاره وقد بعث كلبه لاستدعائه. قال له الدكتور إنه يهدف من وراء جمع القطط إلى صنع ناى من أرواحها، يصنع نايا كبيراً بحجم خرافى لكى ترج أنغامه الأرض والصخر!. ثم فتح الثلاجة وعرض عليه القطط المحنطة. لم يتعرف العجوز على قطته بين القطط المحنطة فاطمأن قليلا؛ لكن الذهول جمده فى مكانه حين قال له الدكتور إنه قد سئم الحياة ويبحث عمن يقتله لأنه جبان يعجز عن قتل نفسه. واتبع كلامه باستلال سكين كبيرة أعطاها للعجوز قائلا إنه سيذبح أمامه خمس قطط ستكون آخرها قطته؛ سيذبح واحدة بعد أخرى وعلى العجوز أن يجزم أمره بين كل قطة والتى تليها فإن لم يقتله سيذبح قطته أمامه. وبدأ بالفعل فذبح القطة الأولى وشق بطنها وأكل ما فى جوفها؛ ثم الثانية، فالثالثة، فالرابعة، فلم يشعر العجوز صديق القطط بما فعل؛ أفاق فجأة على حقيقة أنه قتل الدكتور بالفعل وها هو ذا ملقى على الأرض غارقًا فى دمه. غير أنه أخذ قطته وغادر القصر فى هدوء كأن شيئًا لم يحدث لأن القصر كان خاليًا تماماً إلا منه والدكتور والكلب الرابض على الباب البعيد. ذهب إلى الشرطة ليبلغ عن نفسه، فاستغرب الضابط كلامه وشكله فعامله كملتاث ثم صرفه. على أن هذا الحادث عندما اكتشفته الشرطة وعرضته الصحافة اتضح أن هذا الدكتور العجيب هو النحات الشهير كيوتشى تامورا، والد الصبى الهارب كافكا تامورا. وكانت الشرطة قد تتبعت مكالمات هاتفية جرت من هاتف النحات المحمول الذى سرقه الفتى واستخدمه أثناء ترحاله. المهم أن الشرطة عرفت اسم حامل الهاتف وتفقدته فى الفنادق فى تاكا ماتسو فعرفت أنه يتردد على هذه المكتبة. فى نفس الوقت نشرت الصحف أن للنحات ابنا فى الخامسة عشرة من عمره هارب من البيت قبل الاغتيال بساعات، وأنه مطلوب من الشرطة لاستيفاء بعض البيانات قد تساعد فى الوصول إلى قاتل أبيه.

[٣]

الأسطورة. النداهة. تحاصر كافكا

رأى موظف الاستقبال أوشيما أن الصبى كافكا يمكن أن يكون مساعدا له. لقد أحبه وأعجب بطموحه فى القراءة. بواسطته وافقت إدارة المكتبة على أن



يعمل فى إعادة ترتيب الكتب فى أماكنها بعد عودتها من الاستعارة، وفى تنظيف الأرفف وكنس الأرض وصنع القهوة للآنسة سايكى مديرة المكتبة. وكان أوشيما فى العشرينيات الأولى من عمره؛ يتعامل معه كافكا باعتباره رجلا كامل الرجولة؛ إلى أن جاء إلى المكتبة سيدتان تفتشان على المكتبة ومدى استيفائها للشروط الصحية ومدى ما تقدمه للقراء من تيسيرات وخدمات وما إلى ذلك من أوضاع تلتزم بها جميع المكتبات العامة؛ فاحتدت المناقشة بين أوشيما وبينهما، فاتهمته إحداهما بأنه مثال للرجل الذكورى المتعصب؛ فإذا به. بكل وضوح وأريحية ودونما وجل أو خجل. يستدرك عليها شارحا وضعه الجنسى على هذا النحو:

.«جسدى أنثوى فيزيائيا، أما عقلى فذكورى تماما.. شعوريا أحيا كرجل. ولهذا أظن أن رؤيتكما بخصوص كونى مثالا تاريخيا ربما كانت صحيحة. ومن يدرى ما إذا كنت عنصرية فاحشة، لكننى لست سحاقية، برغم ملابسى هذه. ومن ناحية الجنس أفضل الرجال. بمعنى آخر، أنا أنثى، لكننى لوطية. ولا تأتينى العادة الشهرية. إذًا تجاه من أنا عنصرية؟ هل لأحد أن يوضح لى؟».



رأى موظف الاستقبال أوشيما أن الصبى كافكا يمكن أن يكون مساعدا له. لقد أحبه وأعجب بطموحه فى القراءة



وطبعا لم يوضح له أحد. ذلك أن حالته الفريدة تلك ربما كانت من تأثير الإشعاع الذرى الذى ضرب الجينات الوراثية فى الشعب اليابانى فأحدث بها مثل هذا الخلل ضمن ما أحدثه من تشوهات كثيرة فى الأبدان وفى النفوس وفى كل شىء على الأرض. ولقد أحبه كافكا لما فى نفسه وذهنه من صفاء يتميز بها أبناء الأقاليم اليابانية البعيدة التى لا تزال متصلة بالطبيعة فى عنفوانها البدائى البكر، المتمثلة فى الغابات الكثيفة هائلة الأحجام، والبحر المحيط الهادر، والشمس القوية الحنونة فى آن.

كان على كافكا أن ينام فى غرفة نوم فى الطابق الثانى من مبنى المكتبة، فيها سرير وتسريحة ومكتب صغير، فرشها وأثاثها بسيط لكنه ثمين وتفوح منه العراقة والرومانسية والأنفاس العطرة، لها شباك عريض يفتح على الحديقة ويتصدى للقمر فيستضيفه فى الحجرة، وفى ليالى اختفائه يدخل ضوء فانوس العمود الواقف فى الحديقة. ما كاد كافكا يألف النعيم فى هذه الغرفة وحلاوة العمل فى المكتبة حتى فوجئ بأوشيما يشير عليه بضرورة الاختفاء مؤقتا من المكتبة لأن الشرطة اتصلت بالمكتبة واستفسرت عن وجوده، وأن أوشيما أجابهم. تلقائيًا. بأن كافكا لم يعد يتردد على المكتبة. وصحيح أن سؤال الشرطة كان عابرا وأن كافكا ليس مطلوبا القبض عليه بل استيضاح بعض البيانات عما إذا كان لأبيه خصوم؛ إلا أن أوشيما لا يحب أن تعرف الشرطة طريقها إلى المكتبة؛ كما أنه مقدر لحالة كافكا وخوفه من تسليم نفسه للشرطة، وفى نفس الوقت يخشى أن تعتبر الشرطة اختفاءه دليلا على تورطه فى الجريمة؛ لكنه اقتنع بابتعاده عن يد الشرطة مؤقتا لعلهما يفكران فى حل آخر أو ينجلى الموقف عن مفاجآت جديدة. وفى الواقع كان كافكا منذ بلوغه خبر اغتيال أبيه قد غرق فى شعور بالذنب، بل وقر فى يقينه أنه هو القاتل الحقيقى؛ الدليل على ذلك بقع الدم على قميصه الذى عجزت المغسلة عن إزالة أثره؛ حتى وإن كان من المستحيل بداهة أن يسافر من تاكا ماتسو إلى طوكيو مسيرة يوم وبعض يوم ثم يقتل أباه هناك ويرتد عائداً إلى تاكا ماتسو لينام مرهقا فى الحديقة!.. إنما المقصود الذى يبلغنا من السياق أنه القتل المعنوى؛ فمجرد أن يترك أباه وحيدا ويهرب، مجرد التمرد على سلطة أب هو نوع من القتل؛ أى أنه يعتبر نفسه قد قتل أباه بالفعل لحظة خروجه من البيت هاربا. ولئن كان أوديب

**كان اللحن حزيناً وبسيطا وجذابا.
أما الكلمات فكانت رمزية تأملية يصعب فهمها. فأضفى هذا التناقض على الأغنية بعض الروحانية والحميمية**



فى الأسطورة قد قتل أباه الملك. وهو لا يعرف مسبقا أنه أبوه. ليكون ملكا على البلاد بدلاً منه؛ فإن كافكا قتل أباه. وهو يعرف مسبقا أنه أبوه. ليستقل بنفسه قبل الأوان. أوديب قد فُرض عليه القتل أما كافكا فقد اختاره؛ تماما مثلما اختارت الثقافة الأوروبية الحديثة أن تلحد بالله وتجنب الكنيسة التحرر من سلطتها المانعة لأى تقدم علمى. غير أن المأساة فى النهاية لابد أن تقع نتيجة لقتل الأب ماديا كان أو معنويا: ينتقم أوديب من نفسه شر انتقام حينما اكتشف الحقيقة ولم يحتمل بشاعتها.. ويقع إنسان النهضة الأوروبية، بل تقع الحضارة الغربية كلها فى خواء روحى فادح؛ تتقطع العلاقات الإنسانية، تجف الينابيع العاطفية فيزداد الإنسان عنفا وشراسة ويبرع فى التفكير الشرير فيخترع الأسلحة القتالة الجالبة للدمار الشامل تستخدمها ضد شعوب آمنة غير شريرة؛ وتعقم اللغة فتصبح أداة بلبلة وتضليل بدلاً من كونها أداة اتصال.

يدبر أوشيما لكافكا منتجعا فى أحضان الطبيعة البكر، يبعد عن تاكا ماتسو نحو ثلاثمائة ميل أو أكثر؛ فى نفس المنطقة الريفية التى تقيم عائلة أوشيما المشتغلة بالزراعة. يقود أوشيما سيارته إلى كوخ مكون من حجرتين ومطبخ وحمام وردهة وشرفة خارجية كبيرة، داخل قطعة أرض كبيرة تملكها أسرة أوشيما، مسورة وذات بوابة خارجية كبيرة. كلها مزروعة بمختلف أنواع الشجر والزهور؛ وهى كذلك جزء مقتطع من غابة كثيفة مترامية الأطراف لا حدود مرئية لها. حذره أوشيما من التوغل فيها لأنه إن فعل لن يستطيع العودة إلى الكوخ بسهولة وقد يقع فى متاهة يبقى فيها إلى أن يموت جوعا وعطشا. وذكره بأن الجيش اليابانى قد تخندق فيها أثناء إحدى معاركه الحربية، أو لعله كان ماراً بها، فتاه منه جنديان لم يعثر عليهما أحد حتى الآن برغم مضى هذا الزمن الطويل، ولا أحد يعرف عنهما شيئا، ولا تستطيع طائرات أن تحلق فوق الغابة أو تجوس فيها بأى حال. ولكن كافكا يقع تحت إغراء التحذير؛ فقد جاس فى الغابة قليلا، ووضع علامات يسترشد بها فى طريق العودة؛ ثم عاد حينما شعر بأنه وقع فريسة لسحر الغابة وجاذبية التجوال فيها كمغناطيس يشد الخطوات بغير وعى أو تبصر. هذا هو العالم البدائى البكر الذى لا بد أنه كان يبحث عنه، حيث لا زيف ولا زواق ولا تعقيدات ولا قوانين وضعية ولا أى سلطة تكبل حرية الإنسان. هنا يستطيع الإنسان أن يدبر حاله؛ سيعلمه المكان كيف يتواءم وكيف يجد كل ما يحتاجه لكى يعيش فى أمان، حراً كامل الحرية. إلا أنه بعد بضعة أيام، وكانت الشرطة قد صرفت النظر عن المكتبة؛ جاءه أوشيما بسيارته فأخذه عائدا به إلى المكتبة.

اتضح أن الحجرة التى ينام فيها كافكا هى الحجرة التى كانت مخصصة ذات يوم بعيد جداً لمبيت حبيب الآنسة سايكى مديرة المكتبة الآن. كانت سايكى فى طفولتها ذكية متفوقة وماهرة فى تأليف الموسيقى وفى الرياضيات، تجيد العزف على البيانو، كانت دائماً هى الأفضل فى كل ما تفعله أو تجربه. وكانت إلى ذلك جميلة جداً ولا تزال جذابة حقا على الرغم من كونها تكاد تكون فى سن أبيه. وحينما كانت فى المدرسة الإعدادية كان لها حبيب هو الابن الأكبر لعائلة كومبورا أصحاب هذه المكتبة التذكارية الضخمة. كانت ثمة قرابة بعيدة تربطها بالأسرة. وكانت وحبيبها فى نفس العمر. ولقد شكلا معاً ثنائياً رائعا، روميو وجولييت نموذجيان. عاشا لصق بعضهما فلم يفترقا أبداً. وعندما كبرا وقعا فى أسر الغرام، باتا كروح واحدة فى جسدين. وعندما بلغ حبيبها الثامنة عشرة من عمره سافر إلى طوكيو لكى ينتسب إلى الجامعة إذ كان متفوقا هو الآخر فحصل على منحة دراسية فى المجال الذى أراد دراسته؛ وكان شغوفا برؤية المدينة العاصمة. أما هى. سايكى. فانتسبت إلى جامعة الإقليم المحلية وتخصصت فى دراسة البيانو. لقد نشأت فى أسرة محافظة وكانت هى طفلتها الوحيدة، ولذا لم يوافق أبواها على أن تسافر إلى طوكيو. فكان ذلك فراقهما الأول، فكأن الله قد شطرهما بسكين.

[٤]

عبور البرزخ بين الجنس والأمومة

برغم الفراق كانت الآنسة سايكى وحبيبها يتراسلان يومياً وهما على يقين من أن اتحادهما معاً غير قابل للكسر. وحينما صارت الآنسة سايكى فى التاسعة عشرة من عمرها كتبت قصيدة ولحنتها وغنتها على البيانو. كان اللحن حزيناً وبسيطا وجذابا. أما الكلمات فكانت رمزية تأملية يصعب فهمها. فأضفى هذا التناقض على الأغنية بعض الروحانية والحميمية. وبالطبع كانت الأغنية بكلماتها ولحنها تعبر عن النداء المكتوم فى داخلها لحبيبها البعيد. ولقد غنتها مرات قليلة أمام الناس إذ كانت بطبيعتها خجولة؛ لكنها محبة للغناء؛ فانضمت إلى فرقة موسيقى بوب فى الجامعة. وقام أحد المعجبين بالأغنية بتسجيلها على شريط كاسيت وأرسلها إلى صديق له يملك شركة تسجيلات موسيقية؛ فأحب الأغنية وأقنع سايكى بأن تسجلها فى الاستديو الخاص به فى طوكيو. وكانت زيارتها الأولى لطوكيو حيث التقت حبيبها هناك فنهلا من الحب حتى الثمالة. ثم إذا بالألبوم يحقق نجاحا كاسحا، بيعت منه ملايين النسخ وحقق لسايكى ثروة هائلة تكفيها مدى الحياة تنفق ببذخ كيفما تشاء. كان هذا حوالى عام ١٩٧٠ حينما أذيعت الأغنية فى كافة محطات الراديو، يعنى قبل أن يولد كل من أوشيما وكافكا.

تلك هى الحكاية التى حكاها أوشيما لكافكا. لقد أدهشته؛ ولكن دهشة كافكا بلغت ذروتها المذهلة حينما سأل أوشيما عن اسم تلك الأغنية ففاجأه أوشيما قائلا: «عنوانها: كافكا على الشاطئ!». ردد كافكا العنوان مذهولا: كافكا على الشاطئ؟! قال أوشيما: «نعم كافكا على الشاطئ! كافكا تامورا! اسمك أنت!



سيعلمه المكان كيف يتواءم وكيف يجد كل ما يحتاجه لكى يعيش فى أمان، حراً كامل الحرية



صدفة عجيبة أليس كذلك؟!». يرد كافكا: «ولكن كافكا ليس اسمى الحقيقى ومع هذا فتامورا هو اسمى الحقيقى». قال أوشيما: «لا يهم فقد اخترت أنت اسم كافكا أليس كذلك!». فأومأ كافكا: «لقد حسمت أمرى منذ فترة أن كافكا هو الاسم الصحيح لشخصيتى الجديدة». فيعلق أوشيما: «وهذا هو بيت القصيد!». ثم يستطرد مواصلا سرد بقية القصة: مات حبيب الآنسة سايكى وهو فى العشرين من عمره ميتة مجانية عبثية بشعة؛ فى الوقت الذى كانت فيه أغنية كافكا على الشاطئ فى أوج نجاحها الباهر. مات الحبيب فى مظاهرة طلابية حيث اشتبه فيه زملاؤه فداسوه بالأقدام ومزقوا جثته. فتوقفت سايكى عن الغناء نهائيا، عزلت نفسها عن الناس تماماً وانقطع ذكرها، حتى أبواها لا يعرفان عنها أى شىء سوى أن ثروتها العالية من حصيلة الأغنية تكفيها للعيش حياة كريمة فى أى مكان. قيل لقد حاولت الانتحار فى الأدغال فأودعت فى مصحة نفسية. وقيل إن البعض شاهدها تعمل فى بعض المؤسسات. وقيل بل تزوجت وأنجبت طفلا. وبعد خمسة وعشرين عاما ظهرت الآنسة سايكى مرة أخرى فى مدينة تاكا ماتسو بعد وفاة والدها. ثم بعد رحيل أمها باعت المنزل الذى ولدت وتربت فيه وانتقلت إلى شقة فى وسط المدينة. ثم إنها تحدثت مع شقيق حبيبها الذى أصبح كبير العائلة، فعينها مديرة لمكتبة كوميورا. وها هى ذى لا تزال إلى اليوم رشيقة وجميلة كما فى صورتها على غلاف ألبوم كافكا على الشاطئ ولكن بعد فقدان ابتسامتها وإشراقتها. أصبحت تحيط نفسها بجدران عالية تبعد الآخرين عن اقتحامها. كل عالمها منحصر فى الشقة والمكتبة وسيارتها الفولكس فاجن. وطوال وجودها فى مكتبها بالمكتبة لا تكف عن الكتابة لا أحد يدرى ماذا تكتب. ولما كانت الآنسة سايكى صديقة لأم أوشيما فقد أعجبت بحبه للقراءة والموسيقى فألحقته بالمكتبة مساعدا لها. وبفضل هذه الصداقة احتفظت أم أوشيما بنسخة من ألبوم كافكا على الشاطئ؛ وبأريحية نزل أوشيما على رغبة كافكا الحارقة فأتى له بالألبوم ليسمعه، بل استطاع أن يستنسخ له النوتة الموسيقية.

ولكن لماذا كانت المكتبة مهمة بالنسبة للآنسة سايكى كأنها المعبد بالنسبة للمتدين الورع؟. الواقع أن حبيبها كان دائم الإقامة فيها يقرأ بشغف ونهم، ويبيت فى هذه الغرفة

هـذه الغـرفة البديعـة
الموحيـة كانت مهد العشق فى عز صباه وعنفوانه بين الآنسة سايـيكى
وحبيبهـا الفقيد



التى يبيت فيها كافكا الآن. وكانت ساييكى تزوره فيها كل يوم يمارسان الحب ويدرسان ويستمعان إلى الموسيقى. ثم يقول أوشيما: «توقفت حياة ساييكى بشكل أساسى وهى فى العشرين حين مات حبيبها. دفنت عقارب الساعة فى روحها وتوقفت هناك، الوقت الخارجى طبعا يمضى حولها كالمعتاد لكنها لا تتأثر به. بقيت دائمًا جذابة صبية يحوطها لون من الغموض الساحر الجذاب هو الآخر».

وإذًا فهذه الغرفة البديعة الموحية كانت مهد العشق فى عز صباه وعنفوانه بين الآنسة سايبكى وحبيبها الفقيد. ولئن كان كافكا تامورا قد انجذب إلى الآنسة سايبكى وعالمها السحرى الغامض فإنه بعد أن استمع إلى قصتها من أوشيما انبثقت فى داخله وشائج راح يتوقف عندها طويلا؛ منها هذه الصورة المعلقة فى برواز على الحائط لطفل يقف بالمايوه على شاطئ البحر، تكاد تتطابق مع صورة مماثلة تركها فى بيتهم هى الصورة التى جمعته بأخته على الشاطئ؛ ولعل الطفل الذى فى هذه الصورة وحده على الشاطئ هو كافكا بطل الأغنية، هو حبيبها طفلا، والأرجح أن يكون هو نفسه: كرو أو كافكا تامورا. ثمة شعور داخلى غامض يوحد بينهما فى الصورتين.

ومن هذه الوشائج كذلك أن الفترة التى غابتها ساييكى عن مدينتها وأهلها هى نفس الفترة التى تزوج فيها أبوه. إن عيشها فى طوكيو، وزواجها، وإنجابها طفلا، وعودتها إلى أهلها، كل ذلك يشى بأن الآنسة سايبكى هذه ربما تكون أمه التى. بنفس الغموض. تزوجت من أبيه ثم أنجبته وأخته ثم انفصلت وغادرت بشكل مبهم لا يعرف كافكا أسبابه ولا أى شىء عن ظروفه. شىء ما فى قلبه يوشك أن يقنعه بأن هذه الشخصية هى تلك. ثم إن إنجذابها إليه والرقة فى التعامل معه إلى حد التباسط وإلغاء الحواجز، ودعوتها له للجلوس إليها كلما قدم لها قهوة المساء، واستماعها إليه بأريحية؛ كل ذلك يشعره بأنه الدم يحن إلى نفسه إذا وجد نفسه فى شخص آخر مجهول الهوية بالنسبة له. ولقد شجعه ذلك على البوح لها بهواجسه، فراح يلف ويدور حول الموضوع بأسئلة ملفوفة يوجهها إليها. فلما عرف منها أنها كانت فى طوكيو تجرى بحثا اجتماعيا عن مخلفات الحرب على الجنود وأهاليهم فى طوكيو؛ تذكر أن أباه هو الآخر كان معنيا بهذا الموضوع عناية فائقة؛ وإذًا فلا بد أنهما تلاقيا على سكة ذلك البحث ثم قام الاستلطاف بينهما فتزوجا، إلا أنها فى تحليله. حسب ما فهمه عن شخصيتها بعد استماعه إلى قصتها. لم تكن مستعدة نفسيا لإعطاء نفسها لشخص آخر غير حبيبها الفقيد الذى كان وهى روحا واحدة فى جسدين؛ وبناء عليه شعرت أنها تكذب عاطفيا على زوجها؛ فكانت صادقة مع نفسها حينما تأكدت من استحالة التواؤم المستقر مع شخص آخر، فانفصلت بقوة وبحسم لا يقبل التراجع لدرجة أنها تخلت فى سبيل الانفصال عن ابنها البالغ من عمره أربع سنوات؛ ولعلها رفضت الطفل لأنه ليس من صلب حبيبها وإن كانت قد تعاطفت مع الابنة فأخذتها ولا بد أنها انفصلت عنها بدورها أو لقيت مصيراً مجهولاً. جعل يصرح بخواطره هذه شيئًا فشيئًا؛ فإذا بها تقول له بوضوح: «إن نظريتك هذه التى تريد أن تثبت بها أننى ربما أكون أمك ليست صحيحة». ولكنها. فى نظره. لم تكن مقنعة فى قولها؛ لم يكن صوتها ينضح بالصدق بل باللباقة فى التخلص من مأزق الخوض فى هذا الموضوع من أساسه بما أنها لا تقبل الخوض فى سيرتها الذاتية من قريب أو بعيد؛ فهى لا تنفى ولا تؤكد، ولا تظهر عليها أية عاطفة؛ الأمر الذى وضع كافكا بين شعورين كلاهما جامح وعنيف: الجنس والأمومة، وكلاهما من مصدر واحد؛ فحرمانه من الأمومة لا يضارعه فى القوة سوى حرمانه من الجنس؛ غير أن احتياجه للأمومة كان هو الأقوى بطبيعة الحال. لقد كان ولوعا باكتشاف أمه بقدر ولعه بالرغبة فى التحرر من الأسرة برمتها!

[٥]

وأخيراً.. كيف تغدو جزءاً
من عالم جديد؟

ما إن بدأ يألف الغرفة التى خصصت لنومه؛ تلك الغرفة التى كانت الآنسة



سايبكى تذاكر فيها مع حبيبها ابن صاحب المكتبة فى زمن الصبا والشباب؛ حتى بدأ يرى شبحا مجسدا يظهر فى الغرفة بانتظام فى الثالثة صباحا كل ليلة: سايبكى وهى صبية يافعة، تجلس إلى المكتب محدقة فى اللوحة المعلقة فوق رأسه على الحائط: لوحة لطفل يقف على الشاطئ وكان يراها رؤية العين ويشعر بوجودها؛ حتى إذا ما انبثق ضوء الفجر من النافذة المطلة على الحديقة تنهض وتمشى نحو الباب ثم تختفى قبل الولوج من فتحته الموارية. لقد أدمن هذه الزيارة الليلية وقد وقر فى وجدانه أن هذه الفتاة بجمالها ذاك المثال الراقى هى النموذج الذى يتمناه لكى يعيش فى سلام وبهجة. غير أنه ذات ليلة فتح عينيه فى نفس الميعاد فيرى الشبح وقد أضيفت إليه ظلال كبرت بها ملامحه سرعان ما اتضح له أنها الآنسة سايبكى الحالية، الكبيرة، فى وجود.... مسموع الأنفاس عبق الرائحة الزكية الشهية. كانت تحدق فى اللوحة، ثم نهضت واقتربت من سريره كمن يمشى وهو نائم. صوت خطواتها على خشب الأرض، أنفاسها، وجودها الكثيف يغمره وهو مضطجع على السرير. جاست أناملها فى شعره. قبلته فى جبينه. خلعت ملابسها وتمددت بجواره واحتوته فى حضنها. الذهول يكبله. يريد أن ينبهها. لكن جسدها العريان ألهبه. ثم إنها قامت بالفعل كله حتى الثمالة. ثم ارتدت ملابسها وغادرت الغرفة من الباب.

لقد أدمن هذه الزيارة
الليليـة وقد وقـر فى وجـدانه
أن هذه الفتاة بجمالها ذاك المثال الراقى هى النموذج
الذى يتمنـاه لكـى يعيـش
فى سـلام وبهجـة

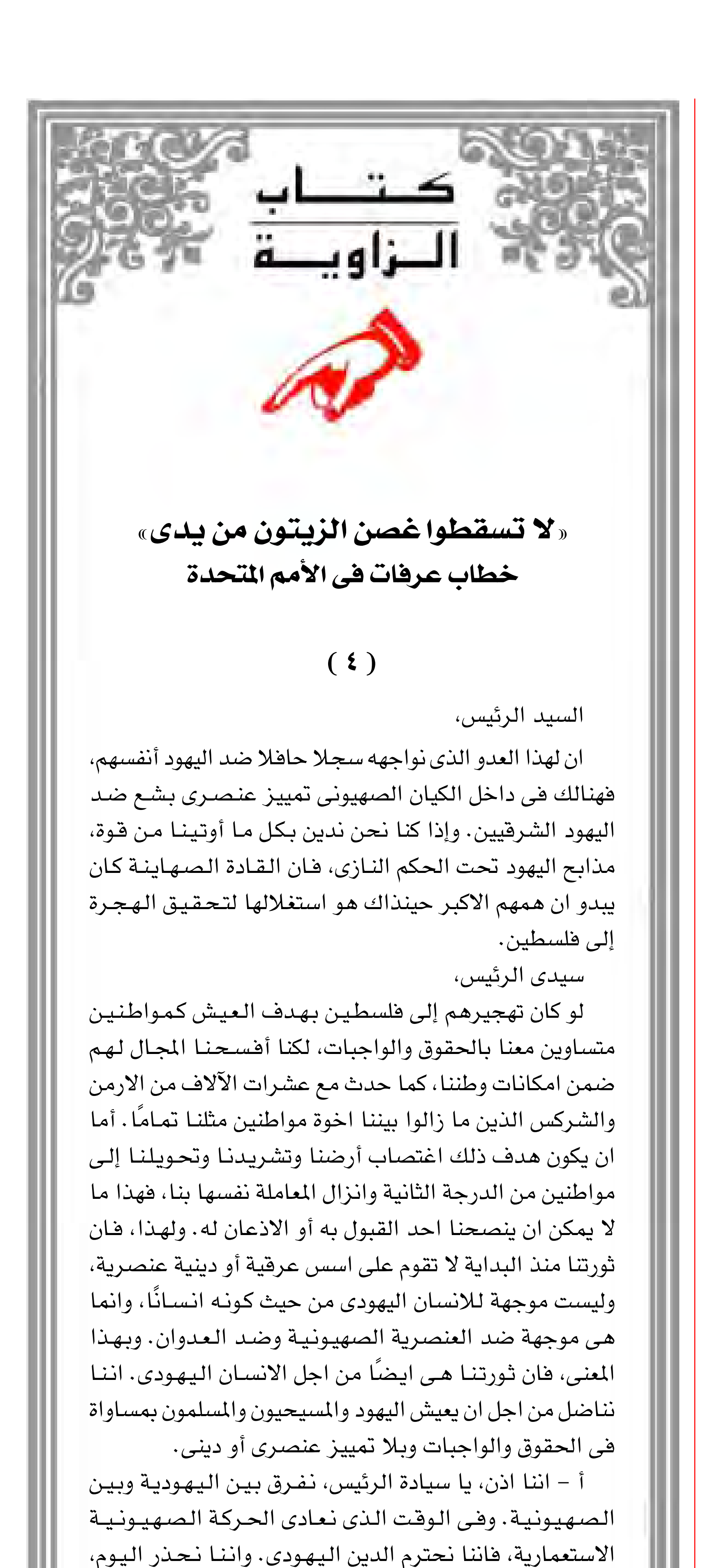
وبذلك تكون نبوءة الأب قد تحققت بالكامل: قتل الأب ومعاشرة الأخت ثم الأم؛ على مذبح رحلة خلاص ضالة، رحلة بحث عن الذات المثقلة.. وكأن ذلك خطيئة عظمى يرتكبها الإنسان. وكان كافكا يظن أن ما فعلته سايبكى معه خطيئة عابرة تمت أثناء نومها؛ ولكن الفعل تكرر بعد ذلك بوعى كامل منهما معًا: تقول له وهما مستلقيان على الشاطئ: «لا أعرف إذا كان ما فعلناه خطأ أم صوابا، لكننى وقتها قررت ألا أجبر نفسى على أن أحكم على أى شىء. أعتقد أننى قررت أن أترك القدر يحملنى إلى حيث يشاء». عندئذ يسألها: «أعتقد أنك تحاولين اللحاق بالوقت الضائع؟». ترد مندهشة: «ربما كنت مصيبا ولكن كيف تعرف ذلك؟». يقول: «لأننى أفعل نفس الشىء. أشياء كثيرة سرقت من طفولتى وعلىّ الآن أن أستعيدها». تسأله: «لكى تستمر فى العيش». يقول: «هذا ضرورى، الناس بحاجة إلى مكان يرجعون إليه. وأعتقد أنه لا يزال ثمة وقت لذلك بالنسبة إلى كلينا». تغمض عينيها لبرهة ثم تسأله فى دهشة: «من أنت؟ ولماذا تعرف الكثير عن كل شىء؟». يرد وهو مدرك أنها تعرف بالتأكيد من هو: «أنا كافكا على الشاطئ حبيبك وابنك. الفتى المدعو كرو. وكلانا لا يستطيع أن يكون حرا. كلانا عالق فى دوامة، تجرى ويجرى وراء الزمن. وكلانا، بطريقة ما، صعقنا البرق. لكنه ليس البرق الذى يمكنك رؤيته أو سماعه». وحين يحكى لها عن هروبه من العالم الذى ودعه فى طوكيو ضائقًا به تسأله: «إذًا هل صرت تحب هذا المكان من العالم الآن؟». يجيبها بأنه لا يعرف بعد. إنما هو فى نظرها يكرر رحلة هروبها المشابهة إلى حد كبير؛ ولهذا تقول له: «كنت صغيرة أتوق إلى الرحيل بعيدا، إلى مكان آخر حيث ينتظرنى شىء مميز، وحيث سأقابل ناسا أكثر تشويقا». فيجيبها أنه كان عليه أن يرحل فحسب وإلا كان واثقا من أنه سيدمر تماما لو بقى فى طوكيو. تقول له بهدوء شديد: «كان هذا إحساسى عندما رحلت من هنا فى العشرين من عمرى. كان علىّ أن أرحل لكى أنجو بنفسى وكنت مقتنعة أننى لن أرى هذا المكان مرة أخرى طيلة حياتى.

ولم أفكر فى الرجوع قط، ولكن حدثت أمور، وها أنذا وكأننى أبدأ من جديد. أمور عجيبة لا يمكن تصديقها تحدث فى الحياة». عندئذ يسألها فى انتباه وتركيز: «أتعنين أننى قد أعود من حيث بدأت؟». تقول: «هذا عائد لك؛ فى وقت ما فى المستقبل؛ لكننى أعتقد أن مكان مولد الشخص أو سماته مهم جداً. لا يمكنك أن تختار أين تولد، لكنك تستطيع أن تختار أين تموت، إلى حد ما».

الرواية إذًا ذات شكل فنى دائرى كالكرة الأرضية تدور حول محور ثابت ولا بد لحركتها الدائرية أن تعود ذات لحظة إلى نقطة البداية، لا لكى تتوقف عندها بل لتتجاوزها وهكذا دواليك. غير أن حركة الإنسان فوقها لا يوقفها إلا الموت؛ ومن هنا أهمية أن تختار أين تموت. وفى نفس الحوار بين سايبكى وكافكا يذكر لها نبوءة أبيه التى رماه بها: ستضاجع أمك وأختك. قد تسأله ممتعضة: «ولماذا أنزل والدك بك هذه اللعنة؟». يقول: «لا بد أنه أرادنى أن أحقق إرادته». تسأله: «أن ترغب فىّ، أهذا ما تعنيه!». يقول: «هذا صحيح». تحدق فى فنجان القهوة ثم تنظر إليه: «وهل هذا صحيح؟ هل ترغب فىّ؟». يومئ بالإيجاب، فتجفل قليلا: «تعنى أنك، نظريا، ترغب فىّ». ويرد على الفور: «لا، بعيدا عن النظرية، أنا راغب فيك، وهذا يتجاوز كثيراً جميع النظريات». تعود فتسأله: «أترغب فى ممارسة الجنس معى؟». يومئ بالإيجاب. تجفل ثانية: «أسبق لك أن مارست الجنس مع فتاة من قبل؟». كاد يقول لها إنها هى المرأة الأولى فى حياته، أى أنها هى التى فضت بكارته. لكنها تستشعر ذاك من نظرته فتزفر قائلة: «كافكا، أعرف أنك تدرك هذا، إنك فى الخامسة عشرة وأنا تجاوزت الخمسين». يقول: «الأمر ليس بهذه البساطة، نحن لا نتكلم عن هذا النوع من الزمن هنا. أنا أعرفك حين كنت فى الخامسة عشرة. وأنا واقع فى حبك حين كنت فى تلك السن. إننى متيم بك، عبرها هى، أنا متيم بك أنت، تلك الفتاة الصغيرة التى لا تزال فى داخلك، نائمة فى داخلك، ما أن تنامى أنت حتى تدب فيها الحياة. لقد رأيتها». عندئذ تبدو عليها الحيرة، ترجوه برقة أن يتركها الآن وحدها. فلما قام لينصرف اقترب منها، مد يده فلمس شعرها. اندهشت وارتبكت؛ لكنها بعد قليل من التردد وضعت يدها على شعره، قالت: «فى كل الأحوال، أنت ونظريتك. تقصد نظريته التى يحاول بها إثبات أنها أمه. ترميان إلى هدف بعيد جداً. أتعنى هذا؟». يومئ: «أعرف، ولكن يستطيع المجاز اختصار المسافة». تقول: «نحن لسنا مجازا». يقول: «أعرف، لكن المجاز يساعد على إزالة الحاجز بينى وبينك». تبتسم فى حيرة: «هذه أغرب عبارة عفوية سمعتها فى حياتى». يقول: «الكثير من الأشياء الغريبة تستمر فى الحدوث لكننى أشعر باقترابى من الحقيقة». تسأله بدهشة: «تشعر باقترابك فعليا من حقيقة مجازية؟ أم تقترب مجازيا من حقيقة فعلية، أو لعلهما يكملان بعضهما البعض؟». يرد: «أى منهما. لا أظن أننى قادر على تحمل هذا الحزن الذى أشعر به الآن». تقول: «وأنا أيضًا لدىّ هذا الشعور». يسألها: «لقد عدت إذن لكى تموتى؟». تقول: «لا أكون صادقة، لست أحاول أن أموت، بل أنتظر أن يأتى إلى الصوت فحسب، كالجلوس على مقعد فى المحطة فى انتظار القطار». ثم تقول: «لقد استهلكت نفسى هباء، ولا أخشى الموت أنا أعرف بالتحديد متى سيحين الوقت».

و... لكأن قطار الموت الذى تنتظره قد تمثل فى المركبات التى استقلها ذلك العجوز صديق القطط الذى شاهدناه يقطع الرحلة الشاقة من طوكيو إلى تاكاماتسو دون أن يدفع أجرا. كانت رحلة غامضة مليئة بالإثارة والدلالات المدهشة. ظللنا لا نعرف هدفه منها إلى أن توقف أمام المكتبة التى يعمل فيها كافكا؛ إنها المكان الذى سعى إليه. صعد إلى مكتب الآنسة سايبكى المديرة. اندهشت من اقتحامه المفاجئ. قال لها كلمة سر مبهمة فاحترمته إلى حد التبجيل، ثم انفردت به وحدثته عن أحوالها؛ اعترفت له بأنها أخيراً مارست الجنس مع صبى، ثم تعطيه الأوراق التى كانت منشغلة فى كتابتها وطلبت منه أن يحرقها. يرحل العجوز بالأوراق ثم يحرقها بالفعل فى مكان ما. بعد ذلك مباشرة تموت سايبكى نتيجة مرض مزمن مجهول؛ فى الوقت الذى وجد فيه كافكا نفسه مجبرا على العودة إلى مسقط رأسه فى طوكيو. فى القطار يقول له الفتى المدعو كرو: «لقد فعلت الصواب، أنت الفتى الأصلى، أقوى فتى فى الخامسة عشرة فى العالم». فتقول شخصية كافكا المستعارة: «لكننى ما زلت لا أعرف شيئاً عن الحياة». فيرد عليه كرو: «انظر إلى لوحة كافكا على الشاطئ واستمع إلى الرياح. من الأفضل أن تنام قليلا وحين تصحو، ستغدو جزءاً من عالم جديد». وهذا ما قد حدث له بالفعل بعد صحوه من غفوة عميقة بعض الشىء.

«انتهى» ■



كتاب الزاوية

«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٤)

السيد الرئيس،

ان لهذا العدو الذى نواجهه سجلا حافلا ضد اليهود أنفسهم، فهنالك فى داخل الكيان الصهيونى تمييز عنصرى بشع ضد اليهود الشرقيين. وإذا كنا نحن ندين بكل ما أوتينا من قوة، مذابح اليهود تحت الحكم النازى، فان القادة الصهاينة كان يبدو ان همهم الاكبر حينذاك هو استغلالها لتحقيق الهجرة إلى فلسطين.

سيدى الرئيس،

لو كان تهجيرهم إلى فلسطين بهدف العيش كمواطنين متساوين معنا بالحقوق والواجبات، لكنا أفسحنا المجال لهم ضمن امكانات وطننا، كما حدث مع عشرات الآلاف من الارمن والشركس الذين ما زالوا بيننا اخوة مواطنين مثلنا تماماً. أما ان يكون هدف ذلك اغتصاب أرضنا وتشريدنا وتحويلنا إلى مواطنين من الدرجة الثانية وانزال المعاملة نفسها بنا، فهذا ما لا يمكن ان ينصحنا احد القبول به أو الاذعان له. ولهذا، فان ثورتنا منذ البداية لا تقوم على اسس عرقية أو دينية عنصرية، وليست موجهة للانسان اليهودى من حيث كونه انساناً، وانما هى موجهة ضد العنصرية الصهيونية وضد العدوان. وبهذا المعنى، فان ثورتنا هى ايضًا من اجل الانسان اليهودى. اننا نناضل من اجل ان يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون بمساواة فى الحقوق والواجبات وبلا تمييز عنصرى أو دينى.

أ – اننا اذن، يا سيادة الرئيس، نفرق بين اليهودية وبين الصهيونية. وفى الوقت الذى نعادى الحركة الصهيونية الاستعمارية، فاننا نحترم الدين اليهودى. واننا نحذر اليوم، وبعد قرابة قرن من بروز هذه الحركة العنصرية، من ان خطرها يتزايد ضد اليهود فى العالم، وضد شعبنا العربى، وضد أمن العالم وسلامته. فالصهيونية لا تزال متمسكة بتهجير اليهود من اوطانهم واصطناع قومية لهم يستبدلون بها قومياتهم الاصلية.

«نحن نعيش على كوكب جديد وما تحمله الأيام القادمة يتوقف على أفعالنا»

بيل ماك كيبين

■■ يمثل الكتاب الجديد لبيل ماك كيبين Bill McKibben استغاثة غاضبة وصرخة مدوية من كاتب كرس جهوده من أجل التحذير من المخاطر التى يشكلها التغير المناخى الذى حدث بفعل الإنسان. إنه يصف التحديات التى سنواجهها إذا لم نتحرك للحد من الانبعاثات – سواء من حيث الآثار التى حدثت للبيئة بالفعل أو من حيث الآثار التى سوف تترتب على انبعاثات الاحتباس الحرارى الصادرة بالفعل أو التى ستحدث فى العقود القادمة. ولكن فى حين أن ماك كيبين يصر على أهمية التحرك القوى لتقليل هذه المخاطر فإنه يكافح من أجل إيجاد مبررات للتفاؤل وكثيراً ما يميل إلى التشاؤم الذى يميز الأعمال الأخيرة للمتخصصين البيئيين الآخرين مثل جيمس لافلاك James Lovelock .

يلخص عنوان الكتاب (الأرض: إيجاد حياة على الكوكب الجاف الجديد) (Eaarth: Making a life on a Tough New planet) الفكرة الأساسية لدى ماك كيبين وهى أننا قمنا بتغيير المناخ إلى درجة قد جعلت هذا الكوكب لم يعد له وجود بالشكل الذى كنا نعرفه، مما يستدعى تسميته باسم جديد Eaarth . الفكرة هى أننا يجب علينا إيجاد طريقة للاعتراف بأن التأثيرات الرئيسية للبشر على الأرض لم تعد جديدة. لقد اقترح باول كروتزون Paul Crutzen – الذى تقاسم جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٩٥ لإيضاحه كيف تسببت مركبات الفلورين والكلور الكربونية المنتشرة فى الأدخنة فى إحداث ثقب فى طبقة الأوزون – منذ عشر سنوات مضت أن يطلق على الحقبة البيولوجية الحالية اسم «انثروبوسين Anthropocene» من أجل تأكيد الدور المركزى للبشرية فى الجيولوجيا والبيئة.

فى عام ٢٠٠٧ أطلق ماك كيبين تنظيم ٣٥٠.org وهى مجموعة مهمتها الدعوة إلى تثبيت تركيزات ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى عند ٣٥٠ جزءا فى المليون. وبالتالى البقاء على قدر الإمكان قريباً من المستويات التى كانت قائمة فى بضعة آلاف سنة مضت قمنا خلالها ببناء حضارتنا. ويقارن ذلك بمستويات الكربون فى مرحلة ما قبل التصنيع حيث كانت نسبة التركيز حوالى ٢٨٠ جزءا فى المليون وفقاً لمركز تحليل المعلومات حول ثانى أكسيد الكربون التابع للحكومة الأمريكية US government¨s Carbon Dioxide Information Analysis Centre.. وإذا أخذنا فى الحسبان الغازات الأخرى المنبعثة والمرتبطة بالاحتباس الحرارى مثل الميثان فيكون المستوى الكلى لثانى أكسيد الكربون وما يكافئه هو ٤٣٥ جزءا فى المليون. ولهذا السبب فإن معظم السياسات المقترحة والرامية إلى السيطرة على تغيرات المناخ قد ركزت على تثبيت مستوى ثانى أكسيد الكربون ومكافئاته عند ٤٥٠ جزءا فى المليون على أساس أن هذا هو أفضل ما يمكن عمله للحد من المخاطر الكبيرة من جراء تغير المناخ.



من المحتمل لنا فى غضون العقد القادم أن نتجاوز هذا المستوى ولكن باتخاذ إجراءات قوية فإن تركيزات غازات الاحتباس الحرارى قد تصل إلى ذروتها فى هذا العقد ولكن بمرور فترة طويلة من الوقت ومع استمرار الإجراءات القوية فإن المستوى سوف يعود إلى ٤٥٠ جزءا فى المليون وقد يقل عن ذلك. أما إن كان سلوكنا ينم عن استمرار الوضع على ما هو عليه فربما نصل فى نهاية هذا القرن إلى تركيزات من شأنها أن تضمن لنا فرصة عالية ربما قد تزيد عن ٥٠٪ لزيادة درجة حرارة العالم بمقدار ٥ درجات أو أكثر عن مستواها فى القرن التاسع عشر. وتعد هذه درجة حرارة لم تتم رؤيتها على هذا الكوكب منذ ٣٠ مليون سنة. ربما يتم بشكل جذرى إعادة رسم خريطة الأماكن التى يستطيع الإنسان العيش فيها وهذا قد يعنى على سبيل المثال تحول بعض المناطق إلى صحارى ومناطق أخرى قد تغمرها المياه وقد تحدث تغيرات جذرية فى أنماط الطقس أو فى مواقع وتدفقات الأنهار. وهذا قد يعنى بدوره حدوث تحركات لمئات أو ملايين أو مليارات البشر ويشير التاريخ إلى أن تحركات الناس على هذا النطاق سوف تتضمن صراعات عالمية حادة وموسعة.



نيكولاس شتين

Nicholas Stern

يفسر ماك كيبين استنتاجه بشأن تغير المناخ بأنه يعتمد على عرض قام بتقديمه عالم ناسا NASA المميز جيمس هانسين James Hansen فى مؤتمر علمى عقد فى ٢٠٠٧ والذى زعم فيه أن ٣٥٠ جزءا فى المليون لابد أن يكون هو الحد الأعلى من تركيزات ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى وأننا بالفعل قد تعدينا المستوى الذى يمكن وصفه «بالآمن» وبعدم وجود احتمالية كبيرة للعودة إلى أقل من ٣٥٠ فإن كتاب ماك كيبين يعد محاولة لإيضاح الكيفية التى يجب أن تتغير بها حياتنا لأن الأرض التى عرفناها – الأرض الوحيدة التى لم نعرف غيرها – قد ولت.

فى الفصل الافتتاحى يقتحم ماك كيبين القارئ من خلال مجموعة من الإحصاءات والحقائق حول التغيرات الواضحة بالفعل. يركز مجهوده ويسعى إلى مواجهة ما يسميه بالمحاولات المضللة لرسم صورة التغيرات المناخية كمشكلة للأجيال المقبلة فقط. تتسم معظم قوائم نتائجه بأنها مدعمة بالهوامش والملاحظات التفسيرية وبالرغم من ذلك فقد يتعرض ماك كيبين للنقد بسبب اعتماده كثيراً على التقارير الإعلامية بدلاً من المراجع العلمية. سوف يحاول البعض من خصومه بلا شك تقويض كتابه من خلال تشريح ما فيه من حقائق ومعلومات ولكن أطروحته الشاملة التى نراها شاهدة على التغيرات المناخية واسعة النطاق تعد صحيحة مدعمة بالأدلة العلمية القوية.

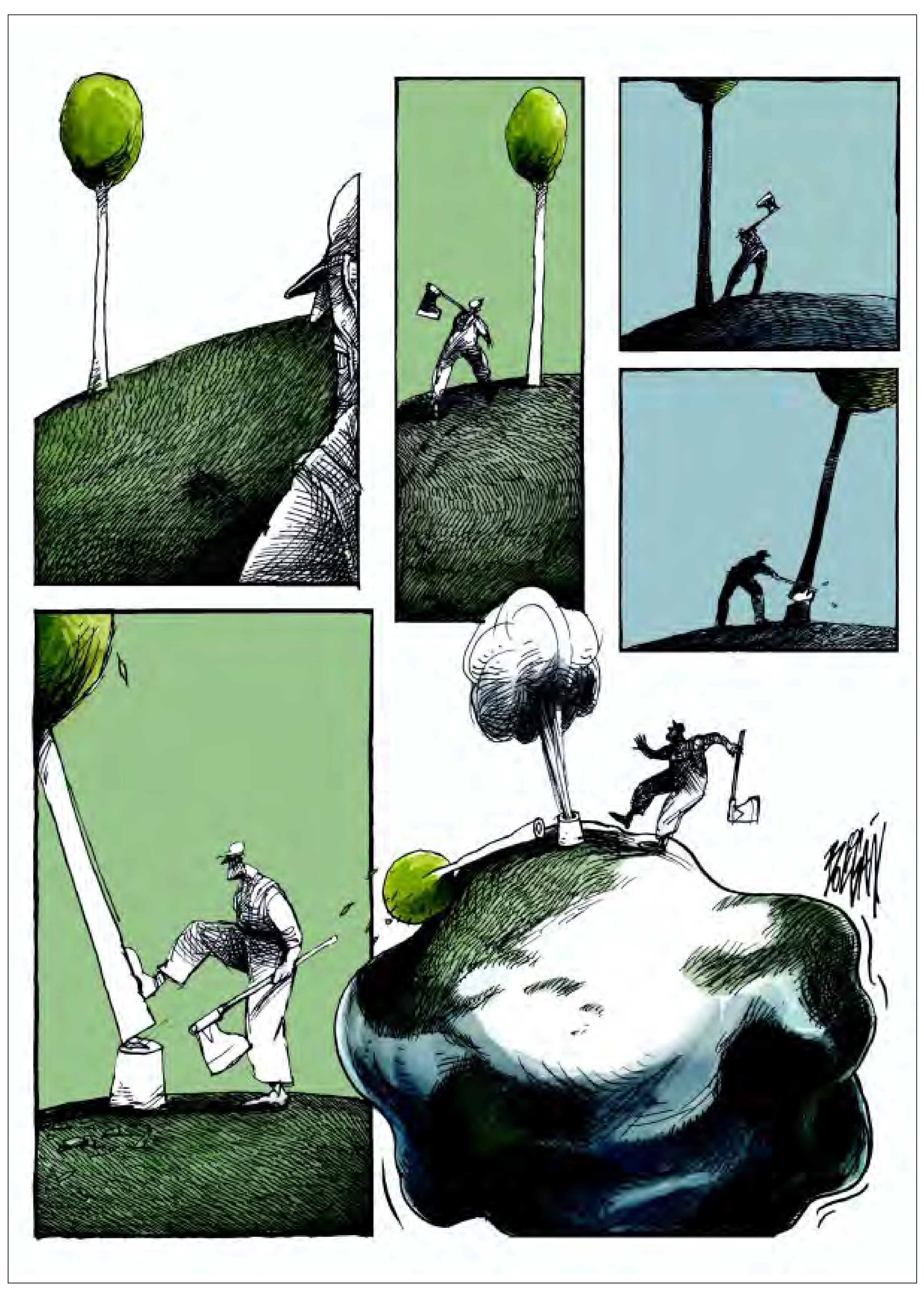
نظرة متأنية إلى التحليل العلمى والأدلة تشير إلى وجود حجة قوية تؤكد على أن مدى

Nicholas Stern is Chair of the Grantham Research Institute on Climate Change and the Environment and I.G.Patel Professor of Economics and Government at the London School of Economics and Political Science. He is the author, most recently, of *The Global Deal.* (June 2010)

Eaarth: Making a Life on a Tough New Planet
By Bill McKibben
Times Books, 253pp.,$24.00

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة إيمان عبد الهادى الكيلانى



السيطرة على التغيرات المناخية يشكل مخاطر هائلة. فى عام ١٨٢٤ لاحظ جوزيف فوريرJoseph Fourier أن سطح الأرض أكثر دفئاً مما لو قيست حرارته بدون غلافه الجوى. منذ مائة وخمسين عاما أوضح جون تيندالJohn Tyndall من خلال سلسلة من التجارب أن وجود الغازات مثل ثانى أكسيد الكربون هو المسئول عن إحداث تأثير الاحتباس الحرارى، من حيث محاصرة الغلاف الجوى لضوء الشمس والحرارة.

فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ العالم السويدى سفانت أرينيوسSvante Arrhenius فى حساب الحجم المحتمل للحرارة التى ستنجم عن زيادة غازات الاحتباس الحرارى فى الغلاف الجوى وفى منتصف القرن العشرين تم فهم بعض الآليات الفيزيائية وراء تأثير الاحتباس الحرارى. جوهر ما يحدث هو أن جزيئات غازات معينة عالقة فى الجو تتداخل مع الإشعاع ذى الأطوال الموجية الأكبر والذى ينشأ عند انعكاس أشعة الشمس من على سطح الأرض مما ينتج عنه محاصرة حرارة الشمس داخل الغلاف الجوى. فى الأربعينيات انتقل Walter Elsassar إلى رؤية نابعة من علم الظواهر والأحوال الجوية آخذاً فى الاعتبار ما ساد حول ظاهرة الامتصاص فى العشرينيات والثلاثينيات.

نحن الآن نعلم أن تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى يزيد بمقدار الثلث عما كان عليه قبل أن نبدأ فى حرق الفحم وغيره من مواد الوقود الخام على نطاق كبير مع ظهور التصنيع وأكثر مما كان عليه على الأقل منذ ٨٠٠٠٠٠ سنة. كنتيجة لذلك فقد بدأت معدلات درجات الحرارة فى التزايد على مستوى العالم بحوالى ٠.٧ درجة فى المائة سنة الماضية. وسوف تستمر درجات الحرارة فى التزايد على الأقل فى خلال العقدين القادمين استجابة للمستويات الحالية من غازات الاحتباس الحرارى حتى لو أوقفنا انبعاثاتها اليوم. ومع ارتفاع درجات الحرارة فإن التغيرات القادمة لن تكون فى الطقس والحرارة القصوى فقط ولكنها تغيرات حاسمة فى المياه والفيضانات والجفاف وتدفقات الأنهار وارتفاع منسوب مياه البحر. بعبارة أخرى تغيرات فى المحددات التاريخية الأساسية لكيف وأين نعيش حياتنا.

وهكذا فإن ظاهرة الاحتباس الحرارى ليست شيئاً وهمياً وليست محاولة لشرح بعض العلاقات المتضاربة، إنها علم أساسى تم بناؤه فى خلال ما يقرب من مائتى سنة. ولقد تراكمت الأدلة فى المعامل من خلال الملاحظة وكانت مدعمة للنظرية الأساسية ومتفهمة للآثار الرئيسية. كانت الأدلة تتضمن البيانات الأساسية للجليد والتى تعود إلى ٨٠٠٠٠٠ سنة ماضية وتشمل تقديرات تقريبية لكل من ثانى أكسيد الكربون ودرجة الحرارة ودرجات حرارة أكثر تفصيلاً على مدى مائة وخمسين سنة ماضية والقياسات الأخيرة الأكثر دقة لمستويات انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحرارى فى الغلاف الجوى.

يترنح هذا النموذج على حافة القبول ويتطلب تعديلات خاصة وإضافات للإبقاء عليه كلما ظهرت أدلة أكثر صعوبة. على النقيض من ذلك فهناك أساس علمى من خلال رؤية نظرية تنمى بقوة أدلة مختلفة الأنواع من التراكمات. إنها ادعاءات مختلفة من قبل المتشككين يتضح عليها عدم القدرة على تفسير البيانات مثل الادعاء بأن ذلك هو نتيجة لحرارة الجزر الحضرية أو التقلبات قصيرة الأجل مثل النينو والنينا El Nino-La Nina وهكذا. لم تستطع أى من هذه المحاولات تفسير كوامن هذا الاتجاه العالمى القوى.

وفى الوقت نفسه يجب علينا أن نعترف بأن التنبؤات لابد أن تعنى المخاطر وعدم اليقين والاحتمالات. فهناك شك حول الانبعاثات فى المستقبل، وحول إمكانيات امتصاص غازات الاحتباس الحرارى بواسطة الأراضى والغابات والمحيطات وحجم السخونة الناشئة عن تغير مستويات غازات الاحتباس الحرارى وحول الآثار المترتبة على تغيرات المناخات المحلية على المستوى العالمى. إن المسألة بالنسبة للسياسة هى كيفية إدارة الخطر. مع الأخذ فى الحسبان بالدليل العلمى القوى أن المخاطر يمكن أن تكون كبيرة جداً. ليس الموقف هو وجود احتمالات صغيرة لمجرد شىء مقزز وكريه ولكن هناك احتمالات كبيرة لشىء كارثى.

إن إنكار الحاجة الملحة إلى اتخاذ إجراءات قوية فى مواجهة كل الأدلة يشكل خطراً ويمثل ردة فعل غير علمية ولا عقلانية. إنه يعد غير علمى لأنه يرفض صوت العلم والدليل المبنى على مدى فترة طويلة. ويعد غير عقلانى لأن مثل هذا الإنكار يتطلب الاستعلام عن جوانب قد تكون أكثر من مجرد جوانب علمية. إنه يتطلب قدراً عالياً من الثقة فى أن النتائج العلمية خاطئة وأن المخاطر صغيرة حيث ستكون عواقب الاعتراف بأن العلم على صواب أم على خطأ مختلفة جداً.

التصرف من منطلق خطأ الأدلة العلمية سوف يؤدى بنا إلى مستويات من ثانى أكسيد الكربون تحمل مخاطر هائلة إذا كان العلم صائباً. التصرف من منطلق أن النتائج العلمية صحيحة قد يدفعنا إلى الإفراط فى الاستثمار فى تطوير تكنولوجيات منخفضة الكربون والمبالغة فى حماية الغابات إذا كانت النتائج العلمية مائلة إلى الخطأ. ولكن هذه الإجراءات لا تخلو من كونها تحمل فوائد أخرى كبيرة فى مجال تأمين الطاقة وكفاءتها والتنوع البيولوجى إلى آخره. أخيراً، فإن إنكار الحاجة الملحة لاتخاذ إجراء قوى يمثل خطورة لأن العملية التى من خلالها تتزايد تركيزات الانبعاثات لها تأثير يتزايد تدريجياً وتأخير اتخاذ الإجراء من شأنه أن يؤدى إلى المزيد من التركيزات مما يصعب من نقطة البداية.

هناك الكثير من العمل العلمى للقيام به ومن المرجح أن تبقى العديد من الشكوك. ولكن الأدلة قاطعة بأن المخاطر كبيرة وأن التأجيل يمثل خطراً. إن ما تمثله هذه النظرية من وزن وأدلة بدون شك هو ما يجعل هؤلاء المنكرين للتغيرات المناخية الناشئة عن الاحتباس الحرارى ملزمين باللجوء إلى تكتيكات شبيهة بتلك التى استخدمت منذ عقود قليلة مضت لتفنيد تأثير التدخين على الصحة. أحد هذه التكتيكات هى العثور على بحث أو اثنين من الأبحاث العلمية الضعيفة أو غير الصحيحة من بين الآلاف من الأبحاث الجيدة واستخدامهما كتشهير ضمنى على البقية الباقية. تكتيك آخر هو الاستفادة من حجة غير منطقية تقول بأن الشكوك الباقية تعنى أن الافتراض الأفضل هو أن المخاطر تكاد لا تذكر. تكتيك ثالث بالمحاولة المتعمدة لتشويش اتجاهات ودوائر التفكير وكما هو الحال بالنسبة لقضية التدخين فهناك مصالح خاصة وقوية على استعداد لتمويل زرع بذور الشك.

فى الفصلين الثانى والثالث من كتابه يعرض ماك كيبين تحليله للكيفية التى وصلنا بها إلى الوضع الحالى ويحدد لحظة ما فى عام ١٩٧٠ حيث كان بالإمكان أن نرسم مساراً مختلفاً. تنقل كلمات ماك كيبين حزناً حقيقياً عندما يفسر كيف قادت حركة النمو الاقتصادى القائمة على النفط والغاز فى العقود التالية الكوكب إلى نقطة الانهيار.

فى الفصول الثلاثة الافتتاحية من الكتاب يبتكر ماك كيبين رؤية مروعة تطرح سؤالاً حول السبب الذى يجعلنا نتكبد عناء محاولة تقليل الانبعاثات الآن. وفى الفصل الأخير فقط يقدم «لمحات» خاطفة من التفاؤل. وهو ينتقد سعى المشروعات الوطنية الطموحة



إن العالم يحتاج تقييماً دقيقاً للخيارات التى سوف تطرح للتعامل مع الأطراف الرئيسية لأى اتفاق ولابد من حدوث هذا قبل أن تجرى أية مفاوضات بناءة



لتحقيق النمو ليس فقط بسبب تفاقم مشكلة التغير المناخى ولكن لاحتمال خلق أزمة فى الطاقة مع تناقص احتياجات النفط. إن الحل المقترح لديه هو العودة إلى الاقتصادات المحلية على نطاق أصغر بهدف القوة بدلاً من التوسع.

يروى ماك كيبين قصة قوية بوضوح عال وإقناع عميق. بالنسبة لشخص من خارج الولايات المتحدة فقد يكون الأمر محبطاً أن يقدم وجهة نظر حول التحدى العالمى لتغير المناخ والذى يركز بشكل حصرى على الولايات المتحدة. ليس هناك شك فى أن العمل من جانب الولايات المتحدة وهى ثانى أكبر مكان للانبعاثات يعد أمراً حيوياً إذا كان العالم يتعاون فى الحد من الانبعاثات إلى النطاق المطلوب. وهناك دول أخرى تنظر للولايات المتحدة كرائدة وذلك نظراً لثرواتها وتكنولوجياتها وارتفاع انبعاثاتها فى الوقت الراهن والماضى. ولكن حدث تباطؤ فى اتخاذ الإجراءات بسبب الشكوك بين العامة من الجمهور حول حجم بل وجود هذه المشكلة. هذه الشكوك تم تدعيمها من قبل الحجج المشوهة التى يسوقها أصحاب المصالح فى إبقاء الوضع على ما هو عليه فالولايات المتحدة صاحبة جمهور حاسم.

بينما كان ماك كيبين يصف كيف يؤثر تغير المناخ فى وطنه الأم ولاية فيرمونتVermont فقد فاتته الفرصة لتسليط الضوء على حقيقة أن هؤلاء الذين تعرضوا للضرر الأسوأ والأسرع وهم الفقراء والمستضعفون فى الدول النامية. وفى هذا الصدد فربما يشكل هجومه على النمو الاقتصادى نداء لبعض الأغنياء الموسرين فى الدول الغنية ولكنه لا يشكل طريقة واقعية للمضى قدماً بالنسبة للدول النامية. تشكل التنمية الاقتصادية السبيل الوحيد للخروج من الفقر بالنسبة لمليارات من البشر. مما لا شك فيه أنه يجب فهم التنمية الاقتصادية أكثر من ارتفاع الاستهلاك الذى كان يقاس بشكل تقليدى وفى الوقت نفسه فيجب أن نرى أن التقدم فى التعليم والصحة والبيئة ومختلف أبعاد التنمية قد يكون أسهل فى إدارته إذا كان هناك نمو فى الاستهلاك والدخل.

فى عدد من النقاط يشيد ماك كيبين بأحد الإصدارات التى نشرت فى عام ١٩٧٢ ويعتبرها على رأس المنحنى إنها «حدود النمو» Limits of Growth التى صدرت بتكليف من نادى روماClub of Rome مع التركيز على النمو الاقتصادى الهائل الذى تحكمه قيود ثابتة مثل توافر البترول. هنا توجد قضية أساسية عملية وتحليلية قد اختلف فيها مع ماك كيبين وهى أن المضى قدماً على طريق الاقتصاد ذى الكربون المنخفض يحتاج إلى إيجاد طرق جديدة للاستهلاك والإنتاج وبالتحديد فى استبدال الغاز والنفط. وهذا يعنى الابتكار والاستثمار فى تكنولوجيات جديدة وأنشطة من شأنها توفير الموارد وعدم إنتاج المزيد من غازات الاحتباس الحرارى أو إزالة الموجود منها بالفعل فى الجو.



إن إمكانيات العثور على بدائل للنفط والغاز وإيجاد التقدم التكنولوجى الأخضر كان أهم ما أكد عليه «Limits of Growth» وهكذا فإن هذه الافتراضات تسمح لمؤلفى هذا الكتاب بالادعاء بأنه يمكن للنمو بل ينبغى له أن يتوقف وهذا ما يجب علينا مواجهته من أجل خلق اقتصاد الكربون المنخفض. فإذا توقف الاقتصاد عن النمو الآن مع استمرارنا فى استخدام التكنولوجيات الحالية. فإن المستويات الحالية من الانبعاثات العالمية السنوية التى تقترب من خمسين مليار طن مترى من معادلات ثانى أكسيد الكربون سوف يشتمل على تركيزات فى الغلاف الجوى تصل إلى ٧٠٠ جزء فى المليون فى غضون قرن من الزمن وهذا ينطوى على مخاطر كبيرة.

يتمثل التحدى فى كسر الرابطة بين الإنتاج الاقتصادى والانبعاثات وإذا كنا نستطيع (وفى الواقع إننا نستطيع بل يجب علينا) فإن النمو قد يستمر لبضعة عقود أخرى، وهذا لا يعنى إلى أجل غير مسمى كما قال وودى ألينWoody Allen «إن الخلود حقاً طويل وخاصة قرب النهاية.» ولكن بضعة عقود من النمو الاقتصادى مع سياسات مصاحبة تركز على التنمية ولا سيما بين الفئات الأشد فقراً- لستة مليارات من الفقراء الذين يعيشون فى الدول الفقيرة (مقارنة بمليار واحد ممن يعيشون فى الدول الغنية)- من شأن ذلك أن يتيح إلى حد كبير للفقراء الفوز فى المعركة ضد الفقر.

إن المدافعين عن «حدود النمو» Limits of Growth والآخرين الذين يقولون بأن نمو الكربون-المنخفض يعد مكلفاً وأننا نستطيع أن نستمر فى نمو الكربون العالى، كلاهما يقع فى نفس الخطأ. إنهم يتبنون وجهة نظر تجسد «إحلالا محدودا» و«تقييد نطاق الاستثمار فى التكنولوجيات المتغيرة» إنهم يتبنون نظريات نمو تعود إلى القرن العشرين. إن ما نحتاجه الآن هو النظريات الاقتصادية لأواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين والتى تظهر أننا نستطيع الاستثمار فى اكتشاف ونشر التكنولوجيات الجديدة وهذا النشر فى حد ذاته سوف يكون له آثاره فى توفير الطاقة كما أن الناتج التكنولوجى والبيئة الطبيعية مرتبطان معاً بشكل وثيق ويعتمد كل منهما على الآخر.



إن ظاهـــرة الاحتبـــاس الحرارى ليســت شيئاً وهمياً وليســت محاولة لشرح بعض العلاقات المتضاربة، إنها علم أســـاسى تـــم بنـــاؤه فـــى خـلال ما يقـــرب مـن مائتى سنة



نحن أيضاً نحتاج إلى أدلة عملية لما هو ممكن، والذى سوف يكون أساسياً لتوليد التغيير. على سبيل المثال إن تكلفة رأس المال للكهرباء الشمسية تتجه بسرعة نحو الهبوط كما أن شبكات DC×× للضغط العالى توفر تكلفة نقل الكهرباء إلى حد كبير. إن الطاقة المتجددة من مناطق متفرقة (بتقلبات مختلفة فى الشمس والرياح) يمكن نقلها بناء على ذلك على مدى مسافات طويلة. مع كهرباء خالية من الكربون نستطيع أن نحصل على نقل برى خالٍ من الكربون ولأن التقدم التكنولوجى يمضى سريعاً فسوف نجد العديد من هذه التطورات على طول الطريق. إن قوة هذه الأمثلة بالغة الأهمية ويتوجب علينا أن ننظر بشكل خاص للدول الغنية بثرواتها الأعظم وتكنولوجياتها الواجب عليهم أن يقدموها.

لقد بدأنا بالفعل فى توظيف ما سيمثل طاقة أكثر ديناميكية وابتكاراً إنها تعد ثورة صناعية فى تاريخنا الاقتصادى: إنها الانتقال إلى النمو منخفض الكربون Low-Carbon Growth، وهذا النمو سوف يتميز بوفرة مصادر الطاقة وأمانها وهدوئها ونظافتها وتنوعها البيولوجى الأكثر. أما النمو عالى الكربون High-Carbon Growth فسوف يقتل نفسه لسببين الأول التكلفة العالية الناجمة من استخدام النفط والغاز والثانى والأكثر عمقاً هو ما يخلقه من معاداة للطبيعة.

ليس هناك شك فى صدق ماك كيبين وقدرته على التواصل مع حجم المخاطر التى نواجهها. ولكنه لديه تكهنات منذرة بكارثة ومتشائمة حول إمكانية تجنب حتى التغيرات المناخية الوخيمة الناجمة عن الاحتباس الحرارى بسبب التطورات الأخيرة على المستوى المحلى والعالمى. على الرغم من كون مؤتمر الأمم المتحدة للتغيرات المناخيةUnited Nations climate change conference – والذى عقد فى كوبنهاجنCopenhagen – مخيباً للآمال فى نواحٍ كثيرة إلا أنه كان من الممكن أن يكون أسوأ بكثير. لقد وضع اتفاق كوبنهاجن الذى شاركت فيه كل من البرازيلBrazil، الصينChina، الهندIndia، جنوب أفريقياSouth Africa، والولايات المتحدة US أسساً- اتسمت بالهشاشة - للمناقشات حول معاهدة دولية، فلن تكون عملية بناء اتفاقية

عملية سهلة ولكـــن تقدمـــاً ملموســاً تـم إحرازه فى الشهور الأولى من ٢٠١٠. يقر الاتفاق بأن السياسات المناخية لابد أن تسعى إلى الحد من الارتفاع فى متوسط درجات الحرارة العالمية بما لا يزيد عن ٢ درجة مئوية فوق مستويات ما قبل الصناعة. أظهر تحليل من قبل زملائى - فى معهد بحوث جرانثام حول تغير المناخ والبيئةGrantham Research Institute on climate change and Environment فـى كـلـيـــة لــنــدن لــلاقـــتـــصـــادLondon school of Economics - أنه للوصول إلى فرصة معقولة مثل فرصة ٥٠٪ للتوصل إلى هـدف ٢ درجـة مـئـويـة لابـد أن تـقـل الانبعاثات السنوية العالمية من غازات الاحتباس الحرارى مـن ٤٧ مـليـار طن مترى من معادلات ثانى أكسيد الكربون إلى ٤٤مليارطن مترى عام ٢٠٢٠ ثم إلى أقل بكثير عن ٣٥ مليار طن مترى عام ٢٠٣٠ ثم إلى أقل بكثير عن ٢٠ مليار طن مترى عام ٢٠٥٠ .

أعلنت حتى الآن أكثر من مائة دولة من الدول المتقدمة والنامية انتسابها إلى اتفاقية كوبنهاجنCopenhagen Accord وسجلت خمس وسبعون دولة - وهـم مسئولون بشكل جماعى عن ٨٠٪ من الانبعاثات العالمية الحالية لغازات الاحـــتـــبـــاس الحـــرارى- الأهـــداف والإجراءات التى تعتزم اتخاذها وهى الآن موثقة فى ملاحق الاتفاقية.

إذا أعربت الدول عن نواياها العالية فى التخفيض وكانت الخطط المقدمة لـدى اتـفـاقـيـة كـوبـنـهـاجـن تـتـضـمـن انبعاثات سنوية عالمية تبلغ ٤٨ مليار طن مترى من معادلات ثانى أكسيد الكربون فى ٢٠٢٠، وبينما ينطوى ذلك على أن الانبعاثات سوف تصل إلى الذروة عام ٢٠٢٠ إلا أنه مع ذلك قد تنخفض إلى المستهدف من «المسئولية المناخية» وهى ٤٤مليار طن مترى. قد تظل الانبعاثات السنوية ٤٨ مليار طن مترى كامتداد وستكون متسقة مع هدف الدرجتين المئويتين برغم اشتمالها على المزيد من الـصـعـوبـات والـتـكـالـيـف المـرتـبـطـة بالتخفيض السنوى للانبعاثات خلال الـعـقـود بـعـد ٢٠٢٠. تـمـثـل الإجـراءات المـقـتـرحـة مـن الآن وحـتـى ٢٠٢٠ فـى ملاحق الاتفاقية تخفيض ما يتراوح بين ٧-٨ مليارات طن مترى مقارنة بمستوى تقريبى للإنبعاثات يبلغ ٥٥-٥٦ مليار طن مترى تحت المستوى المعتاد مـن الـعـمـل. وهـكـذا فـإن الإجـراءات المخططة ستأخذنا على ثلثى الطريق من ٥٦ مليار طن مترى إلى ٤٤ مليار طن مترى.

فى حين أننا نحقق بداية إلا أنها ما هى إلا بداية متواضعة وليس هناك حتى الآن ما يبدو أنه اعتراف كاف بحجم التحدى المتمثل فى التكيف وأخطار التأجيل. يجب ألا يزيد متوسط انبعاثات العالم عن ٤ طن مترى للفرد الواحد من معادلات ثانى أكسيد الكربون بحلول ٢٠٣٠ وحوالى ٢ طن مترى للفرد بحلول ٢٠٥٠، المتوسط الحالى هو سبعة أطنان للفرد الواحد. بالنسبة للولايات المتحدة فإن المتوسط يزيد عن عشرين طن مترى، فى أوروبا المتوسط من عشرة إلى اثنى عشر طن مترى، فى الصين ما يقرب من ستة طن مترى والهند أقل من اثنين طن مترى وفى جزء كبير من الصحراء الكبرى فى أفريقيا المتوسط أقل من طن مترى واحد للفرد. وفى الوقت نفسه يجب أن ندرك ان التغيير ليس فقط ممكناً ولكن التحول سوف يكون ديناميكياً وخلاقاً مع الابتكارات الدافعة للنمو. إن هدف اقتصاد الكربون المنخفض يعد طريقة جذابة للاستهلاك والإنتاج. إن كتاب ماك كيبين سوف يساعد بالتأكيد على تحسين التفاهم بين شعب الولايات المتحدة.



عندما غادر زعماء العالم وفرق التفاوض الخاصة بهم كوبنهاجن فى ديسمبر الماضى، لم يكن واضحاً مدى صلابة البرنامج الذى خلقته الاتفاقية. حيث لم يكن من المضمون أن يقدم ذوو الإنبعاثات الأعلى خطط عمل بحلول ٣١ يناير ولكن هذا قد حدث. فضلاً عن ذلك وعلى النحو المبين فى الاتفاقية فقد تم تأسيس مجموعة استشارية رفيعة المستوى معنية بتغيرات المناخ-High-Level Advisory Group on Climate Change بتمويل من قبل الأمين العام للأمم المتحدة تحت الرئاسة المشتركة لرؤساء وزراء أثيوبيا والمملكة المتحدة وقد بدأت عملها بالفعل. كان اقتراح المجموعة الاستشارية توفير مائة مليار دولار سنوياً بحلول عام ٢٠٢٠ بما فى ذلك الموارد من القطاعين العام والخاص وسوف تتدفق هذه الأموال من البلدان المتقدمة إلى البلدان النامية من أجل دعم التكيف مع تخفيض الانبعاثات والتخفيف من الآثار المترتبة على ذلك.

يجرى إحراز تقدم يتعلق بهيكل العمل من أجل الحفاظ على الغابات وزراعتها، تم ذلك من خلال اجتماع بناء عقد فى مارس بقيادة فرنسا والنرويج وبمشاركة واسعة من قبل العديد من الدول الاخرى، بما فى ذلك الدول ذات الغابات المطيرة. عموماً فقد تم وضع اللبنات الأساسية لاتفاقية سياسية حساسة وذلك تمهيداً للاجتماع المقبل للأطراف المعنية والذى سيكون فى إطار اتفاقية الأمم المتحدة بشأن تغير المناخ United Nations Conviction on Climate Change والذى سوف يعقد فى كانكونCancun بنهاية هذا العام.

إن العالم يحتاج تقييماً دقيقاً للخيارات التى سوف تطرح للتعامل مع الأطراف الرئيسية لأى اتفاق ولابد من حدوث هذا قبل أن تجرى أية مفاوضات بناءة. فيما يتعلق بقضايا التمويل وحماية الغابات فإن هذا التحليل والتقييم سوف يجرى من خلال طرق دولية موثوق بها من قبل المجتمع الدولى. هناك حاجة ملحة لآليات المطابقة من أجل التطوير والمشاركة التكنولوجية ومن أجل القياس الموضوعى للانبعاثات من جانب الدول. إذا كان فى الإمكان تنفيذ عمليات تقييم خيارات التعامل مع هاتين المسألتين بسرعة. فإن العالم سوف يكون قد أعد نفسه لمناقشات سليمة ومثمرة فى كانكونCancun . فى غياب مثل هذه التحضيرات الأساسية فإن المفاوضات التى يقوم بها الموظفون الدوليون - حول القضايا التى تتطلب أسساً فنية وتقييماً لمخاطر السياسات المعقدة - سوف تكون فوضوية ومضللة وغير مثمرة. ولكن إذا وضعنا الأسس، فإن الدول من جميع أنحاء العالم تستطيع أن تمضى قدماً ولديها ثقة بوجود ردود بناءة لأكبر اثنين من التحديات التى تواجهنا فى قرننا هذا، التغلب على الفقر وإدارة تغير المناخ.

سوف يضيف كتاب ماك كيبين اللافت والمقنع الكثير إلى الشعور بعجلة والحاح وأهمية الأمر وسوف يضيف الواقعية إلى حالة من التكيف القوى مع التغيرات التى جلبتها أفعالنا السابقة والحالية إلى عالمنا الطبيعى، ولكنه يهدد بتقويض الثقة فى استطاعتنا إيجاد طريقة للتقدم إلى الأمام. وليست هذه نية ماك كيبين كما ذكر ذلك بصراحة بالغة. ومع ذلك فإنه شديد التشاؤم فيما يتعلق بقدرة العالم على الاستجابة، ربما يكون هذا التشاؤم جزءاً من التكوين الذاتى له. نستطيع بشكل جذرى تقليل المخاطر التى نواجهها من خلال تحليل الصوت، خيال المتعلمين، القيادة القوية والروح التعاونية، هذه الأشياء تستطيع أن ترسم الطريق لثلاثة أو أربعة عقود من الابتكار والإبداع العظيم وإرساء الأسس من أجل عالم أوفر حياة وأكثر تعاوناً وأكثر إنصافاً. ■



إن الدول من جميع أنحاء العالم تستطيع أن تمضى قدماً ولديها ثقة بوجود ردود بناءة لأكبر اثنين من التحديات التى تواجهنا فـى قرننـــا هـــذا، التغــــلـب عـلـى الـفـقـــر وإدارة تغيـــر المنـــاخ



مـــلاحـــظـــات:

● ٢٠١٠/١٠/١٠ يوم له أهمية خاصة فهو احتفال بيوم عمل عالىGLOBAL WORK PARTY من أجل الأرض، بدأ أعضاء فريق تنظيم ٣٥٠.org وغيرهم من الأعضاء المنتسبين للتنظيم من جميع أنحاء العالم فى تجهيز مقترحاتهم بشأن الحلول التى تستهدف إعادة إصلاح المناخ سوف يكون هذا اليوم بمثابة ورشة عمل عالمية هدفها الأساسى هو إعادة مستوى ثانى أكسيد الكربون إلى المستوى الآمن«٣٥٠ جزءا فى المليون» بدلاً من المستوى الحالى «٣٩٢ جزءا فى المليون» وفقاً لأحدث القياسات./المترجمة

●● شبكات DC "direct current grids» هى شبكات تعتمد على توليد الكهرباء اعتماداً على قوة الرياح./ المترجمة

لماذا...
لماذا...

مأزق التفكير بهذه الطريقة



علي جمجوم

لا أعرف فيلسوفًا في تاريخ الفلسفة كله حقق ثورة عقلية بضخامة الثورة التي حققها الفيلسوف الإنجليزي الفذ ديفدهيوم

■■ هو أكثر قوانين أو مبادئ العقل ألفة وأصالة منذ فجر التاريخ - ذلك هو قانون أو مبدأ السببية - لهذا فإن البحث فيه عسير - ومما يزيد في عسرته أننا سوف ننتقده - أي سوف ننقد قانون السببية ونبين أنه قانون خاطئ - لكن المفارقة تكمن في أننا سوف ننقده في هذا البحث بأدوات وفعاليات في التفكير أهم مقوماتها هو هذا القانون - قانون السببية!.

ولبيان ذلك في عجالة نقول إنه لعمل أي بحث لابد من طرح تساؤلات من قبيل كيف؟ لماذا؟ وهذا معناه أننا نسأل عن أسباب أو علل لنجيب عليها أي أننا نفكر بشكل سببي - فإذا كان هذا البحث هدفه هو بيان تهافت قانون السببية اتضحت المفارقة على الفور - وبالرغم من ذلك فإنني أطالب بإلغاء كلمتي لماذا وكيف في مجال معين من الأبحاث المتعلقة بفيزياء الكوانتا Quantum Physics.

وهكذا كُتِبَ علينا أن نفكر ونبحث بشكل فصامي - شكل يرفض مبدأ السببية وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يبحث ويفكر إلا بمبدأ السببية - بعبارة صريحة نقول: إن عقلنا يعمل بقانون السببية حتى في رفضه لقانون السببية!

لقد أصبح من آليات الذهن البشري منذ فجر التاريخ أن كل حادث في الطبيعة لابد أن يكون له مُحدث - وعلى هذا سأل الإنسان عن من الذي أحدث أو خلق الكون - فكانت الإجابة عبر ديانات كثيرة على رأسها المسيحية والإسلام - إنه الله. فإذا سأل أحد مواصلاً تطبيق قانون السببية: ومن الذي خلق الله؟ كان كافراً إذا كان المحاور متزمتاً دينياً وفكرياً - أما إذا لم يكن فإنه سيصاب بالحيرة - لماذا؟

لأنه طبقاً لقانون السببية فإن الذي خلق الكون هو الله - ولابد أن يكون هناك خالق لله وليكن س - وهلم جرا لابد أن يكون هناك خالق لـ س هو ص مثلاً - ولن تنتهي السلسلة - هذا ما يفضي بنا إليه التفكير بقانون السببية بخصوص هذه القضية: من خلق الكون؟ الفيلسوف يستطيع الخروج من هذا المأزق بأن يسأل الأسئلة التالية:

١- من المسئول عن هذا المأزق؟

الجواب: التفكير بقانون السببية.

٢- هل من المعقول أن نكون قد ولدنا من أرحام أمهاتنا ونحن نفكر بهذا القانون اللعين - قانون السببية؟

الجواب: في الغالب لا.

٣- وما الذي جعلنا نفكر بهذا القانون اللعين الذي أوصلنا لهذا المأزق.

الجواب: الطبيعة وسننها - أحداث الطبيعة كلها تحقيق وتجل لقانون السببية - فحادث سقوط الأمطار له أسباب - ووجود الشجر أسبابه معروفة ألا وهي وجود بذرة في التربة وسقوط المطر على التربة فسبّب ذلك نمو البذرة فأصبحت شجرة - وقل مثل ذلك على كل أحداث الطبيعة - مثلاً وُجِدَ رجل مقتول بسكين بطعنة في قلبه والسكين مرشوقة في قلبه - إذن لابد من وجود شخص ما قد قام بقتله.. وهلم جرا.

وعلى هذا فإن أحداث الطبيعة قد علمتنا أن لكل حادث مُحدِثًا - أي علمتنا الطبيعة أن نفكر بقانون السببية.

لهذا سألنا: من خلق الطبيعة ومن خلق خالق الطبيعة - أي أن طريقة التفكير بقانون السببية ليست فطرية أو قبلية - ولكنها تجريبية مكتسبة.

ما معنى كل ما سبق؟

معناه أنه قد يكون تطبيق طريقة التفكير بقانون السببية على مسألة من خلق الله خاطئة - لماذا؟ لأننا قد تعلمنا طريقة التفكير هذه - أقصد التفكير بقانون السببية من خلال تفاعلنا مع جزء صغير جداً من الكون هو الطبيعة (أو العالم الماكروسكوبي - العالم الكبير - عالم الحواس) ونحن نجهل بقية أجزاء الكون - بل نجهل الكثير جداً من خصائص المادة - أليس من الممكن أن تعلمنا بعض أجزاء الكون المجهولة لدينا الآن قوانين في التفكير يمكن أن يكون ضمنها قانون لا يلزمني بالتفكير بقانون السببية - أي يكون قانونا لا سببيا؟

الجواب (بافتراض عدم العلم): جائز جداً.

كما أنه ليس مستبعداً أن نكتشف بعض خصائص للمادة تعلمنا التفكير بشكل لا سببي.

ما عرضناه إلى الآن يبين إلى أي مدى كان ولا يزال التفكير بقانون السببية غائراً في العقل البشري - وأقول لا يزال لأنني ببساطة لم أبين ما بنيته إلى الآن إلا وعقلي يعمل بقانون السببية. معنى ذلك أن العقل يرتاب في نفسه - لأجل هذا فأنا أقول إنني لا أعرف فيلسوفاً في تاريخ الفلسفة كله حقق ثورة عقلية بضخامة الثورة التي حققها الفيلسوف الإنجليزي الفذ ديفدهيوم (١٧١١-١٧٧٦). ذلك لأنه تجرأ وثار على أكثر مبادئ العقل ألفة وأصالة منذ فجر التاريخ - ألا وهو مبدأ السببية - بحيث نستطيع أن نقول إنه أول فيلسوف يستطيع أن يخرج خارج العقل ويعاينه من الخارج - وللأسف لم تستثمر هذه الثورة إلى نهايتها - ربما لأن أفق العصر الذي عاش فيه هيوم كان لا يحتمل مثل هذا الاستثمار - علاوة على أن الأقدار قيدت له فيلسوفا عظيما آخر معاصراً له ولكن أقل عظمة منه - على الأقل من وجهة نظري أنا - هو إمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) ليقضي على فرص استثمار هذه الثورة على قانون السببية لهيوم - ذلك لأن كانط وضع نظرية في المعرفة قوامها أن العقل له دور فعال في المعرفة بما يمتلكه من قوالب (سماها مقولات) قبل التجربة الحسية أو قبل الخبرة الحسية - هذه القوالب أو المقولات مع الإحساسات هي شرط للمعرفة - وإحدى هذه المقولات مقولة اسمها السببية - مما يمثل نكوصاً لنظرية هيوم بخصوص قانون السببية حيث أصبح قانون السببية مفهوما أو مقولة أو مبدأ قبليا

للمعرفة. يقول كانط فى مستهل كتابه «نقد العقل الخالص» فى الطبعة الثانية له ما يأتى:

«كتب على العقل الإنسانى أن يتسم بهذه السمة المميزة، وهى أنه - فى جانب من جوانب علمه - مُثقلٌ بأسئلة، ومحتومٌ عليه بحكم طبيعته نفسها ألا يُهملها؛ لكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها، لأنها تجاوز حدود قدراته كلها - وإذا اضطر العقل إلى الرجوع إلى مبادئ تجاوز حدوده، فهو بذلك يطوح بنفسه فى الظلام والمتناقضات»(١).

الفقرة السابقة تبين أن كانط طالما عقله مُثقلٌ بأسئلة (مثلنا نحن أيضاً) فإنه لم يتخلص من كلمة «لماذا» وكلمة «كيف» (مثلنا أيضاً) - اللتين تعنيان «ما السبب فى كذا» و«كيف حدث ذلك» - أى رجع بنا كانط مذكراً إيانا بالقانون الغائر فى عقل الإنسان - قانون السببية الذى ثار عليه هيوم وجاء هو ليعطل مسيرة ثورة هيوم هذه.

الفرق بين هيوم وكانط فى مسألة قانون السببية هو أن هيوم استطاع أن يخرج خارج عقله ليرى ماذا يعنى قانون السببية ويحلله - يحلل كيف آن للبشر أن يعتقدوا أن الأمور والأحداث تجرى بضرورة وشمول حيث لا ضرورة ولا شمول قبل الخبرة ولا بعدها - فالمسألة لا تعدو تتابع بين حدثين (أ)، (ب) وانتظام فى التتابع بين (أ)، (ب) - أحدهما (أ) يسمونه السبب - والثانى (ب) يسمونه المسبِّب أو النتيجة - لا لم يستطع كانط ولم يجرؤ على هذا الخروج من دائرة المألوف كما فعل هيوم - إن قانون السببية بشكله الفج فى عقول العامة كالشىء البديهى - ارتاب فيه هيوم بينما لم يستطع كانط - لهذا كان هيوم فى رأيى أكثر عبقرية من كانط على الرغم من أن هيوم فكر بقانون السببية - لأنه حلل قانون السببية - لينتقد قانون السببية.

هيوم ارتاب فى البدهى حيث لم يستطع كانط - لذلك فعبارة ديفيد لندلى مؤلف كتاب «مبدأ الريبة والصراع من أجل روح العلم ترجمة: نجيب الحصادى» تنطبق على هيوم هنا فهو يقول رغم أنه كان يقصد العالِم هايزنبرج: «إن الارتياب المستنير فى البدهى قد يكون علامة العبقرية».

قبل أن نعرض فلسفة هيوم الثورية الخاصة بقانون السببية أود أن أشير إلى نقطة هامة جداً - سأطلق عليها كلمة «الأسر اللغوى» - التى تعتبر عقبة كأداء فى الثورات العقلية الكبيرة - سواء أكانت هذه الثورة فى ميدان العلم أو فى ميدان الفلسفة - وسأضرب مثلاً اخترته لأنه شديد الوضوح بالنسبة لما أريد أن أقول. هذا المثل متعلق بتطور علم الفيزياء من مرحلتها الكلاسيكية ووصولها إلى مرحلة الفيزياء الحديثة - الفيزياء الكمية - أو نظرية الكوانتا - حيث أُنتُهِكَت فى فيزياء الكوانتا قوانين للمنطق ما كان أحد فى مرحلة الفيزياء الكلاسيكية يتصور أنها يمكن أن تُنتَهك - أعنى بذلك:

انتهاك قانون الثالث المرفوع وقانون عدم التناقض ومبدأ الحتمية وقانون السببية نفسه - مما يتطلب تطورا فى المفاهيم والصياغات اللغوية كان ولا يزال صعباً على استيعاب نخبة من العلماء - ناهيك عن الناس العاديين - لما يتطلبه هذا التطور من قبول أمور يصعب أو يستحيل تخيلها - وبالتالى ستكون الصياغة اللغوية لها ضد ما هو مألوف - هذا واضح فى مجال الميكروفيزياء أشد ما يكون وضوحاً مثل اعتبار الإلكترون موجة وجسيما فى نفس الوقت - أى الإلكترون «جسيم ولا جسيم» فى نفس الوقت - أى قانون عدم التناقض قد أُنتُهِكَ.



نحن فى حاجة إلى أن ندرب العقول على حقيقة أن التطور العلمى يثقف العقل ويقتضى تغييراً فى اللغة والمعانى التى تم الاتفاق عليها قبل حدوث مثل هذا التطور العلمى والتطور الفلسفى المصاحب. أقول ذلك هنا لأوضح أن طريقة استعمال اللغة التقليدية الخاصة بقانون السببية قبل هيوم وثورته كانت قد أرست دعامات لمفاهيم لغوية خاصة بهذا القانون وتم الاتفاق عليها - بحيث عندما جاء هيوم بثورته الانقلابية الخاصة بقانون السببية - كانت هناك صعوبات مفاهيمية وبالتالى لغوية - صعوبة فى زحزحة اللغة القديمة - لغة ما قبل ثورة هيوم حتى تستقيم مع ما أحرزه هيوم من تطور.

فقد كان التحليل التقليدى قبل هيوم لقانون السببية الذى يقول إن س سبب ص هو:

الانتظام فى التتابع والرابطة الضرورية. أى الاقتران المستمر بين السبب س والنتيجة أو المسبَّب ص - أو التتابع المستمر بين س، ص - وأن هناك ضرورة منطقية قبل التجربة توجب أن تكون س سبب وص نتيجة ضرورية - علاوة على أن المفهوم كان معناه أن السبب س يمتلك من معنى مثل: «ضرورة»، «قوة»، «يجعل»، «يُحدث»... إلخ كمؤثر فى إحداث النتيجة ص(٢).

وقد كان دور هيوم هو بيان أن مسألة الرابطة الضرورية هذه ما هى إلا وهم توهمه العقل البشرى منذ فجر التاريخ - صحيح أن جون لوك قد سبقه فى هذا - لكن هيوم هو أول من طبق هذا المبدأ بصرامة. هذا ما سنوضحه الآن.

قبل هيوم - إذا تعرض شمع للحرارة يذوب - فكان يقال ليس فقط أن الحرارة يعقبها ذوبان الشمع، بل كان يُفتَرض أن ذلك لابد أن يحدث وأن هذه الضرورة هى التى تجعلها تحدث باستمرار. فالنتيجة لا تعقب السبب فحسب، بل إن السبب هو الذى يُحدث النتيجة. فأحدهما يمارس قوة أو سلطة على الآخر، فالشمس مثلاً تؤثر فى الشمع.

فكلمة «التأثير» هى لفظ آخر يستخدم للتعبير عن فعل السبب فى المسبَّب - فأحدهما يؤثر فى الآخر.

دعنا نتأمل المثال المذكور آنفاً وهو أن شمع تعرض للحرارة فذاب - فكان يقال قبل هيوم: إن الحرارة «لابد» أن تذيب الشمع.

إن الذى شاهدناه شمع تعرض للحرارة هذا حدث مُشاهَد - والحدث التالى الذى أعقب الحدث الأول هو ذوبان الشمع - فنحن إذن لم نشاهد هذه «اللابد» فى التجربة التى كان يقال فيها: الحرارة «لابد» أن تذيب الشمع.

المسألة أنه قد وُجِدَ أنه إذا تعرض شمع للحرارة (وحرارة بدرجة معينة) فهو يذوب - مسألة تتابع لا أكثر ولا أقل. لا وجود لأية ضرورة منطقية تحتم حدوث ما حدث - بحيث لو كانت المشاهدة أن البرودة تذيب الشمع لقبلها العقل. المسألة لا تعدو كونها ظاهرة طبيعية بحيث لا يصح سؤال كهذا: لماذا من المحتم أن تذيب الحرارة الشمع؟ - هذا سؤال خاطئ من الوجهة المنطقية مثل سؤال كهذا:

لماذا يشتعل الهيدروجين؟

أو لماذا لا يشتعل الأكسجين ولكنه يساعد على الاشتعال؟

من الواضح سخف تلك الأسئلة لأنها لا تعدو كونها محاولة تعليل ظواهر طبيعية كذلك قولنا إن اللهب هو القوة المؤثرة فى غليان الماء. وهكذا نجد أنه لو كانت هناك كرة بلياردو متحركة تضرب كرة أخرى كانت ساكنة، فبدأت الكرة الثانية تتحرك بناء على ذلك، فإننا لا نقول فحسب إنه عندما ضربت الكرة الأولى الكرة الثانية بزاوية معينة وسرعة محددة، فإن الكرة الثانية سوف تتحرك باستمرار، كحقيقة واقعة، بزاوية معينة وسرعة محددة (الانتظام فى التتابع) - لكننا نقول أيضاً: إن الكرة الأولى «أثرت» بقوة فى الكرة الثانية.

وهكذا إن ما كان يعنيه هيوم بمفهوم الناس قبله عن علاقة السببية هو أنهم كانوا يؤمنون برابطة ضرورية بين السبب والمسبَّب أو السبب والنتيجة أو بين س، ص - وهى أن س سوف يتبعها ص بالضرورة وأن الترابط ليس مجرد مصادفة.

الترابط الذى حدث هو مجرد صدفة لأن العقل المجرد لا يقضى بضرورة أن تتحرك الكرة الأخرى الساكنة إذا ما مستها الأولى المتحركة - لماذا؟ لأنه ممكن عقلاً تصور أن تسكن الكرتان معاً، وممكن عقلاً تصور أن تصدم الكرة المتحركة الكرة الساكنة وبدل أن تحركها تعود هى مرتدة، أو تقفز فوقها ثم تسير فى أى اتجاه - هذه كلها أوضاع عند العقل الصرف، ولا مبرر - من حيث التفكير العقلى الخالص - يجيز لنا أن نفضل حالة على أخرى من هذه الحالات التى يتساوى إمكانها عند حكم العقل؛ وإذن فيستحيل علينا الحكم «قبل» الخبرة ماذا تكون عليه الحال فى مثل هذه الظروف؛ وإنما الذى يقضى لنا فى الأمر، بحيث نختار أحد الممكنات دون سائرها، هو الخبرة الحسية التى تدلنا على ما قد يقع فعلاً، فنتوقع حدوثه - لا لأنه ضرورة عقلية محتومة - بل لأنه هو الذى شهدت به التجربة كما وقعت فى الحس واحتفظت به الذاكرة(٣).

كما أنه لا يصح أن يسأل سائل هذا السؤال:

لماذا حركت الكرة المتحركة الكرة الساكنة عندما اصطدمت بها؟ لأن ذلك مثل الظواهر الطبيعية - تماماً مثلما يشتعل الهيدروجين فلا أحد يسأل ولا يصح أن يسأل: لماذا يشتعل الهيدروجين؟

وهكذا كانت النظرية التقليدية فى السببية قبل هيوم تعنى هذين الأمرين

معاً: الانتظام فى التتابع، والرابطة الضرورية. لقد اتجه التحليل الجديد لهيوم على أن يبين لنا أنه على الرغم من أن الانتظام فى التتابع هو حقيقة واقعة فإن الرابطة الضرورية هى محض اختلاف، فليس فى العالم ما يسمى بالرابطة الضرورية.

والسؤال الآن: ما هى ثورة هيوم؟ أو ماذا فعل هيوم ليغير من النظرة التقليدية فى السببية؟

هذا ما سنجيب عنه حالا.

سوف أعرض عليك عدة أمثلة بها علاقات سببية - ثم سأقوم بالتعليق عليها بعد ذلك - كل ما أرجوه عزيزى القارئ أن تصبر بقدر ما تستطيع لأن جلاء الأمر يحتاج إلى صبر وإنعام للفكر:

١- تسخين دورق به ماء عند سطح البحر إلى درجة حرارة مائة درجة مئوية يسبب غليان الماء.

٢- إذا تعرضت قطعة من المعدن للحرارة - أى تم تسخينها باللهب فإن قطعة المعدن تتمدد - أى أن الحرارة تسبب تمدد قطعة من المعدن.

٣- احتقان اللوزتين لإنسان يسبب ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان.

الأمثلة الثلاثة السابقة تمثل علاقة سبب بمسبِّب - أو سبب ونتيجة - وهى كانت علاقة ضرورية قبل ديفد هيوم كما أسلفنا - وأقصد بالضرورة هنا الضرورة المنطقية - وهى أصبحت انتظاما فى التتابع بعد ديفد هيوم وما قبل مبدأ الريبة لهايزنبرج Uncertainty Principle سنة ١٩٢٧ - لأنه بعد هذا المبدأ انهار الانتظام فى التتابع الذى يشكل مبدأ السببية بعد هيوم ومبدأ الحتمية بشكل عام - حيث من المعروف فى العالم الماكروسكوبى (العالم الكبير) أنه إذا كُرِّرت تجربة عدة مرات تحت نفس الظروف - فإنه لابد فى كل مرة أن تعطى نفس النتائج - هذا انهار فى مجال نظرية الكوانتا (الفيزياء الكوانتية) فى العالم الميكروسكوبى (العالم المتناهى فى الصغر مثل عالم الذرة) - حيث تُكَرَّر التجربة تحت نفس الظروف وفى كل مرة تعطى نتيجة مختلفة - لا يتسع المقام هنا للكلام عن هذا الموضوع - لكننا أردنا أن نشير إلى موقع مبدأ السببية فى عصرنا الراهن. حسبنا الآن أن نستكمل موضوعنا الذى كان قبل هذا الاستطراد. وهاك الآن نشرح الأمثلة الثلاثة السابقة وفقاً لفلسفة هيوم الثورية الخاصة بقانون أو مبدأ السببية:



«كتب على العقل الإنسانى أن يتسم بهذه السمة المميزة، وهى أنه «فى جانب من جوانب علمه» مُثقلٌ بأسئلة، ومحتومٌ عليه بحكم طبيعته نفسها ألا يُهملها؛ لكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها، لأنها تجاوز حدود قدراته كلها «وإذا اضطر العقل إلى الرجوع إلى مبادئ تجاوز حدوده، فهو بذلك يطوح بنفسه فى الظلام والمتناقضات»

زكى نجيب محمود



١- أنت ترى اللهب تحت الدورق، ثم ترى الماء يغلى - ويعطيك ذلك فكرة التتابع - ويمكنك أيضاً أن تلاحظ أن ذلك يحدث بانتظام، فكلما حدثت «س» (اللهب) أعقبتها «ص» (غليان الماء) ويعطيك ذلك فكرة «الانتظام فى التتابع».



يمكن القول أيضاً إنه لو أول إنسان على وجه الأرض قد سخن دورقا به ماء - عند سطح البحر - أى وضع اللهب تحت دورق الماء - وحدث أنه عند درجة حرارة مائة درجة مئوية وجد الماء قد تجمد وأصبح جليداً - هل كان سيرفض مثل هذه النتيجة؟ بالطبع كان سيقبلها - لأنه لا يوجد أى مانع منطقى قبل التجربة يمنع تصور مثل هذه النتيجة إن حدثت - إذن الرابطة الضرورية مجرد وهم.

المثال السابق نستنتج منه أن:

«تسخين الماء عند مائة درجة مئوية «يسبب» غليانه» - أود أن أقول إن كلمة «يسبب» فى القضية السابقة توحى بأن السبب (وهو التسخين عند مائة درجة مئوية) يمتلك من التأثير على المسبَّب (وهو الماء) ليغلى - هذه لغة مضللة والأفضل من وجهة نظرى أن نستغنى عن كلمة سبب ويسبب وكل اشتقاقات كلمة سبب (على الأقل فى الكتابات العلمية) ونقول القضية السابقة كالآتى:

إنه قد وُجِدَ أن الماء يغلى إذا سُخِّنَ حتى مائة درجة مئوية. لأن المسألة هى حدثان متتاليان وانتظام فى التتابع (طالما كنا نعمل فى العالم الماكروسكوبى).

والآن سنقوم بشرح المثال الثانى:

٢- هذا المثال يقول إن المعادن تتمدد بالحرارة - قبل ثورة هيوم فى السببية كانوا يقولون: «المعادن لابد أن تتمدد بالحرارة».

هناك حدثان متتابعان الحرارة س وتمدد المعدن ص.

نحن لا نرى إلا س يتلوها ص ولا نرى هذه «اللابد» ولا غيرها.

ولو تصورنا أن أول إنسان سخن قطعة من المعدن ولتكن قطعة حديد مثلاً ووجد أنها تنكمش بالحرارة كلما سخنها - لقبل هذه النتيجة دون تردد. أتصور عقلا معاصرا الآن يتهمنى بالجهل وأنا أشرح هذا المثال على هذا النحو قائلاً: نعم لابد أن يتمدد الحديد أو المعدن بالحرارة - لأن الحرارة تعطى إلكترونات ذرة الحديد طاقة «تسبب» انتقالها إلى مدار إلكترونى أعلى مما «يسبب» تمدد المعدن - حديداً كان أو غيره.

والرد بسيط كالآتى:

ذرة المعدن ولتكن حديداً بعد التسخين تكتسب طاقة - الملاحظة بينت أنه عند حدوث ذلك فإن الإلكترونات تقفز إلى مدارات أعلى - لكن إذا كانت الملاحظة تبين أنها تهبط إلى مدارات إلكترونية أدنى عند تسخين الحديد فكنا سنقبل ذلك - ليس هناك أى ضرورة منطقية للقول إنه إذا حصل إلكترون فى ذرة معدن على كمية من الطاقة الحرارية أنه لابد سيقفز إلى مدار أعلى - لأنه إذا تصورنا أن العكس قد حدث لكنا قبلناه.

أيضاً قضية أن تسخين المعدن «يسبب» تمدده يحسن كتابتها كالآتى: إنه قد وُجِدَ أنه عند تسخين معدن فإنه يتمدد.

والآن ننتقل لشرح المثال الثالث:

٣- احتقان اللوزتين «يسبب» ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان - هناك سبب هو «احتقان اللوزتين» وهناك مسبِّب أو نتيجة هى «ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان» - إنه تتابع أو اقتران غير ضرورى ضرورة منطقية لأنه يمكن تصور عكس ذلك إذا حدث عند العقل المحض ويقبله.

ولكى نحتفظ بعقل مفتوح - عقل يناسب تطور العلم المستمر - يحسن أن نكتب القضية التى يمثلها المثال (٣) بدلاً من:

«احتقان اللوزتين «يسبب» ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان» هكذا:

«إنه قد وُجِدَ أنه عند احتقان اللوزتين عند الإنسان فإن درجة حرارة جسمه ترتفع» - هكذا تخلصنا من كلمة «يسبب» التى تحمل شحنات من المعانى التاريخية التى توحى بفعل «التأثير» من قبل السبب على النتيجة - وهذا خطأ علمى ومنطقى وفلسفى يعوق تقدم المعرفة العلمية. ■

الهوامش

١- د. زكى نجيب محمود موقف من الميتافيزيقا - الطبعة الثالثة ١٩٨٧ - دار الشروق - صفحة ٥٠.

٢- ولترسيتس: الدين والعقل الحديث - ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولى ١٩٩٨ من صفحة ١٨٣ حتى صفحة ١٩٧.

٣- د. زكى نجيب محمود: ديفد هيوم - سلسلة نوابغ الفكر الغربى - العدد ٧ - دار المعارف - صفحة ٧٢.

النيل .. وسيناء .. وهرتزل

أثارت مجلة وجهات نظر فى عدد يوليو الأخير قضية وطنية فى ملف خاص تحت عنوان (النيل نجاشى). استهل رئيس التحرير الملف بمناقشة أبعاد متشعبة عميقة تعود لعام ١٩٠٣.. أعادت إلى الذاكرة ما طرحه الكاتب الراحل كامل زهيرى فى كتاب صدر عام ١٩٨٠ تحت عنوان (النيل فى خطر.. وثائق تنشر لأول مرة).
من خلال هذا الكتاب يقدم هذا المقال طرفًا مما أثاره المقال والكتاب فى نفسى من شجون وأبعاد مأساوية مازلنا نعيش فى ظلالها.

.. المهدى

■■ شوارع القاهرة مزدحمة .. خبر ليس فيه جديد .. كل العواصم مزدحمة. ولكن أن يكون الناس وسط الزحام شبه مساطيل.. يتلقون الخبطات واللكزات، وتحف بهم السيارات والدراجات والعربات وهم فى عالم ولى النعم الذى يرص أرجيلة يوزعها فى قصة ثرثرة فوق النيل.. فهذا هو الجديد. هل هو الحر، والمشاكل، والهم، وتشابك الخيوط، والاعلام، والبحث عن الرزق فى العاصمة. قديماً قالوا كل الانهار تجرى إلى البحر، والبحر ليس بملآن. أهل الريف يفدون إلى القاهرة، ولكن القاهرة امتلأت.. أكتظت.. ضاقت.. اختنقت.. تخدر اهلها، صاروا فى ذهول. وليس هناك من يحل أو يفسر أو يقنع. ليس هناك إلا الذهول.. الذهول ممن.. لا أحد يدرى. ومن يدرى يصرخ.. ومن يصرخ لا أحد يسمعه، فالذهول أعم وأشمل.. القاهرة نموذج للعالم الثالث.
وتعزى نفسك فتقول القاهرة ليست هى مصر، ويقول الفرنسيون الشانزليليزيه ليس باريس، ويقول الانجليز أكسفورد ليس لندن. عليك بالريف ومجاورة النهر. الانهار لها قدسية خاصة فى انحاء العالم، بطوله تاريخيا، وبعرضه جغرافياً. وعندما قتل راسبوتين وجدت جثته فى النهر، ورغم ما عرف عنه من حياة المجون إلا أن أسطورته لم تهدم كقديس إلا حينما ردد الناس: القديسون لا يموتون غرقاً.
وريف مصر معروف لمجاورته لنهر مشهور. أطلق عليه المصريون قديما اسم (حابى). النيل جعل الفلاح مطمئنا فهو يجرى كل عام، وحينما ينقطع فى النادر من الأحوال تكون كارثة، قال الفلاح القديم عنه أنه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس، يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحا ولا طيرا. يحطك فى الصحراء. وما دام الناس لا يأكلون اللازورد الحر فالشعير أحسن. ولكن الشعير بدأ يقل، وكذلك القمح، وزاد عدد السكان. وتجد أميل لودفيج فى كتابه عن النيل يقول عن الخصب: ألا ما أحق تربة مصر بأن تخلط بالرمل كما كتب جغرافيو القرن ١٨، والا جاوزت حد الغنى الى درجة تخصب معها الاناث حتى لتلد الشاة مرتين فى العام، وتنجب النساء فى الغالب توائم.
ولك أن تبتسم فى سخرية. ولكن لتعلم أن النهضة الصناعية والزراعية التى بدأت على يد محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر واكبت نهضة مشابهة

النيل فى خطر
كامل زهيرى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠

فى اليابان. وابتسم مرة أخرى إذا اردت المقارنة ولكن لا تنس التراكمات والتراكمات التى حملها الاقتصاد المصرى وازدادت كثافته فى السنوات الأخيرة.
وقديماً كان الحاكم والمستعمر يتحكمان بالعسكر، ويتحكمان فى الريف بإدارات الرى. ويبدو أنه درس افاد. وذهب المستعمر... والتقدير الموضوعى يقول أنه لن يعود رغم المثل الذى يتحدث عن عودة من يشرب من ماء النيل. واليهودى الذى خرج من مصر وشارك فى احتلال أرض فلسطين يقول الآن، انهم خدعوك فقالوا إن اليهود يريدون أرضا من النيل إلى الفرات، والحقيقة أننى لا أريد العوده للنيل، ولكن بالصداقة والتعاهد والسلام تستطيع أن تحضر إلى معسكرى فى النقب ماء النيل.



يا للمصيبة.. ألا يكفى ما أصاب القاهرة، حتى نبحث عن خراب الريف. المشروع أثير كما نعرف ١٩٨٠. وكان قد طرحه اعلاميا مهندس اسرائيلى اسمه (اليشع كلى) فى مجلة اوت عام ١٩٧٤. وعادت إلى التذكير به جريدة معاريف فى سبتمبر عام ١٩٧٨، وكشفت النقاب عن اتفاق حوله بين مصر واسرائيل بعض الصحف. والقصة لها جذور تستطيع أن تقرأها فى كتاب أو بحث الراحل الكاتب الكبير المعروف كامل زهيرى والذى صدر فى صيف عام ١٩٨٠ بعنوان (النيل فى خطر): وثائق تنشر لأول مرة.
وثيقة كامل زهيرى وثيقتان: الأولى نص مشروع الامتياز الذى أعده هرتزل عام ١٩٠٣ لعرضه على لورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر للحصول على حق استيطان اليهود فى شبه جزيرة سيناء لمدة ٩٩ سنة قابلة للتجديد. والوثيقة الثانية نص تقرير البعثة الفنية التى ارسلتها الحكومة الانجليزية خلال

شهرى فبراير ومارس عام ١٩٠٣ بالاتفاق مع هرتزل، وتشمبرلين وكرومر، وبطرس باشا غالى، لتحديد كيفية تنفيذ المشروع، وكيفية ايصال الماء اللازم إلى سيناء من ماء النيل.
هرتزل لم يكن أول من دعا لإقامة وطن لليهود. وردت الفكرة أيام كromويل، وذكر كتاب (الصهيونية) أنها جاءت ايضا على لسان نابليون لاعادة القدس القديمة. وسبق دزرائيلى ايضا فى عرضها على مؤتمر برلين باسم المسألة الصهيونية فى المسألة الشرقية.
وطبيعى أن يفكر دزرائيلى فى بحث مشكلة اليهود. كتب فى شبابه قصصا تتحدث عن جدوده، وزار الشرق، وأعطى ملكة انجلترا لقب أمبراطورة الهند، وحصل من روتشيلد على القروض لشراء ١٧٧,٠٠٠ سهم من أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥. واعتبرت الملكة هذه الصفقة أكبر خدمة اداها لانجلترا فحصل على لقب لورد.
وفى أواخر القرن التاسع عشر كان هرتزل ينشط فى دعوته الصهيونية وكان مصطفى كامل ينشط فى الدفاع عن وطنه ضد الاحتلال الانجليزى وانتقل الأول لتحقيق احلامه من الاستانة إلى برلين إلى فيينا، واستقر اخيرا فى لندن. بينما اتجه الثانى إلى تركيا ثم فرنسا ثم المانيا، والتقى الاثنان فى النمسا فكتب هرتزل فى مذكراته يقول: أن سليل مضطهدينا فى مصرايم أى مصر يتنهد الان من عذاب الرق، وتقوده طريقه إلى أنا اليهودى طالبا مساعدتى الصحفية. اشعر رغم اننى لم اخبره بذلك بأن مايفيد قضيتنا ان يضطر الانجليز لمغادرة مصر. فانهم سينظرون انذاك بحثا عن طريق آخر الى الهند بدل قناة السويس التى ستضيع منهم، أو على الاقل تصبح غير مأمونة. آنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم فى الطريق من يافا الى الخليج الفارسى، بيوت المال

اليهودية كانت تمد أوروبا باحتياجات الحرب، وتمدها ايضا باحتياجات السلم. فحمل اوراقه وذهب بها إلى روتشيلد وانهى كتيبه بهذه العبارة سوف يتحرر العالم بتحررنا، وسوف يثرى بثرائنا، وسيعظم قدره بعظمتنا.
فى لندن حدد هرتزل الابعاد؛ روتشيلد هو المعبر إلى التمويل، وتشمبرلين وزير المستعمرات البريطانية هو المعبر إلى مصر، وكرومر المعتمد البريطانى فى مصر هو المعبر إلى سيناء. ويذكر كتاب (النيل فى خطر) لقاء هرتزل مع روتشيلد نقلا عن مذكرات هرتزل.. يعرض الأخير فكرة الحصول على مستعمرات من انجلترا لاقامة الوطن فيجيبه روتشيلد:
– خذ اذن أوغنده.
يتناول هرتزل ورقة ويكتب عليها حتى لا ينطق الاسماء فى قاعة الطعام.
– شبه جزيرة سيناء، فلسطين المصرية، قبرص.
ويقول هرتزل لقد عرض السلطان وادى الفرات (العراق).
تبدو الدهشة على وجه روتشيلد فيتساءل:
– وهل رفضت.
– نعم
روتشيلد رجل المال لا يعنيه المكان.. وهرتزل رجل كتيب الأفكار يصر على المكان، فيتجه إلى وزير المستعمرات البريطانية تشمبرلين يعرض أفكاره.
وكان من ابرز الاسماء التى تنتسب إليها هذه البيوت البارون (دى هيرش) والبارون (دى روتشيلد). اتجه هرتزل إلى دى هيرش وعرض أفكاره، ولكنه لم يتفق معه على اقامة الوطن فى الأرجنتين يقول له وزير المستعمرات:
– إذا اشرتم على بأى جزء آخر من الممتلكات البريطانية التى لا يوجد بها سكان بيض (يقصد قبرص) فإننى على استعداد للمناقشة.
هرتزل: إذا استطاعت شركة يهودية وضع اقدامها فى سيناء والعريش فلا شك أن القبارصة انفسهم سيبهرهم الذهب السائل الذى سيتدفق على المنطقة. وقد يذهب المسيحيون الى اليونان وجزيرة كريت، كما يذهب المسلمون إلى تركيا ويكونون سعداء لو باعوا لنا أراضيهم بأسعار سخية.
هنا يحيل تشمبرلين مفاوضه الى اللورد كرومر الملك غير المتوج فى مصر، والذى كان الخديوى توفيق يصفر وجهه هلعا عندما يعلم انه قادم لزيارته. ويستكمل هرتزل نسيج احلامه فى مذكراته فيقول ربما استطعنا أن نروى الصحراء من النيل. مثلا خط أنابيب بسيط، ولكن هذا مستحيل بسبب قناة السويس. أن الماء يجب أن يضخ من فوق

تعقيبات

محمد المهدى

علو السفن، أو يضخ من تحت عمق كبير وهذه الطريقة الثانية تبدو أسهل بكثير، وقد يكلف هذا الضخ مليونا، ولكن ليس هذا بكثير على مثل هذا المشروع. أو يؤخذ الطمى على سفن ويوضع فى العريش، أو تبنى سفن خاصة يصفى فيها الطمى فيرسب فى أعماقها ويرسل إلى العريش. وقد تكون هناك وسائل أخرى لتحقيق ذلك. يرسل هرتزل البعثة العلمية لدراسة المشروع على أرض الواقع ويجعل اعضاءها يوقعون تعهدا يحرم عليهم النشر أو مجرد الحديث عن أى شىء يتعلق بمهمتهم.. مهمتهم فى الواقع توطين اليهود من خلال الحركة الصهيونية، وعلى الورق توطين الأوروبيين من خلال شركة استصلاح الأراضى، ويعرف الانجليز ازدواجية اللعبة ويتكتمون الخبر، ويفرضون الرقابة الواجبة.

أنتهت البعثة من مهمتها فى ٢٥ مارس عام ١٩٠٣ واوصت بعد دراسة منطقة سهل الفرما وجنوب بحيرة البردويل ووادى العريش ومنطقة التيه بالآتى:

أولاً: حدود المستعمرة المقترح شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً، والحدود التركية شرقاً، والحدود الجنوبية مساقط مياه وادى العريش ومرتفعات التيه أى خط عرض ٢٩ تقريباً، تكون الحدود الغربية هى قناة السويس والخليج خليج السويس.

ثانياً: يحصل المشروع على السلطات اللازمة من الحكومة المصرية لتنفيذ مشروعات الرى، والطرق الحديدية، والمرافق، واقامة السدود وتخزين المياه.

ويعلق الكتاب بالملاحظات الآتية على المشروع:

١- اخفت اللجنة أن المشروع لتوطين اليهود.

٢- كانت مغرضة فى تقليلها من عدد سكان سيناء.

٣- أوراق هرتزل تثبت أن هناك تقارير أخرى كانت ترفع اليه لم يعثر عليها للآن.

ويضيف الكتاب أن اللجنة قد حددت المنطقة التى تطالب بها وهى تصل إلى خط عرض ٢٩ تقريباً أى ما يوازى (ابو زنيمة) وهو يكشف عن فداحة أطماع الصهيونية فى سيناء، وفى مياه النيل، بل يكذب ما اشتهر فى الكتب النادرة التى تناولت هذا المشروع بأن اهدافه مجرد توطين اليهود فى العريش.

وصلت السفينة النمساوية سمير أميس إلى مصر فى ٢٣ مارس عام ١٩٠٣، وكان أخطر ركابها هرتزل رغم إهمال شانه فى الصحافة. وكتب فى مذكراته يقول: الحالة الراهنة كما يلى: أن الوجود فى شبه جزيرة سيناء مختلطة



بشكل هو فى صالحنا. يجب أن أوضح ما يتلخص فى: امتلاك قوة حق. الامتلاك بيد الحكومة المصرية. والقوة بيد الحكومة الاجنبية، أما الحق فللحكومة التركية. لذلك يجب أن أحصل على الملكية من الحكومة المصرية ثم الحكومة الانجليزية بأكثر ما يمكنها اعطاؤه. وأخيراً أحصل على الحق من الحكومة التركية بأى بقشيش.

يقابل هرتزل كرومر فيحيله إلى (جارستين) وكيل الاشغال الذى كلفه بدراسة المشروع، ثم يقابل بطرس غالى باشا، ثم يحضر محاضرة يلقيها (ويلكوكس) بعنوان (مصر الجديدة) ويكتب معلقا (لعل أعظم ما اثار اهتمامى هو العدد المذهل من الشبان المصريين الاذكياء الذين امتلأت بهم القاعة. إنهم سادة المستقبل، ومن الغريب أن الانجليز لا يبصرون ذلك. فهم يعتقدون انهم سيتعاملون مع فلاحين إلى الابد. أن قواتهم اليومية التى يبلغ عددها ١٨ الفا تكفى لهذا البلد الكبير ولكن إلى متى سيستمر ذلك؟.

جاء تقرير جارستين مخيبا للآمال فقد انتقد المشروع من الناحية الفنية، وأوصى برفضه. يسرع هرتزل إلى لندن حتى يعاود الكرة مع وزير المستعمرات البريطانية الذى ينصحه بقبول اوغنده كموطن ولكنه يجيب:

- يجب أن تكون قاعدتنا فلسطين، ثم نستطيع بعد ذلك أن نستوطن فى اوغندا ذلك ان هناك عددا كبيرا جدا من اليهود يودون الهجرة ولكن يجب أولا أن نضع اساسا قوميا. ولهذا فكرنا فى العريش لوضع سياسة جذابة. ولكنهم لا يفهمون ذلك فى مصر. ولم استطع أن اوضح لهم الأمور كما افعل هنا فى لندن.. ويجب أن أوضح اننا لن نضع أنفسنا تحت حكم مصرى، ولكننا نريد حكما بريطانياً.

يلخص لنا الكتاب اسباب الرفض لمشروع هرتزل فى نقطتين: الأولى المنظور الاستعمارى البريطانى الذى كان ما يزال متبنيا لخطة الحفاظ الشكلى والقانونى للدولة العثمانية، ولا يريد الدخول فى صراع مع القوى الدولية الأخرى: روسيا وفرنسا والمانيا، وهى الخطة التى كان طبيعيا أن تتبدل بعد الحرب الأولى وبالتالى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧. والثانية خطة انجلترا الاقتصادية التى كانت تتعارض مع التفريط فى أى متر مكعب من ماء النيل من الممكن أن يخدم باستثماره زراعياً الصناعة الانجليزية.



دار هرتزل دورة أخرى مع اليهود للوصول إلى الهدف .. هدف الحصول على أرض استيطانية من ممتلكات انجلترا الاستعمارية.. يقول الكتاب ان الاهرام نشرت فى ١٩ ديسمبر من نفس العام ١٩٠٣.. أن الخواجة سوارس (من كبار اثرياء اليهود المصريين انذاك والخواجة ارنست كاسل قد ابتاعا من الحكومة المصرية ٣٠ ألف فدان من سهول (كوم أمبو) بالقرب من أسوان لاستصلاحها فى مقابل ٢٠ قرشا للفدان. واذا نجحوا فى استصلاحها خلال العشر سنوات القادمة يكون لهم الحق فى أخذ بقية السهل أى مائة ألف فدان بنفس الثمن.

ويضيف الخبر أنهم عهدوا إلى المهندس اسماعيل بك سرى للقيام بالمهمة بمرتب كبير ولكنه رفض. وأن الهدف من استصلاح هذه الأراضى هو اقامة مستعمرة صهيونية يقوم على زراعتها الاسرائيليون كما فعل روتشيلد فى فلسطين. ويضيف الكتاب وقد حدث تغيير فى اتجاه المشروع اذ إننا نلاحظ أن الملكية بقيت للأجانب، ولكن هجرة جموع الفلاحين اليهود المعسرين على حد قول الاهرام قد اتجهت فى عام ١٩٠٧ فى الموجه الثانية لهجرة اليهود إلى فلسطين على الشاطئ الغربى لبحيرة طبرية.

ونعود إلى مشروع المهندس اليهودى اليشع كلى لشراء ماء النيل الذى طرحه عام ١٩٧٤، والذى أعيد الحديث حوله فى عام ١٩٧٩.. نلخص أبعاده الخطيرة كما طرحها وكشف جذورها كتاب كامل زهيرى أو صرخته الوطنية فى الآتى:

يقول اليشع ان اسرائيل لا تحتاج لأكثر من ١٪ من مياه النيل سنويا (٠.٨ مليار متر مكعب فى السنة من حوالى ٨٠ مليار متر مكعب).

وتقتطع مصر ٥٥.٥ مليار متر مكعب.

وإذا قارنا بين عدد سكان مصر الذين يتزايدون بسرعة تلتهم كل الاصلاحات الزراعية، وجدنا أنفسنا امام كارثة.

- مشاريع اسرائيل لتحويل نهر الاردن حتى يقوم على خدمة صحراء النقب، تتفق مع ما تحاوله من استجلاب ماء النيل إلى نفس المنطقة تحقيقا لهدف التوسع فى صحراء النقب بشريا، وزراعيا، وصناعيا، وذريا (لان ديمونا تقع فى شرقى بير السبع).
- استمرار وجود اسرائيل كدولة محمية من الولايات المتحدة لضمان تحقيق أهدافها التوسعية تحت شعار الامتداد الحضارى.
- طموح اسرائيل فى تحويل عدد من العمال المصريين إلى مرتزقة باجتذابهم للعمل فى مشاريعها بالنقب بما يعيد مأساة المليون عامل الجزائرى فى فرنسا بصورة أسوأ.
- باستصلاح النقب وهى ثلث مساحة اسرائيل تستطيع أن تهجر اربعة ملايين يهودى. وبذلك تخل بصورة غير طبيعية بالتوازن البشرى لدول المنطقة حتى التوازن الذى يفترضه القرار ٢٤٢.

فى نهاية حديثى اسجل هذه الكلمات التى وردت فى نهاية الكتاب تعبيرا عما اصاب العقول من زحمة وذهول وتداخل فى الخطوط، كزحمة وذهول شوارع القاهرة وقد هبطت علينا أخيرا بعض الكتابات (العربية) للأسف ويتحدثون فيها عن احتمالات المستقبل للعالم العربى عام ٢٠٠٠ على ضوء التسوية الثنائية أو التسوية الشاملة!.

ومن المضحك المبكى أن تضع هذه الكتابات كل الاحتمالات وتتناول كل التفاصيل من تأثير كامب ديفيد على التغيير الاجتماعى أو السياسى بل واحيانا على بنية المجتمع الاسرائيلى، وأن تهمل فى نفس الوقت هذا المشروع المحورى الخطير. ■

في الخليج و القاهرة و التاريخ



سلطان بن محمد القاسمي

نعرف الخليج؛ مجتمعا وحياة، وبريطانيا؛ التي كانت (هناك)، والسياسة؛ التي ماعاد من ملامحها غير الصور.. وبعض الذكريات.

خمسون عاما لا أكثر، تفصلنا عن هذه الأيام، التي تبدو اليوم وكأنها بعيدة جدا (كأنها لم تكن أبداً!) والتي يحكي لنا بعضا من تفاصيلها ومشاهدها الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة (الذي مشى يومها في تظاهرات مؤيدة للقومية العربية ولعبد الناصر) في سيرته الذاتية سرد الذات التي صدرت أخيرا عن دار الشروق ونقدم هنا بعضا من صفحاتها.

المحرر

لا تشبه الليلة البارحة .. نعم، بأي حال من الأحوال.

الليلة: تقول الأخبار أن حجم الاستثمارات القطرية في بريطانيا العظمى؛ التي لم تكن تغرب عنها الشمس بلغ ١٠مليارات جنيه استرليني (العرب القطرية ١٠يناير ٢٠١٠)

الليلة، نقلت وسائل الإعلام كلها حفل الافتتاح المبهر لبرج خليفة (برج دبي) أعلى بناية على سطح الأرض.

الليلة: لامكان للحديث عن القوميين، أو الوحدويين، أو عبد الناصر.

في البارحة، التي لانكاد نذكر، يبدو كل شيء غير الذي بتنا

إذا ما حلّ المساء، أخذ القوم يحتشدون أمام الحصن، ليستمعوا لنشرة أخبار الحرب، من مذياع في إحدى نوافذ الطابق العلوي للحصن



غــواصــون، وبـيــوت مــن ســعــف، وحــرب عــالمـيــــــة



الحِصْن

■ يقع ذاك الحصن إلى الجنوب من بيتنا، لا يفصله عنه إلاّ الطريق الواسعة المؤدية إلى أسواق المدينة، حيث نوافذ مجلسنا تطل عليه، فتمر من خلاله القوافل في الغدو والرواح محملة بالبضائع لمن باع وابتاع.

هذا رجل يسوقه عسكري يحمل بندقية ويدفعه إلى الأمام عندما يحرن في مشيته، مُساقًا إلى الحصن، وذاك عائد منه مُطأطئًا لا تسمع منه إلاّ النشيج. وهذا رجل يتبختر في مشيته، وقد هندم هيأته، مشغول الفكر، ينمّق الكلمات التي سيلقيها على الشيخ، فإذا عاد تعلوه الابتسامة فقد أجزل له في العطاء، أما إذا كان مبرطمًا فقد عاد خائب الرجاء، ونحن نرقب كل ذلك صباحًا ومساءً.

حصن الشارقة مبنى مربع الشكل له أربعة أركان مهمة: أولها الغرفة، وهي أحد أركان الحصن، حيث تستعمل كمجلس للخاصة، وهي في الجنوب الشرقي من الحصن. يليها «المشرف»، وهو برج مربع يطل على الجنوب الغربي من الحصن، ويستعمل للحراسة. وإلى الشمال الغربي يوجد «الكبس»، وهو برج دائري، ويستعمل للحراسة أيضًا. أما «المحلوسة» فكانت برجًا ضخمًا، وهي على اسم على مسمى، حيث كانت غريبة في بنائها، يُستعمل الجزء العلوي منها للحراسة، أما الجزء السفلي فكان سجنًا مرعبًا.. أما واجهة الحصن فتطل على ساحة الحصن، حيث تُشاهَد بوابة الحصن الضخمة المزينة برءوس المسامير على هيئة كرات برونزية متلألئة. بين تلك البوابة والمحلوسة، وُضع في مكان ظلها عصرًا كرسي خشبي كبير له مساند خشبية كذلك، ويُصعد إليه بدرجات من الخشب في جهتين منه..ومدفع كبير على عجلات من خشب، يسمى «الرقاص»، وآخر أصغر منه على عجلات كذلك.

أما إلى اليسار من البوابة فهناك سجن التوقيف، له شباك يطل على الساحة، يستطيع السجين أن يتحدث منه إلى أقربائه. وبين السقف والشباك فتحة صغيرة للتهوية. أما باب ذلك السجن فينفتح في الصالة الداخلية التابعة للبوابة، يُقال لها الإصباح، حيث الحراسة مشددة. كان في سجن التوقيف أحد المتهمين، وكان ذا سوابق في السرقة، قُطعت يده اليمنى في سرقات سابقة، وإذا به يقوم ليلا بسرقة مدفع برونزي صغير، يصعُب على شخص بيد واحدة وذاك الجسم الضئيل أن يحمل ذاك المدفع ويخرج به من فتحة التهوية العلوية، ويهرب من السجن. فتتبعوه، فوجدوه مختفيًا في كومة من الحشائش، وهو يحتضن المدفع.

يلي ذاك السجن مخزن التموين، والذي يديره أحد موالي الشيخ، ويُدعى ابن كلبان، يوزع الكيروسين والفحم وبعض الأطعمة على بيوت العائلة المالكة. ويليه مرآب السيارات، والذي كان يفتح بابه في إسطبلات الخيول.

فوق تلك الأماكن الغرفة التي يجلس فيها الشيخ، وأمامها السطح المكشوف يليه الساباط المسقوف وكلها تطل على الساحة الأمامية للحصن، حتى إذا ما حلّ المساء وتجمّع إخوة الشيخ سلطان مع أبنائهم لتناول طعام العشاء، أخذ القوم يحتشدون أمام حصن الشارقة، زرافاتٍ ووحدانا؛ ليستمعوا لنشرة أخبار الحرب، وكانت في أواخرها سنة ١٩٤٥م، فكان صوت المذياع (الراديو) يأتيهم من إحدى نوافذ الغرفة بالطابق العلوي للحصن.

هؤلاء القوم نصفهم كان مؤيدًا للحلفاء والنصف الآخر كان مؤيدًا للمحور، فكانت الأخبار من الإذاعة الألمانية بصوت المذيع العراقي سليط اللسان، يونس بحري، تُغضب مؤيدي الحلفاء..وكذلك الأخبار الآتية من هيئة الإذاعة البريطانية لخدمة الشرق الأوسط، بصوت المذيع الشامي منير شما، تغضب مؤيدي المحور. ومن النوافذ المطلة على الساحة الأمامية للحصن نشاهد الشجار بين الفريقين.

أما بقية الأماكن في الحصن، ففي الجزء الجنوبي كانت تسكن والدة الشيخ صقر ابن سلطان القاسمي، أما الجزء الشمالي فقد كان مخصصًا لسكنى الشيخ صقر بن سلطان القاسمي وزوجته وأولاده.



أمام واجهة الحصن مبنى كبير، نصفه مبني بالكامل، وبه نوافذ، والنصف الآخر عبارة عن سقيفة. يقال لذلك المبنى «الساباط»، تنزل به أعداد كبيرة من البدو ضيوفًا على الشيخ. وإلى الجهة الشمالية من الساباط بئر للاغتسال، أما الجهة الجنوبية منه فكانت مناخًا للإبل.

بين الحصن والساباط غُرزت سارية غليظة، طرفها العلوي متفحم، يُربَط الخارجون على القانون من سُرّاق ومجرمين عليها، يُقال لها «حطبة التوبة». عندما كان يُربط السارق أو المجرم على السارية، نتحلق نحن الصبية حول السارية، حينما يجلد السارق والمجرم، ويحدث الجدل بيننا حول الجزء المتفحم من السارية، وقد قال بعض الصبية: «تشعل النار في هذا الجزء العلوي من السارية، وتأخذ بالاشتعال إلى أسفل ناحية السارق. فإذا أحس باقتراب النار إليه اعترف مباشرة».

قلت لهم: «نحن يوميًا هنا نشاهد هذه العقوبات، ولم نشاهد نارًا أُشعلت، وهذا الجزء المتفحم موجود منذ أن وعينا».

سألت والدي عن ذاك الجزء المتفحم من السارية. فروى لي الحكاية التالية:

يقول والدي: «في عهد والدي الشيخ صقر بن خالد القاسمي حاكم الشارقة، كان هناك رجل أذكن أعمى، يُقال له «باسيدوه»، يسكن في حارة آل علي في الشارقة. في يوم عاصف بريح يقال لها السهيلي، وهي جنوبية، خرج باسيدوه فيه يستدل على طريقه بعكازه إلى سوق السمك، ليسترزق سمكًا من الصيادين، حتى إذا ما رجع إلى خيمته المتهالكة بسعفها وخيشها، وأوقد النار ليشوي أسماكه في خيمته اشتعلت الخيمة نارًا، فاحترق باسيدوه ومات محترقًا.

النار لم تكتفِ بباسيدوه وخيمته، بل طالت بيوت السعف وأرسلت إلى الغرب منها لهبًا، يتراقص على البيوت المشتعلة، ثم يتناول عنان السماء ليلفظ إليها ما خف وزنه، بعد أن لاكت النار وابتلعت تلك البيوت، وخلّفت غنمًا وأبقارًا متفحمة في مرابطها. كانت تلك المواد المتطايرة، منها المتفحم والمشتعل، تنقلها الرياح الشديدة ناحية خور الشارقة، حيث كان هناك بالقرب من الشاطئ سفينة للغوص لاستخراج اللؤلؤ، تُسمى «غالب»، مالكها ابن مذكور، فالتصقت قطعة مشتعلة من التي تقذفها الرياح بقمة سارية السفينة، وإذا بالنار تقضم تلك السارية من قمتها متجهة إلى الأسفل، حتى إذا ما وصلت النار إلى ارتفاع قامة أو تزيد من ظهر السفينة، شوهد الشيخ صقر ابن خالد القاسمي، حاكم الشارقة، قادمًا على حصانه من جهة طريق السيف، فأمر أن تُقطع الحبال التي تثبت السارية في السفينة، ويُرمى الجزء المتبقي من السارية في البحر لتنطفئ النار بماء البحر. ثم أمر أن يُنقل الجزء المتبقي من السارية إلى أمام الحصن ليُغرز بالأرض هناك، ليُربط بها السارقون والمجرمون، وقد عُرفت بحطبة التوبة».

بالأمس كان ذاك الجزء من سارية السفينة يُربط به الغواصون الذين يتمارضون عن النزول لقاع البحر لاستخراج اللؤلؤ، خوفًا من أسماك القرش، التي كانت تهاجم الصيادين، أو قلة النَفَس،



كانت الأخبار من الإذاعة الألمانية بصوت المذيع العراقي سليط اللسان، يونس بحري، تُغضب مؤيدي الحلفاء.. وكذلك الأخبار الآتية من هيئة الإذاعة البريطانية، بصوت المذيع الشامي منير شما، تغضب مؤيدي المحور



سرد الذات
سلطان بن محمد القاسمي
دار الشروق ٢٠١٠ ـ ٢٩٥ صفحة



شاهدت جميع البيوت، ومعظمها من السعف، قد تساوت مع الأرض



حيث يخرج الغواصون وهم يهذون بما تخيلوه عن حياة الجن فى قاع البحر، أو تأثر طبلات آذانهم لشدة ضغط الماء عليها، فيوسمون تحت آذانهم.. واليوم يُربط بها المتهمون ويُجلدون لانتزاع الاعتراف بذنوبهم.

إلى الجنوب من حطبة التوبة مجموعة من المدافع القديمة، مسندة أطرافها ناحية فوهاتها على جذع نخلة، ولم تكن تستعمل ألبتة. وكان المدفع الذى يستعمل لإطلاقه لتحية ضيف أو إعلان عيد هو المدفع الصغير ذو العجلات الخشبية. كان ضيف الشارقة ذات مرة الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود، وقد كان فى طريقه إلى الهند، ماراً بمطار الشارقة، حيث دعاه الشيخ سلطان بن صقر القاسمى حاكم الشارقة لتناول القهوة فى مجلسه فى الحصن. كانت الأوامر قد صدرت للعسكرى المكلف بإطلاق المدافع أن يطلق طلقة واحدة عند نزول الضيف من السيارة أمام باب الحصن. حاول ذاك العسكرى مع مجموعة من العساكر دفع المدفع الصغير، والموجود بقرب بوابة الحصن، حيث نزول الضيف من السيارة، إلى مسافة بعيدة من البوابة، لكنهم لم يستطيعوا تحريك المدفع فقد حرن فى مكانه.

نادى بنا العساكر أن نساعدهم، وكنا مجموعة من الصبية تجمّعنا لمشاهدة الضيف القادم إلى الحصن. وكان يقف إلى جوارنا رجلان كانا مرافقين للشيخ محمد بن حمد الشامسى، شقيق الشيخ راشد بن حمد الشامسى، شيخ بلدة حماسة، كان قد نزل ضيفاً على والدى، وأقام هو ومرافقاه فى المجلس الخاص فى بيتنا. كان أحد الرجلين يدعى «الحاس»، والآخر يدعى «جميع»، واشتركا معنا فى دفع المدفع، والذى أبى أن يتحرك. عندها قرر العسكرى المكلف بإطلاق المدافع أن يستعمل أحد المدافع القديمة، والمسنودة إلى جذع نخلة.. أخذ العسكرى يحشو المدفع القديم بالبارود وقطع الخيش. وكنا جميعنا من حوله، والصدأ يتناثر من سطحه الخارجى، ويتجمع على الأرض تحته، حتى إذا ما انتهى من حشو المدفع، وضع كمية من البارود على الفتحة الضيقة فى مؤخرة المدفع، وعندما وصل الضيف وضع جمرة فى طرف جريدة نخل، وطلب منا أن نبتعد عن المدفع. و ما إن وضع الجمرة على مؤخرة المدفع، حتى انفجر، وتناثر شظايا فى غيمة من الدخان، وإذا بـ«جميع» يسقط على الأرض، وقد أصابته شظية أزالت لحم أحد خديه، وكشفت عن أسنانه.

فى مناخ الإبل كان الإنجليز يأتون بالسينما مرة كل أسبوع ليعرضوا انتصاراتهم فقط وليس هزائمهم فى الحرب العالمية الثانية.

كان ذلك المكان مليئًا بالقراد والحَلم، وهو أكبر من القراد، تساقطت هناك من الإبل. وعلى فترة عرض الفيلم، كان الحضور يحكّون سيقانهم وأرجلهم من قرض القراد والحَلم الذى كان يمصّ الدم من أجسادهم.




تفتح بوابة الإسطبلات، الملاصقة للحصن من الجهة الجنوبية، والتى سورها الغربى من بقايا سور الشارقة، فى ساحة مسجد البدو. كنت أتدرب على ركوب الخيل فى حوش الإسطبلات.. وعندما حان خروج أبناء عمى بخيولهم إلى الصحراء، والذين هم أكبر منى سنًا، طلبت من «سعيد الخيل»، وهو المسئول عن تدريبنا على ركوب الخيل، أن أخرج معهم، فوافق، لكنه خاف أن تجمح بى الخيل، فقرر أن يأخذنا جميعًا فى جولة فى طرقات بلدة الشارقة، ومنها السوق. فإذا ما وصلنا إلى سوق السمك الغربى، وإذا بصف من النساء يفترشن الأرض بأنواع من الخضروات: فجل وبصل وطماطم وبطيخ وشمام وريحان. كانت خيلى أقرب للنسوة اللاتى تركن خضرواتهن وابتعدن. فأخذت خيلى تلتهم تلك الخضروات، وتغوص حوافرها فى البطيخ والشمام، ولم أكن أستطيع أن أسيطر على الخيل، أسرع «سعيد الخيل» بحصانه ليدفع بخيلى إلى وسط مجموعة الخيول، لكن حصانه أخذ يرقص على ما تبقى من خضروات.

تعالت أصوات الناس فى السوق وأخذوا يلوحون بأيديهم مما أخاف الخيل فأفلتت، وانطلقت فى السوق.. وقدّر الله لم يصب أحد بأذى. اشتكت الناس لدى الشيخ سلطان بن صقر القاسمى، فوبّخ الجميع منا، وعوّض المتضررين، وأصدر أمرًا بعدم دخول الخيول أسواق الشارقة وطرقاتها. ■

عاصفة وأمطار

■■ فى الأسبوع الأول من مارس من عام ١٩٤٨م، قرر والدى زيارة الشيخ حميد بن محمد القاسمى، شقيق الشيخ صقر بن محمد القاسمى، الحاكم الجديد لرأس الخيمة فى رأس الخيمة.

وعندما كنا هناك، هبت عاصفة شديدة، مما اضطر والدى إلى أن يبيت تلك الليلة فى بيت الشيخ حميد بن محمد القاسمى برأس الخيمة.

نام السائق عبد الله بندرى والمرافق العسكرى عيد بن خصيف فى المجلس الخارجى، أما أنا فقد نمت مع والدى فى غرفة داخلية بالبيت، وهى غرفة الشيخ حميد نفسه. وفى الصباح الباكر عندما فُتح باب تلك الغرفة شاهدت الساحة الداخلية لذلك البيت وقد أصبحت بركة ماء. فسألت والدى عما حدث ليلتها فقد كنت نائمًا طوال الليل. نادى والدى على عيد بن خصيف وأمره أن يحملنى إلى خارج البيت لأرى ما حل بالمدينة.

ما إن خرج بى عيد من البيت حتى شاهدت جميع البيوت، ومعظمها من السعف، قد تساوت مع الأرض، وإذا بالشاطئ أصبح قريبًا من بيت الشيخ حميد، والبحر يشاهد من هناك.

كانت هناك بين ثلاثة إلى أربعة بيوت من السعف بين بيت الشيخ حميد والبحر، وقد جرفتها الأمواج، وإذا بالآبار المطوية، التى كانت بالبيوت قد جرف البحر ما حولها من رمال، وتركها كأعمدة على ذلك الشاطئ العريض، بعد أن تناهى البحر فى الجزر.

أخذت أنا وعيد نهرول على الشاطئ إلى جهة الشمال، وإذا بالشاطئ يأخذنا ناحية الشرق، ويوصلنا إلى الخور.

كانت البيوت فى شمال بلدة رأس الخيمة قد أزالتها أمواج البحر العالية، بعد أن أوصلت البحر الهائج بخور رأس الخيمة.

كان والدى مشغول البال على الأهل فى منطقة الخرّان، فركبنا السيارة وأخذنا طريقنا إلى هناك، حتى إذا ما وصلنا لم نجد بيتنا قائمًا، وكان مكونًا من عدة خيام. وإذا بشقيقى خالد والخدم يتقدمون لاستقبالنا، وإذا بالوجوه عليها بشاشة: «الحمد لله ليس هناك مكروه»، قالها والدى وهو ينزل من السيارة.

تقدّم والدى، وكلنا معه، إلى القلعة، فإذا بغدران منصوب هنا وآخر هناك. وثالث بعيداً قليلا لملابس النساء، تتدلى منها الملابس المبلولة بمياه الأمطار.

روى شقيقى خالد لوالدى ما جرى تلك الليلة، فقال: «كنا نائمين فى الخيمة الكبيرة، والدتى وشقيقتى شيخة وناعمة وشقيقى الطفل عبد الله وأنا، فعصفت العاصفة، فما وجدنا إلا وأطناب الخيمة الكبيرة تقتلع من الأرض من كل الجهات لتبقى الخيمة محمولة على العمودين الأوسطين، فلما انكشفت الخيمة عنا، أخذت أنا وشقيقتى شيخة نجرى نحو القلعة فى الظلام الدامس، حتى إذا ما أبرقت السماء وجدنا شقيقنا الطفل عبد الله يحبو فى الصحراء فحملناه معنا إلى القلعة».

يقول شقيقى خالد، وهو يحدّث والدى:

«عندما دخلنا القلعة فوجئنا بعدم وجود والدتى وشقيقتى ناعمة، فأخبرت خالى سالم ابن خميس بذلك، وخرجت معه نبحث عنهما فى الخيمة، التى افترشت الأرض».

أخذ خالى وأنا ننادى عليهما، فسمعنا أصواتًا من تحت الخيمة الملتصقة بالأرض، فرفعنا طرفًا منها لنصل إلى موقعهما، وإذا بوالدتى تسأل عن عبد الله، فقلت لها: «عبد الله معنا فى القلعة».

قالت والدتى: «كنا نبحث عن عبد الله تحت الخيمة، التى كانت مبلولة وثقيلة، وكلما حاولنا أن نحبو ألصقتنا بالأرض، لكن المصيبة هنا يا محمد!».

والدى: «خير إن شاء الله».

والدتى: «بعد أن نمنا، نحن وزوجة خالك وطفلها فى القلعة، وإذا بالماء المملوء بالطين ينزل علينا من فتحة سلالم القلعة، بعد أن احتبس فوق سطحها، ليغرقنا فى بحيرة من الطين».

قال والدى: «لنرتحل إلى الشارقة، اجمعوا ملابسكم وأركبوا فى السيارة، واتركوا كل شيء، سيأتى به الخدم».

ركبنا السيارة متجهين إلى الشارقة، وفراق تلك المنطقة الجميلة يملأ قلوبنا. ■



كانت الشارقة، ومنذ أسبوع، قد اكتست بالأعلام والأقواس

فارسى أم عربى أم إنجليزى

عبدالخالق حسونة فى الخليج



حصن الشارقة

■■ فى أكتوبر عام ١٩٦٤م أعلن عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية أنه سوف يرأس بعثة لإقامة علاقات رسمية بين إمارات الخليج وجامعة الدول العربية، لأجل دراسة السبل الكفيلة بالمحافظة على الهوية العربية. وقد تقررت الزيارة، التى سيقوم بها عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية، فى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٤م. كانت الأيام التى قضاها عبد الخالق حسونة فى الإمارات كالتالى:

يوم الأربعاء الثامن والعشرون من أكتوبر ١٩٦٤م:

كانت الشارقة، ومنذ أسبوع، قد اكتست بالأعلام والأقواس. أما دبى فقد أصبحت فى ذلك اليوم فى أجمل مظهر من مظاهر الزينة، حيث كان العمل ليلة وصول الوفد مستمراً حتى الفجر برفع الأعلام وتثبيت الأقواس. وقد رُفعت الزينة أيضًا فى الإمارات الأخرى.

فى صباح ذلك اليوم، احتشد فى مطار دبى ما يقارب من ثلاثة آلاف فرد من أهالى دبى والإمارات الأخرى، وخليط من أجناس متعددة.

وصلت الطائرة المقلة لعبد الخالق حسونة فى تمام الساعة العاشرة صباحاً، وعندما نزل عبد الخالق حسونة والوفد المرافق له،



أمام حصن الشارقة: الشيخ سلطان بن صقر القاسمى ـ حاكم الشارقة، وإلى يمينه الشيخ سيف بن محمد بن مجلاد، وإلى يساره ضيف إنجليزى، وإلى يسار الضيف الوزير السيد إبراهيم بن محمد المدفع



أخذ المشاركون فى المظاهرة يهتفون بالنصر لجمال عبدالناصر، والسقوط للإمبريالية..



والمكوّن من سيد نوفل نائب الأمين العام ومندوبى السعودية والكويت والعراق لدى الجامعة، تقدم الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبى لاستقبالهم، فتدافعت الأعداد، مما استدعى الشرطة للتدخل حماية للوفد الضيف.

بعد تناول المرطبات فى مطار دبى، توجه الوفد إلى الفندق بدبى.

كانت هناك مظاهرة صغيرة، مكونة من عشرين فرداً، رافقتها شرطة دبى إلى الفندق، حيث يقيم الوفد.. عندها أصبح عددها مئة فرد. أخذ بعض أفراد من المتظاهرين فى التصرفات غير اللائقة، مما دفع الشرطة إلى توجيه المتظاهرين إلى أرض فضاء بالقرب من الفندق، حيث المحال التجارية مغلقة.. ثم قامت الشرطة بتفريق المتظاهرين بالهراوات، مما دفعهم إلى رشق الشرطة بالحجارة.

ربما لم يلاحظ أعضاء الوفد ما جرى خلف الفندق.. ولكنهم لاحظوا تلك السيارات المكتظة بالعمال اليمانيين والعدنيين وبعض طلبة المدارس، الذين قدموا من الشارقة، وأخذوا يهتفون بالنصر لجمال عبد الناصر، والسقوط للإمبريالية..

وخلال اليومين اللذين أمضاهما الوفد فى دبى، تم تكريمه بالولائم وحفلات الشاى من قبل الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبى، ومن مكتب الكويت فى دبى، ومن بلدية دبى. وأخيراً كان تكريم الوفد من الشيخ أحمد بن على آل ثانى حاكم قطر.

يوم الجمعة، الثلاثون من أكتوبر ١٩٦٤م:

كان ذلك يوم زيارة الوفد إلى الشارقة، حيث انتشرت قوات ساحل عُمان فى كل جزء من أجزاء المدينة.

معظم السيارات بالشارقة توجهت إلى دبى لاصطحاب الوفد إلى الشارقة. أما أنا ومعى مجموعة من المتظاهرين فقد كنا فى استقبال الموكب عند مشارف مدينة الشارقة. كنت يومها أتحدث للجماهير من خلال مكبر للصوت، ومن على ظهر إحدى السيارات حتى مدخل «المضيف»، حيث يوجد مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمى حاكم الشارقة.

كان هناك طلبة المدارس، والمدرسون يوجهونهم بالهتافات وتحريك الأعلام التى كانوا يرفعونها. كانت الساحة أمام المضيف والحصن مزدحمة بالمواطنين من الشارقة، يتخللهم بعض العرب والعمال من بلوش وإيرانيين.

عقد الوفد اجتماعاً مع الشيخ صقر ابن سلطان القاسمى، وتم بحث موضوع المساعدة المطلوبة.

بعد تلك المحادثات انتقل الوفد إلى البيت الذى أُعد لإقامة الوفد فيه، وقد سُمى «بيت حسّونة»، بالقرب من شجرة الرولة.

....

يوم السبت الحادى والثلاثون من أكتوبر ١٩٦٤م:

توجّه وفد الجامعة صباح ذلك اليوم إلى عجمان، حيث استقبلهم الشيخ راشد ابن حميد النعيمى حاكم عجمان، وجمع غفير من المواطنين الذين أخذوا يهتفون ضد إيران.

التفت السيد عبد الخالق حسونة للشيخ راشد بن حميد النعيمى وطلب منه أن يخبر مواطنيه بأن لا يهتفوا ضد أى دولة، لأن جميع الدول صديقة لجامعة الدول العربية.

عاد وفد الجامعة من عجمان إلى دبى مباشرة للإقامة هناك.

يوم الأحد الأول من نوفمبر ١٩٦٤م:

زيارة هادئة لأم القيوين.

يوم الاثنين الثانى من نوفمبر ١٩٦٤م:

زيارة الوفد لرأس الخيمة.

يوم الثلاثاء الثالث من نوفمبر ١٩٦٤م:

زيارة الوفد لكلباء والفجيرة.

يوم الأربعاء الرابع من نوفمبر ١٩٦٤م:

مغادرة الوفد من مطار دبى.

تم الاتفاق بين وفد الجامعة العربية وحكام الإمارات على إرسال بعثة فنية لدراسة احتياج المنطقة من المشروعات الضرورية.

بين الوزير البريطانى ومساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية

قرر المجتمعون بجامعة الدول العربية إرسال الدكتور سيد نوفل، مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، إلى الإمارات للحصول على موافقة خطية من كل حاكم على حدة.

سارعت السلطات البريطانية فى الخليج لإنشاء صندوق بديل عن صندوق جامعة الدول العربية.

....

فى العاشر من مايو من عام ١٩٦٥م، وصل إلى دبى الدكتور سيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، وبعد أربع وعشرين ساعة وصل إلى دبى «جورج تومسون» (George Thomson) وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية.

لم يبدد سيد نوفل الوقت هدراً، فقد زعم أن هنالك مبلغ ٩٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى موجودة بالفعل تحت إمرته، و٢٥٠,٠٠٠ أخرى من الكويت، ومثلها أيضاً من العراق، و٤٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى من الجمهورية العربية المتحدة.

فى صباح اليوم الحادى عشر من مايو من عام ١٩٦٥م، قام سيد نوفل بزيارة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى حاكم الشارقة فى مجلسه فى الشارقة.

وبعد محادثات مطولة، حمل معه الرسالة التالية للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«تأكيداً للمحادثة التى جرت هذا اليوم بينى وبين الدكتور سيد نوفل، مساعد أمين عام الجامعة، أحب أن أعرب عن شكرى وامتنانى للجامعة لخطط التنمية التى وضعتها، وأنا أرحب بالبدء فوراً بتنفيذها، وكذلك للترتيبات التى وضعت لإنشاء مكتب فى إمارة الشارقة».

فى صباح اليوم الثانى عشر من مايو من عام ١٩٦٥م، ذهب الشيخ صقر بن سلطان القاسمى متوجهاً إلى دبى لحضور اللقاء الذى رتبه الوكيل السياسى البريطانى فى دبى بين وزير الدولة البريطانى «جورج تومسون» وحكام إمارات الساحل، فى الوكالة البريطانية فى دبى، بالتتابع - لم يحضر حاكم الفجيرة،حيث كان فى الحج.



كان حديث الوزير البريطانى يدور حول الموضوعات التى تبنّاها كل من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج «سير وليام لوس» والوكيل السياسى البريطانى فى دبى، وهى كالتالى:

أ - لقد صممت حكومة صاحبة الجلالة على البقاء فى منطقة الخليج، وصيانة اتفاقياتهم والتزاماتهم تجاه الحكام.

ب- إن الضغط المتزايد والعدائى على موقعنا، وكذلك على الحكام، يجعل من الضرورة بمكان أن يتعاون الحكام مع بعضهم بعضاً ومعنا. فالمصريون والعراقيون سوف يستثمرون أية خلافات لإلحاق الأذى بالجميع. وبالتالى ستعمل حكومة صاحبة الجلالة على تشجيع الحكام، وحثهم لتجاوز ودفن خلافاتهم، وأن يجدوا المجالات التى تستوعب تعاونهم مع بعضهم بعضاً.

ج- وعلى وجه الخصوص، يجب على الحكام أن يقفوا جميعاً داعمين ومساندين لقرارات مجلس الإمارات المتصالحة، حسبما تقرر فى اجتماع الأول من مارس، والإصرار على أن يكون كل دعم يأتى من الخارج عبر قنوات صندوق تطوير الإمارات.

من خلال اللقاءات كان حاكم رأس الخيمة الذى يفترض أن يقابل السيد نوفل إثر ذلك، قد تلكأ وعقد ما بين حاجبيه.. أما حاكم الشارقة، الذى لم يفصح حتى ذلك الوقت عما كان قد اتفق حوله مع سيد نوفل، فقد بدا غير لطيف وكان قاسياً نوعاً ما.

فى مساء اليوم نفسه، قام سيد نوفل بزيارة كل من الشيخ راشد بن حميد النعيمى حاكم عجمان، والشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين، والشيخ صقر بن محمد القاسمى حاكم رأس الخيمة.

فى مقابلة الشيخ راشد بن حميد النعيمى حاكم عجمان، كان سيد نوفل يلح على الشيخ راشد بن حميد أن يعطيه رسالة شبيهة برسالة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى، لكن الشيخ راشد بن حميد النعيمى بيّن أن الحكام قد اتفقوا على إنشاء صندوق لمجلس التطوير، توضع فيه كل المنح المقدمة للإمارات.

وتحت إصرار سيد نوفل، منحه حاكم عجمان رسالة شبيهة برسالة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى، باستثناء الجملة الأخيرة بخصوص فتح مكتب لجامعة الدول العربية.

وفى مقابلة سيد نوفل للشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين، تسلّم الرسالة التالية، الموجهة للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«يسرنى أن أرسل لسعادتكم ترحيبى بالمساعدة التى يعتزم القائمون فى الجامعة العربية تقديمها إلينا ولإخواننا فى ساحل عُمان. ونشكر سعادتكم للتعاطف والاهتمام الذى أحطتمونا به، ونسأل الله التوفيق لنا ولكم».

أما الشيخ صقر بن محمد القاسمى حاكم رأس الخيمة، فقد كتب الرسالة التالية للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«اليوم زارنا سعادة الدكتور نوفل، ولقد سرنا ما قاله لنا.

سارعت السلطات البريطانية بإنشاء صندوق بديل عن صندوق جامعة الدول العربية



وتأكيداً لمحادثتنا معه يسرني أن أبلغ سعادتكم أننا نرحب بجميع جهودكم فى مساعدة هذا الجزء من الوطن العربى.

وإننا نعلن موافقتنا على إمكانية فتح مكتب الجامعة العربية فى رأس الخيمة. وفى هذا السياق يسعدنا أن نقدم للجامعة العربية كهدية متواضعة إحدى بناياتنا الجديدة فى شارع عُمان، متمنياً أنها ستكون مناسبة المواصفات كى تتخذ كمكتب للجامعة فى الإمارة».

مقابلة بين حاكم الشارقة والـوزيـر الـبـريـطـانــى

كان وزير الدولة البريطانى قد قبل دعوة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى حاكم الشارقة، لتناول الشاى معه فى اليوم التالى الموافق للثالث عشر من مايو ١٩٦٥م؛ حيث قرر الوزير تأجيل المواجهة الختامية مع الشيخ صقر حتى ذلك الوقت.

وأثناء حفلة الشاى، التى أقامها الشيخ صقر فى المجلس العام فى المضيف بالشارقة، عُقد اجتماع بين الشيخ صقر والوزير البريطانى «جورج تومسون».

إلى جانب الوزير البريطانى، حضر الاجتماع «سير وليام لوس» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج، والسيد «بلفور بول» الوكيل السياسى البريطانى فى دبى، الذى تولى الترجمة بين الحاكم والوزير البريطانى.

قال الوزير البريطانى: «لقد حذرتك سابقاً من العمل مع الجامعة العربية، وبلغتنى بأنك تؤيد هذا التعاون، وستوافق على فتح مكتب للجامعة فى الشارقة. وأريد أن أتحدث اليوم عن هذا الأمر مرة ثانية . بطريقة رسمية».

وأود أن أسألك: «هل أعطيت الدكتور سيد نوفل رسالة توافق فيها على خطط الجامعة العربية؟».

الحاكم: «نعم، أعطيته رسالة أوافق فيها على التعاون مع الجامعة، وقد تم حسم الأمر».

الوزير البريطانى: «إن المعاهدة المبرمة بينك وبين بريطانيا تمنعك من الاتصال بأى أجنبى، فيما يتعلق بالشئون الخارجية، إلا من خلال المقيم السياسى البريطانى فى الخليج، أو فى منطقتك. وكما تعلم، فإن مصالحنا هى مصالحكم، ويجب المحافظة عليها».



فى كلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٦٩م

الحاكم: «نحن جوعى وعطشى، والجائع يقبل المساعدة من أى دولة تعرضها».

الوزير البريطانى: «هذا لا يقع فى حدود اختصاصك».

الحاكم: «جاءت بعثة الجامعة العربية قبل ستة شهور..لماذا لم تعترضوا عليها فى ذلك الوقت؟».

الوزير البريطانى: «نحن نهتم بمصالحكم».

الحاكم: «هل تهتمون بمصالحكم أم بمصالحنا؟».

الوزير البريطانى: «دعنا نعود إلى الموضوع مجدداً. هل لا تزال مصرّاً على ما قلته للجامعة العربية؟».

الحاكم: «لقد تم حُسم الموضوع».

الوزير البريطانى: «إن هذا يتعارض مع المعاهدة المبرمة بيننا».

الحاكم: «لست أول من وافق على التعاون مع الجامعة العربية. وإننى أطلب ألاّ تكتفى بريطانيا بالنظر إلى قدميها فقط، بل تنظر للمستقبل، وإلا فإن مشكلة ستنشأ مثل مشكلة عدن أو البحرين».

الوزير البريطانى: «ألم توافق مشيختكم على عدم إجراء أى اتصالات خارجية قبل التشاور مع المقيم السياسي؟».

الحاكم: «لقد تعهدت بأن أهتم بمصالح بلدى قبل كل شيء آخر».

الوزير البريطانى: «ولكنك ملزم بالمعاهدة. وتنص المعاهدة على أن تدير بريطانيا شئونكم الخارجية لكم».

الحاكم: «هذه ليست معاهدة عادلة، لأنها أبرمت بين طرف ضعيف وطرف قوى، ويجب إعادة النظر فيها».

الوزير البريطانى: «نحن نُصرّ على عدم فتح مكتب الجامعة العربية فى المنطقة».

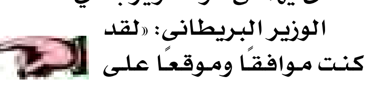
الحاكم: «هناك مكاتب لدول غير عربية فى المنطقة، ولدى الكويت مكتب فى المنطقة».

الوزير البريطانى: «إن المكتب الكويتى موضوع قديم».

وأضاف قائلا: «إننى أطلب منك أن تفكر فى الأمر ملياً، إنه موضوع خطير».

الحاكم: «إننى لا أفكر ملياً فى الوقت الحاضر فى أمور خطيرة أو غير خطيرة.. فالذى يهمّنى هو تطوير بلدي».

الوزير البريطانى: «لقد كنت موافقاً وموقعاً على





بعد ٢٤ ساعة من وصول سيد نوفل، وصل إلى دبى وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية



قرارات مجلس الإمارات، حسبما تقرر فى اجتماع الأول من مارس، على أن كل دعم يأتى من الخارج لابد من مروره عبر قنوات صندوق تنمية الإمارات».

الحاكم: «اعتبره أمراً لاغياً وغير ملزم».

وأعقب ذلك فترة صمت، نظر خلالها الوزير البريطانى حوله فى الغرفة، ومن ثم استؤنف النقاش.

الوزير البريطانى: «إنك تقيم فى منزل جميل، به كل التسهيلات».

الحاكم: «لست مهتماً بالمنزل، سواء كان جميلا أو قبيحاً، ولكننى لا أريد أن أسمع الناس وهم يلعنون أبنائى بعد أن أذهب».

الوزير البريطانى: «نحن ننفق الملايين سنوياً على مئة ألف نسمة فى الإمارات».

الحاكم: «هل تقصد ما تنفقونه على الجيش أو كشافة ساحل عُمان المتصالح؟».

الوزير البريطانى: «لقد أُنشئت كشافة ساحل عُمان المتصالح لحماية الحاكم، فى المقام الأول، وأنابيب النفط فى المقام الثاني».

الحاكم: «ليس لديّ من شيء كي أشكر الحكومة البريطانية عليه، على مرّ السنين».

الوزير البريطانى: «للمرة الثالثة، أطلب منك التفكير مجدداً فى هذا الأمر: نحن لا نريد فتح مكتب للجامعة العربية».

الحاكم: «كلا، لا أستطيع أن أسحب موافقتى. وتستطيعون أن تفعلوا ما تريدونه بالقوة. وعموماً، أود أن أذكركم أن نائباً بريطانياً قال مؤخراً فى البرلمان البريطانى: إن الإمارات مستقلة، ومسئولة عن تصرفاتها الخاصة، ونحن لسنا مسئولين عن تخلفها».

الوزير البريطانى: «كنت أنا الذى تحدث فى البرلمان. ولكننى قلت إنكم مستقلون فى الشئون الداخلية، وأما بالنسبة للشئون الخارجية والدفاع فالتى تتولاهما هى بريطانيا. ويجب عليّ أن أبقى مصراً على عدم فتح مكتب للجامعة العربية».

الحاكم: «لا أنا ولا أى حاكم عربى يستطيع أن يمنع الجامعة العربية من المجيء إلى الساحل أو يمنع المساعدات الأخوية من الوصول إلى هنا، بينما تسمحون بالمعونات الأجنبية منكم ومن آخرين».

الوزير البريطانى: «تستطيع أن تقترض من أى مصدر، ويمكنك قبول العون من روسيا أو الصين أو أى مكان آخر، ولكننا لن نسمح بفتح مكتب للجامعة العربية، وسنمنع حدوث هذا بكل قوتنا».

الحاكم: «لقد أصبحت صداقة بريطانيا طعنة فى الظهر، وحاجزاً أمام تقدمنا. ثم ما الذى يجعل بريطانيا تفتح مكتب تطوير الآن؟ إذا كان سبب ذلك الحب، فلماذا يحدث هذا الآن؟ وإذا كان الدافع هو الخوف، فالعرب هم إخواننا، ونحن لن نرفض عونهم».

الوزير البريطانى: «أشكرك على صراحتك. ولكن لا تتعجل فتح مكتب للجامعة العربية. وسأرفع أفكارك إلى رئيس الوزراء».

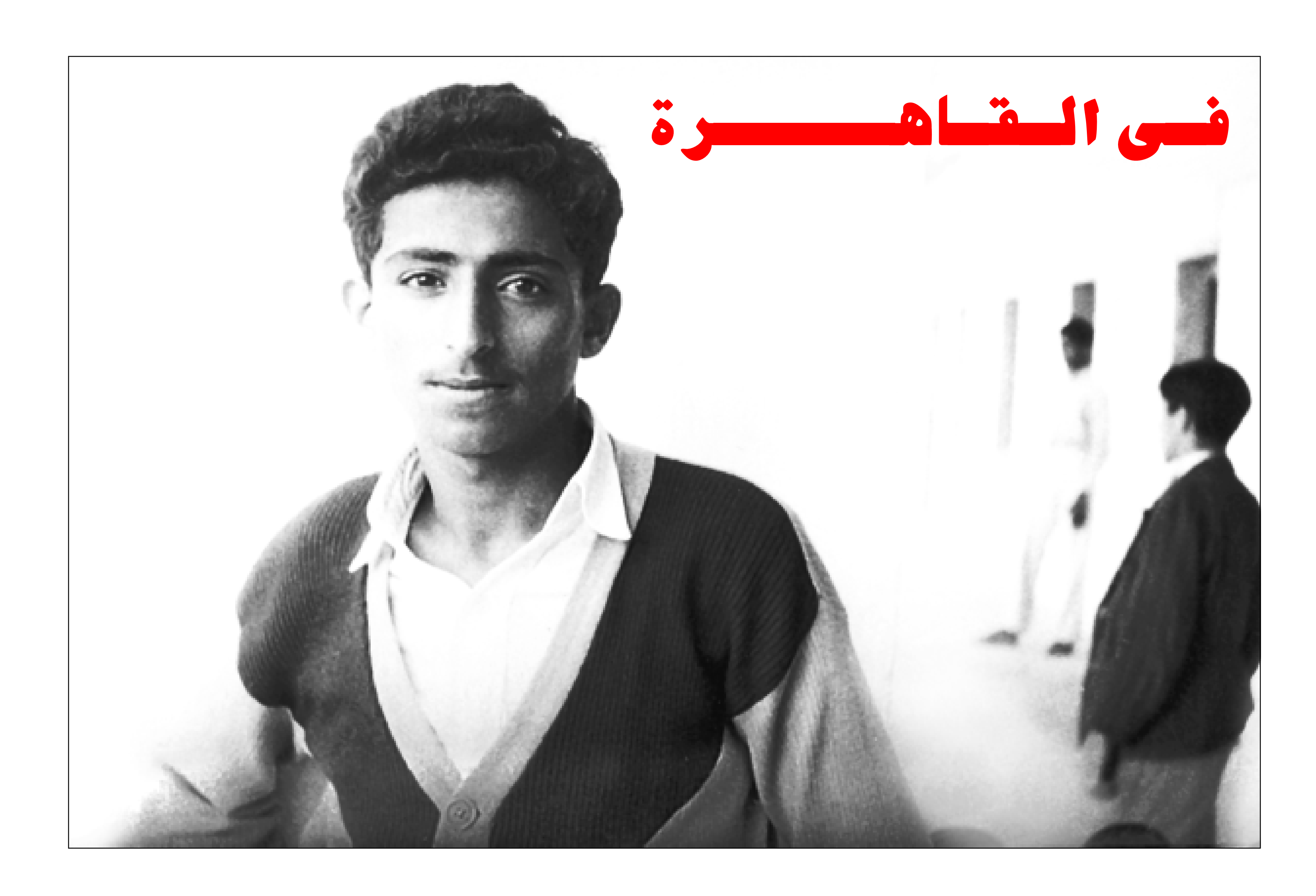


على مدى أكثر من شهر، حاولت السلطات البريطانية بالترغيب والترهيب تغيير موقف الشيخ صقر بن سلطان القاسمى تجاه جامعة الدول العربية، وجعله يسحب الرسالة التى سلمها لسيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، أو إرساله إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية رسالة يقول فيها بأنه يقبل مساعدة جامعة الدول العربية لإمارته، على أن يحول أى تبرع من الدول الأعضاء فى الجامعة إلى صندوق تطوير الإمارات.

لكن الشيخ صقر بن سلطان القاسمى كان قد أحرق جميع سفنه، ولا عودة له عما اتخذه من قرارات. ■

الساحة أمام المضيف والحصن مزدحمة بالمواطنين من الشارقة لاستقبال السيد عبدالخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية

فى القاهرة



حرب يونيو ١٩٦٧م

■ كانت الاستعدادات للحرب قائمة، وما إن بدأ شهر يونيو سنة ١٩٦٧م حتى بدأت معه امتحانات الفصل الثانى للسنة الثانية فى كلية الزراعة.

كنا قد امتحنا فى بعض المواد، عندما سمعنا صوت المدافع ظهر يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧م. خرجت إلى الشارع فوجدت الناس تهلل وتكبر، وكان آخرون ينظرون إلى السماء، محاولين مشاهدة بعض الطائرات الحربية، وهى تحلق على ارتفاع عالٍ فى يوم مغبر.

توجهت إلى حى العجوزة، وإلى بيت يوسف الحسن ورياض أبو محمود، وهو زميلى فى كلية الزراعة، ومن هناك إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى لمقابلة السيد فتحى الديب.

وهناك تجمّع الطلبة من جميع البلاد العربية، وتقرر أن ننضم إلى المتطوعين من الرجال الذين يطلبون نقلهم إلى الجبهة. لم نكن قد خضعنا لأية دورة عسكرية تدريبية، فلذلك تقرر نقلنا إلى معسكر بنى يوسف فى الهرم. وعلى مدى يومين تعلمنا وتدربنا على السلاح، ثم أتت الأوامر بنقلنا إلى المعسكر المقام فى نادى الجزيرة.

وبعد يومين آخرين من التدريبات، جاءت المفاجأة مساء يوم التاسع من يونيو ١٩٦٧م: تنحى الرئيس جمال عبد الناصر!

خرجت الجماهير الغفيرة تتدافع بعد أن ملأت الشوارع، وغابت شمس ذلك اليوم ودخلنا فى ظلام دامس؛ حيث أطفئت جميع الأنوار، فلم أستطع أن أتقدم أى خطوة للأمام لوجود كتل من البشر تملأ الشوارع، فجلست على دكة برصيف شارع الجيزة، من بعد جسر الجلاء، وكانت الناس تمر أمام ناظرى، فجادت القريحة:

بلادى فيك سر عجيب
صاحب الدار فيك غريب
من أولج الفجر فيك بالمغيب
من أذاب الضحك فيك بالنحيب
إنه منى ومنك ومن كل قريب
من عدو أشهر اليوم سهامه
يا ندامه يا بلادى، يا ندامه

لاظوغلى

عدت إلى القاهرة لأكمل دراستى فى المواد المتبقية من السنة الدراسية الثانية (١٩٦٧/١٩٦٨م) فى كلية الزراعة، فأرسل لى شقيقى الشيخ خالد بن محمد القاسمى سيارة مرسيدس بيضاء اللون، طرازها للعام ٦٨، وقد نزل فى الأسواق مبكرًا.

وكان لدىّ من المواد الدراسية عدد قليل، لذلك استثمرت الوقت لدراسة النقوش الإسلامية على المساجد والمبانى التراثية. كانت سيارتى لافتة للنظر، تتوقف كثيرًا أمام المساجد والمبانى التراثية، ينزل منها شاب يتفحص تلك المبانى بنظره ومن ثَم يدخلها، ومرات يصعد كومة زبالة قد غطت جزءًا من المبنى. تعب رجال المخابرات الذين كانوا مكلفين بمراقبتى؛ حيث كانت سيارتى أسرع منهم، مما اضطر المباحث العامة إلى أن تكلف الرائد شوكت حسنى - المكلّف بمتابعة نشاط الطلبة العرب، وقد التقيته مرات عدة فى بعض المناسبات، وكان اللقاء بالتحية فقط - أن يتصل بى، حيث قال لى: «أريد أن أتعرف عليك!».

قلت: «بشرط، أن تزيل الظل الذى يتبعنى!».

قال: «ذاك أمره لدى «الراجل الكبير».

قلت: «مَن؟! عبد الناصر؟!».

قال: «لا.. الراجل بتاعنا فى لاظوغلى».

قلت: «أين؟!».

قال: «فى المباحث العامة».

رتّب لى الرائد شوكت حسنى لقاء اللواء محمود شعراوى؛ رئيس شعبة مجموعة النشاط العربى، فاستقبلنى استقبالا حسنًا، ثم طلب أحد الموظفين، فلما حضر، قال له: «هات لى ملف سلطان».

قلت: «هو أنا لى ملف عندكم؟».

قال: «طبعًا، لكل واحد ملف».

وفى لمح البصر حضر الملف، وكأنما قد كان محضراً لذاك اللقاء..

فتح الملف، وأخذ اللواء محمود شعراوى يقلب صفحاته، ويقرأ أجزاءً منه قائلا: «فى يوم كذا زار المكان كذا».

وأخذ يعد الأماكن التى كنت أزورها، ثم قال: «أنت بتعمل إيه؟».

قلت: «أتعرّف على مصر».

قال: «تتعرّف على مصر من هذه الأماكن؟».

قلت: «تريدنى أن أتعرّف عليها من شارع الهرم؟!».

(شارع الهرم ملىء بالملاهى الليلية).

قال: «استغفر الله!».

وقف مودعًا، وما زال الملف مفتوحًا..

قلت: «هل سيبقى الملف مفتوحًا؟».

همّ بإغلاق الملف، قائلا: «سنغلقه!».

قلت: «بالطريقة الأخرى؟!».

قال: «وبالطريقة الأخرى كذلك». ■

نظام التعليم العالى المصرى لا يخدم الاحتياجات الراهنة، وإن لم يحدث إصلاح واسع النطاق فسوف يحول دون تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى مصر»

من التقرير

التعليم العالى المصرى رؤية دولية

معتـــــز خورشـــيد

■■ بدعوة من الحكومة المصرية أعد فريق بحثى من خبراء البنك الدولى ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD دراسة مستقلة - صدرت فى النصف الاول من عام ٢٠١٠ - لتقييم نظام التعليم العالى المصرى وإسداء المشورة بشأن تطويره فى المستقبل، وهو توجه يتعين تهنئة الحكومة المصرية على الأخذ به. وتنبع أهمية التقرير من درجة شموله لقضايا التعليم العالى المصرى واختلالاته الهيكلية وتوجهاته الاستراتيجية ومدى تأثيره المباشر وغير المباشر على أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى مصر، ومن ثم متطلبات إصلاحه وتحديثه.

إذا يؤكد التقرير - فى ملخصه التنفيذى - أن «نظام التعليم العالى المصرى لا يخدم الاحتياجات الراهنة، وإن لم يحدث إصلاح واسع النطاق فسوف يحول دون تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى مصر». ويشير فى مجال آخر إلى حتمية إجراء إصلاح جوهرى فى نظام التعليم العالى المصرى وإن «النظام الراهن فى حاجة إلى إعادة بناء وتطوير، ولا يزال انتاجه موجها إلى حد كبير نحو اقتصاديات الماضى، وتُعبر توقعات المجتمع المحلى منه عن فهم لدوره عفى عليه الزمان».

ويضيف التقرير أن النهج الاصلاحى الجارى اتباعه - برغم الجهود التى تبذلها الحكومة المصرية فى هذا الصدد - يركز بصفة رئيسية على التغيرات الإجرائية، ومن ثم فإنه يتعين إيلاء المزيد من العناية للاصلاحات الهيكلية وتغيير الثقافة المؤسسية وزيادة قدرة النظام على المساهمة فى تحقيق الأهداف الانمائية على المستوى القومى وهو ما يتطلب - بطبيعة الحال - إعادة النظر فى الاستراتيجيات طويلة الأجل ووضع سياسات وبرامج على درجة عالية من الاتساق والشمول ودعم عملية التحسين المستمر لجودة نظام التعليم ما قبل الجامعى وفعاليته.



ويتعين على الحكومة المصرية - فى هذا المجال - أن تولى التقرير درجة عالية من الأهمية بما يتضمنه من رؤى استراتيجية وإصلاحات هيكلية، ومناقشته بشكل موسع مع خبراء التعليم، والمهتمين بشئون التنمية البشرية، وأساتذة الجامعات، ولجان التعليم بمجلسى الشعب والشورى، والأحزاب السياسية ومؤسسات المجتمع المدنى ذات العلاقة.

ويفرق التقرير - بشكل عام - بين الضغوط التى تنشأ من مناخ التعليم العالى الجديد بالألفية الثالثة وخصائصه المغايرة، وبين الاختلالات الوظيفية المتراكمة التى يتعين التصدى لها من قبل متخذ القرار التعليمى المصرى، ومن ثم يقترح حزمة السياسات والإجراءات المطلوبة لتحديث منظومة التعليم العالى المصرية وتصحيح مسارها بغية تحقيق أهداف التنمية البشرية. حيث تشهد منظومة التعليم العالى ضغوطًا تنشأ من حاجة مصر إلى مواكبة التطورات الحديثة فى مناخ التعليم العالى بالالفية الثالثة من خلال ما يلى:

تحسين قدراتها التنافسية للتفاعل مع النقلة النوعية فى مجال العلم والتكنولوجيا والابتكار البحثى والاقتصاد العالمى القائم على المعرفة، من خلال تكثيف استثماراتها فى تنمية رأس المال البشرى والمعرفى كأحد عناصر الإنتاج الحديثة بالالفية الثالثة.

مواجهة الطلب المتزايد على التعليم العالى من خلال زيادة عرض الخدمات التعليمية للطلاب وفق متطلبات سوق العمل.

الحد من التفاوتات الاجتماعية الناجمة عن تباين فرص التعليم.

ويتطلب التوجه الأول ضرورة صياغة مشروع قومى تنموى للانتقال إلى مجتمعات الحداثة والاقتصاد المعرفى فى ظل خطة استراتيجية حاكمة للمسار المستقبلى لمصر. وهو مشروع يحتاج بالأساس إلى تعبئة الجهود الوطنية نحو تحقيق الغايات الانمائية طويلة الأجل ويتطلب قناعة جميع شرائح المجتمع المصرى بحتميته.

أما التوجه الثانى فيتطلب إعادة هيكلة منظومة التعليم العالى لمواجهة الزيادة المتوقعة فى الطلب على خدماتها كنتيجة للزيادة السكانية والطبيعة الشبابية للهيكل العمرى فى مصر من ناحية، وللأخذ فى الاعتبار بالتوجه العالمى لديمقراطية التعليم العالى من حيث عدالة توزيع خدماته وإتاحتها لشرائح المجتمع دون استثناء، من ناحية أخرى. ويواكب هذه الزيادة فى الطلب على خدمات التعليم العالى - بالالفية الثالثة - تنوع وتمايز فى فرص العمل بالأسواق الاقتصادية يتعين اتباع السياسات التعليمية الملائمة للتفاعل معها. أى أن منظومة التعليم العالى فى عصرنا الراهن يجب أن تتسم بدرجة عالية من المرونة والتنوع فى برامجها الأكاديمية وأنظمتها التعليمية وهياكلها المؤسسية لمقابلة الطبيعة الديناميكية لأسواق العمل بالألفية الثالثة. ومن هنا فقد ربط التقرير زيادة عرض الخدمات التعليمية بتنوعها وقدرتها على مواكبة الطلب فى أسواق العمل المحلية والعالمية.

وأخيراً يؤكد التوجه الثالث الحد من التفاوتات الاجتماعية الناشئة عن الاختلافات فى فرص التعليم. وفى اعتقادى أن الدور الحكومى - بمسئوليته المباشرة عن التعليم العام واشرافه على التعليم الخاص - لابد أن يضع السياسات والتدابير التى تُحد من هذا التباين فى فرص التعليم من خلال توفير مستويات جودة ملائمة فى برامج التعليم العالى لمن لديه القدرة العلمية والكفاءة الأكاديمية بصرف النظر عن قدراته المالية. ومن المفروض ألا يؤدى هذا التوجه إلى أى تقليل فى دور القطاع

يتضح من المؤشرات التحليلية للتعليم العالى أن الجامعات الحكومية تتسم بشمولها لمعظم التخصصات العلمية دون النظر إلى التميز النسبى والقدرات التنافسية لكل منها



يتعين اتباع سياسات جديدة واستراتيجيات مغايرة من أجل تعظيم مهارات الخريج من حيث القدرة على التوظف والمتطلبات المهنية بأسواق العمل المحلية والأجنبية



حيث إن العاملين فى مجالات البحث العلمى من الجامعات يمثلون نحو ٧٣٪ من جملة قوة العمل البحثية فى مصر، فعلى منظومة العمل الجامعى أن تتصدى لهذا الاختلال الوظيفى وإيجاد الحلول المناسبة للتغلب عليه

الخاص لاستكمال الطاقة الاستيعابية لمنظومة التعليم العالى وتحقيق التنوع المرغوب فى برامجها الأكاديمية، بل من المطلوب أن يتوجه الدور الرسمى للدولة إلى تحسين التوجيه والتنسيق على الصعيد الوطنى لضبط أوتار منظومة التعليم ووضع المعايير الحاكمة لمعدلات إتاحة فرص التعليم العالى وعدالة توزيعها على جميع شرائح المجتمع الطلابى، وهو ما اصطلح على تسميته بالبعد الاجتماعى للعملية التعليمية.

أما الاختلالات فى هيكل التعليم العالى ووظائفه المجتمعية، فقد حددها التقرير فى أربع نقاط تتمثل فى الآتى:

١- قلة المجالات المتاحة للطلاب وفرص الوصول إليها. إذ يتضح من المؤشرات التحليلية للتعليم العالى أن الجامعات الحكومية تتسم بشمولها لمعظم التخصصات العلمية دون النظر إلى التميز النسبى والقدرات التنافسية لكل منها. غير أن هذا التعدد يتركز ـ فى غالب الأحيان ـ فى التخصصات التقليدية التى تراجع الطلب عليها فى أسواق العمل بالالفية الثالثة، وليس فى البرامج الحديثة الأكثر رواجاً وطلباً. أما الجامعات الخاصة والاهلية التى كان من المفروض أن تتوجه إلى استكمال التخصصات العلمية المقدمة من الجامعات الحكومية وطرح برامج أكاديمية جديدة ـ وفق احتياجات أسواق العمل فى الاقتصاد العالمى القائم على الإنتاج المعرفى والابتكار البحثى ـ فقد وقعت فى فخ تكرار البرامج الدراسية التى تقدمها الجامعات الحكومية.

٢ - رداءة نوعية المدخلات وعدم كفاءة العمليات التعليمية. إذ إن أى استراتيجية لتعزيز قدرات التعليم العالى لابد أن تتعثر فى ظل تدنى المستوى العلمى لخريج المرحلة الثانوية وسوء تنظيم العملية التعليمية الجامعية وأساليب إداراتها وتخطيطها المستقبلى. ومن ثم فإن تطوير وتحديث أساليب حوكمة الجامعات وتحسين مستويات جودة مدخلاتها ـ من خلال اعادة هيكلة منظومة التعليم ما قبل الجامعى ـ يمثل أحد العوامل الحاكمة لتحقيق الأهداف القومية فى مجال تعزيز قدرات التعليم العالى وتنمية الموارد البشرية المصرية.

٣- أوجه القصور فى مخرجات التعليم مقارنة باحتياجات سوق العمل. من المسلم به أن ارتفاع مستويات البطالة لا ينتج فقط عن النقص فى فرص العمل المتاحة (أى الطلب على خريجى التعليم العالى)، بل أيضاً لقصور مؤسسات التعليم العالى المصرية فى توفير الخريج القادر على التفاعل مع معطيات مجتمعات المعرفة والمنافسة مع أقرانه من حيث مستوى مهارته وقدراته المهنية. ومن المؤكد ايضاً أن منظومة التعليم العالى المصرى تحتاج إلى المزيد من التوازن بين المعروض من خريجى الجامعات ومخرجات التعليم الفنى والمهنى وهو ما يمكن أن يساهم فى توفير المهارات العملية المتصلة باحتياجات سوق العمل. يضاف إلى ما سبق، ضرورة توافر قواعد معلومات تُنتج مؤشرات تحليلية فى الوقت المناسب عن قوى العرض ومصادر الطلب فى سوق العمل.

٤- عدم كفاية تطوير القدرات البحثية الجامعية وربطها مع نظم البحث والابتكار الوطنية. وهى قضية متعددة الأبعاد تبدأ بالحاجة إلى التوسع فى نشر ثقافة البحث العلمى فى الجامعات وقطاعات الانتاج السلعى والخدمى، وبضرورة إجراء إصلاحات هيكلية فى منظومة البحث العلمى والتكنولوجيا فى مصر وتنتهى بحتمية تطوير القدرات والمهارات البحثية بما يواكب التطورات العالمية الحديثة. وحيث إن العاملين فى مجالات البحث العلمى من الجامعات يمثلون نحو ٧٣٪ من جملة قوة العمل البحثية فى مصر، فعلى منظومة العمل الجامعى أن تتصدى لهذا الاختلال الوظيفى وإيجاد الحلول المناسبة للتغلب عليه.

ولمواجهة الضغوط الناشئة عن النظام التعليمى العالمى الجديد بالألفية الثالثة والاختلالات الوظيفية التى يعانى منها هيكل التعليم العالى. فثمة ضرورة ـ وفق مقترحات التقرير ـ إلى توجيه ما يتخذ من سياسات وإجراءات إصلاحية نحو ما يلى:-

الحد من الجمود الهيكلى فى نظام التعليم العالى.

تحسين التوجيه والتنسيق على المستوى الوطنى.

توسيع نطاق الاختيارات المتاحة للطلاب.

زيادة قدرة ومرونة سياسات مؤسسات التعليم العالى فى ظل نظام أكثر تنوعاً.

تحسين توافر المعلومات لتوجيه الطلاب فى اختياراتهم.

تمويل النظام بأسلوب يتسم بمزيد من العدالة والكفاءة بما يسمح بالاستدامة المالية.

وحيث أن هذه القضايا الاصلاحية قد طُرحت فى أكثر من مجال وتمت مناقشتها على المستويين الرسمى والخاص، فإنه من الضرورى ربطها بتوجهات محددة لاصلاح التعليم العالى وتعديل مساره فى اتجاه تحقيق الاهداف القومية، وهو ما طرحه التقرير من خلال اقتراح حزم من السياسات التعليمية ترتكز على المحاور التالية:-



أولا: توضيح القدرات المتوقعة من مخرجات التعليم العالى.

يحتاج الطالب والخريج والمؤسسة التعليمية وأولياء الأمور وأرباب العمل جميعاً إلى قاعدة بيانات تحليلية تتضمن مؤشرات وإحصاءات أكثر وضوحاً وشمولا عن أهداف التعليم العالى المصرى فى التخصصات العلمية المختلفة، وتعريف بالمؤهلات العلمية ودورها فى دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتلبية احتياجات أسواق العمل، ومعايير انجاز الخريج على المستويين العلمى والمهنى والمهارى. ويتطلب ذلك ـ بالضرورة ـ وضع محددات للمؤهلات العلمية ومسارات الأفراد فى كل منها. وأخيراً فإنه يتعين اتباع سياسات جديدة واستراتيجيات مغايرة من أجل تعظيم مهارات الخريج من حيث القدرة على التوظف والمتطلبات المهنية بأسواق العمل المحلية والأجنبية.

ثانياً: التوازن بين مخرجات التعليم العالى واحتياجات سوق العمل

تمثل هذه القضية اختلالا وظيفياً هاماً يعانى منه نظام التعليم العالى المصرى وقضية ذات بعد استراتيجى، ومن ثم فإنه يتعين على مصر أن تركز جهودها ـ فى هذا الصدد ـ لتحقيق الأهداف التالية:

١ - المزيد من الاتساق بين خريجى الجامعات العامة والخاصة من ناحية وخريجى التعليم الفنى والمهنى من ناحية أخرى بغية الارتقاء بنسبة الخريجين المتمتعين بالمهارات والقدرات المهنية المطلوبة فى سوق العمل.

٢ - التوسع فى الفرص المتاحة للطلاب لإجراء دراسات من الممكن أن تساهم فى زيادة معدلات الالتحاق بأسواق العمل، وهو ما يتطلب دراسات متعمقة عن حركة ومسار قوى العرض واتجاهات الطلب بالأسواق المصرية والاقليمية.

٣ - دعم استقلال الجامعات وإعطاؤها المزيد من السلطات التقديرية لتقديم ورش عمل ودورات تاهيلية تستجيب لرغبة الطالب فيما يتصل بفرص التوظف فى أسواق العمل.

٤ - إضفاء بعد عملى على المقررات الاكاديمية بالجامعات من خلال مشاركة أصحاب العمل والهيئات المهنية والنقابية فى تصميم هذه المقررات وتقييمها.

٥ - توفير المعلومات والمؤشرات التحليلية والإسقاطات المستقبلية فى الوقت المناسب عن قوى العرض واتجاهات الطلب فى سوق العمل.

٦ - تطوير نظم للتوجيه وإسداء المشورة بشأن عرض

الوظائف وفرص العمل للمساهمة فى دعم الطلاب وأولياء أمورهم فيما يخص إجراء اختيارات تعليمية مستنيرة.

ثالثاً: تعزيز القدرة الوطنية للتوجيه والتنسيق

يرى التقرير المعد من قبل خبراء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولى انه يتعين اتخاذ خطوات جادة لتحقيق المزيد من التوازن الفعلى بين التنظيم الذاتى المؤسسى والتنسيق الحكومى الشامل فيما يتصل بجودة نظام التعليم العالى وتكلفته فى مصر. ويُقترح - فى هذا الصدد - إنشاء مجلس أعلى للتعليم العالى بالاضافة إلى المجلس الأعلى للجامعات الحكومية ومجلس الجامعات الخاصة والاهلية ومجلس المعاهد العليا، وذلك لضمان حد أدنى من الإشراف على منظومة التعليم العالى على المستوى الوطنى. وبالطبع سيختص هذا المجلس الاعلى بوضع الاستراتيجيات والسياسات الكلية وتقديم خدمات المعلومات الداعمة للتعليم العالى فى مصر. وتجدر الاشارة فى هذا المجال إلى أن وزارة التعليم العالى قد قدمت - منذ ثلاثة أعوام - مقترحا مماثلا لم يلق قبول الجامعات الخاصة والاهلية ونوادى أعضاء هيئة التدريس فى ذلك الوقت وتراجعت الحكومة المصرية عن تنفيذه.

رابعاً: تنويع المعروض من فرص التعليم العالى

يقترح خبراء البنك الدولى ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية - من أجل تلبية احتياجات كيان طلابى متنام ذى احتياجات وقدرات ودوافع متباينة - أن يتوجه الاصلاح الهيكلى إلى تحديث التعليم الفنى والمهنى، والتوسع فى نشاط القطاع الخاص وما يقدمه من خدمات تعليمية، واستخدام تكنولوجيات التعليم الحديثة - من خلال زيادة الاعتماد على التعليم الالكترونى والتعلم عن بعد - ودمجه مع منهجيات التدريس وجهاً لوجه. ويقترح التقرير أيضاً فتح المجال أمام بدائل أخرى مثل مؤسسات التعليم العالى الأجنبية. أى أن الهيكل التعليمى الحالى المعتمد على الجامعات الحكومية - اساساً - مع مشاركة من مؤسسات التعليم الخاص، لا يستطيع فى الوقت الراهن تلبية متطلبات كيان طلابى متنام ومتعدد الاحتياجات.

ويتعين على الحكومة المصرية - فى هذا المجال - اعادة النظر بالكامل فى نظام التعليم الفنى والتدريب المهنى القائم، حيث أنه يلقى تقديراً ضعيفاً من شرائح المجتمع المصرى ويعتبر بديلا غير جذاب فى شكله الحالى. ومن هنا فإن





زيادة الاستثمارات العامة فى مجال التعليم وزيادة نصيب الإنفاق على التعليم من الناتج المحلى الإجمالى ومن الإيرادات العامة



إحدى أولويات تطوير التعليم العالى تكمن فى تحديث نظام التعليم الفنى والتدريب المهنى من خلال تحسين مكانة مؤهلاته، وتحديث امكاناته المادية وتنمية موارده البشرية، والارتقاء بقيمة المهارات الفنية فى المجتمع.

خامساً: زيادة المرونة المؤسسية والقدرة على الإدارة الذاتية

يمكن لمنظومة التعليم العالى المصرى أن تتجه تدريجياً نحو نظام اكاديمى أكثر تنوعاً ومرونة ينبع اساساً من احتياجات الطلاب ومتطلبات سوق العمل. وفى هذا النظام المقترح يستطيع الطلاب ممارسة حقهم فى اختيار مكان دراستهم ولما يدرسونه، وتستطيع المؤسسات التعليمية - ومنها الحكومية - أن تمارس الاستقلال فى قبول الطلاب وفق رؤيتها المستقبلية ورسالتها وأهدافها الانمائية وقدراتها التعليمية. ومع الابقاء على دور الدولة فى تحديد العدد الاجمالى للملتحقين بالتعليم العالى - وفق الرؤية الاستراتيجية فيما يتصل بدور التعليم فى تحقيق الاهداف الانمائية لمصر - يمكن لفرادى المؤسسات أن تحدد المزيج الامثل والأعداد الملائمة للمقيدين بها. وحتى يمكن مواءمة الجامعات المصرية مع نظيراتها الدولية، يُقترح أن يتولى إدارة الجامعات الحكومية - بالاضافة إلى مجلس الجامعة - مجلس أمناء له سلطة الاشراف على توجهاتها الاستراتيجية وشئونها الاكاديمية وفقاً لاهدافها التعليمية ورسالتها المتفق عليها، مع وضع إطار شامل يتضمن اساليب مناسبة للمساءلة من قبل وزارة التعليم العالى. وتنبع فكرة مجلس الامناء - الذى يضم إلى جانب الادارة العليا للجامعة مجموعة من الشخصيات المهتمة بقضايا التعليم والتعلم والبحث العلمى وشئون السياسة والاقتصاد والثقافة - من الحاجة إلى اضافة بعد أكثر شمولا على العملية التعليمية والبحثية مع إضفاء درجة اعلى من المرونة فى اتخاذ القرار الاكاديمى والاشراف على العملية التعليمية بالجامعة.

سادساً: تكلفة التعليم والتعلم

يقترح التقرير تقاسم تكاليف العملية التعليمية بمزيد من العدالة وتخفيف الاعباء المالية على الحكومة ودافعى الضرائب بوجه عام من خلال مشاركة المستفيدين من العملية التعليمية فى التكاليف الدراسية. ولضمان كفاءة منظومة تمويل التعليم العالى واستدامتها، فإن الحكومة المصرية فى حاجة لتبنى استراتيجية تعتمد على خمسة عناصر:

زيادة الاستثمارات العامة فى مجال التعليم وزيادة نصيب الإنفاق على التعليم من الناتج المحلى الاجمالى ومن الايرادات العامة.

تنويع ايرادات مؤسسات التعليم العالى عن طريق زيادة تقاسم التكاليف وتعظيم سبل التمويل الذاتى، وهو ما يتطلب التوسع فى إنشاء وحدات ومراكز تعليمية مولدة للدخل وبرامج متخصصة أو متميزة برسوم دراسية.

التوسع فى انشاء الجامعات الخاصة والأهلية وزيادة طاقتها الاستيعابية وتعظيم مساهمتها فى منظومة التعليم العالى.

زيادة معدلات القيد بقطاع التعليم الفنى والتدريب المهنى.

التوسع فى استخدام تكنولوجيات التعليم الحديثة المعتمدة على تقنية المعلومات والاتصالات، مثل التعلم الالكترونى والتعليم من بعد والجامعات الافتراضية.

ومن الضرورى فى هذا السياق، أن يواكب الزيادة فى الرسوم الدراسية توسع مماثل فى تقديم منح دراسية ووضع نظم متطورة للقروض الدراسية للطلاب.

سابعاً: التوسع فى معايير القبول وتنوع القدرات

برغم شفافية الاعتماد الكامل على نتائج امتحانات اتمام الدراسة الثانوية كأساس وحيد للقبول فى الجامعات، يقترح فريق الدراسة توسيع نطاق معايير قبول الطلاب فى التعليم العالى، من خلال استكمال نتيجة الطالب بمرحلة التعليم الثانوى بمهاراته الذهنية والفكرية وقدراته المهنية ودعم تفضيلاته فيما يخص اختيار البرامج الاكاديمية والمؤسسات التعليمية.

ثامناً: جودة مدخلات العملية التعليمية

يتطلب تحقيق جودة التعليم العالى زيادة المخصصات المالية لدعم الامكانات الاكاديمية والمادية وتنمية قدرات اعضاء هيئة التدريس والهيئة الادارية بالجامعات.

وتنبع الحاجة إلى مستويات اعلى من الإنفاق إلى التوسع المرغوب فى تطبيق التكنولوجيات الحديثة للتدريس وتوفير الامكانات المعلوماتية (مثل المكتبات الرقمية) وتطوير المعامل البحثية.

بيد أن الأمر يتطلب أيضاً تطوير الادارة الذاتية لمؤسسات التعليم العالى وتطبيق نظم وممارسات الجودة والاعتماد وربط المقابل المادى بمعدلات الاداء وتنمية القدرات على جميع المستويات. ويمثل انشاء هيئة قومية لضمان جودة التعليم والاعتماد خطوة هامة لتحقيق أهداف الجودة والاعتماد الاكاديمى للمؤسسات التعليمية على المستوى المحلى.

تاسعاً: تدعيم قدرة البحث الجامعى

يقترح التقرير - كخطوة أولى فى هذا المجال - ان يتم رسم خريطة تحدد نقاط القوة البحثية فى الجامعات الحكومية والخاصة. ثم توجيه الدعوة إلى عدد محدد من الجامعات - ذات التميز البحثى - للتقدم من خلال برنامج تنافسى لانشاء معاهد للدراسات العليا أو مراكز بحثية فى المجالات التى تحقق الاهداف البحثية لمصر على المستوى القومى. وبرغم أهمية هذا المقترح فإن قضية البحث العلمى بالجامعات تعد - فى واقع الامر - مشكلة متعددة الابعاد ويتعين التصدى لها على مستويات مختلفة، تبدأ بمراجعة السياسات الخاصة بعرض الخدمات البحثية الجامعية من موارد بشرية وامكانات مادية وبنية معلوماتية وهياكل مؤسسية وقدرات تنظيمية - مع التركيز على ما أفرزته الألفية الثالثة من هياكل مؤسسية بحثية حديثة مثل مراكز

التميز البحثى المستقلة والمنتجعات البحثية ومراكز الابتكار العلمى والحضانات التكنولوجية - وتنتهى بالتصدى لقضية الطلب على الخدمات البحثية الجامعية من منطلق ارتباط العملية البحثية بمتطلبات القطاعات الانتاجية والخدمية الوطنية ومدى مساهمة الجامعات فى حل المشاكل البحثية المجتمعية. أى ان الأمر يتطلب ثقافة بحثية حديثة تتواءم مع متطلبات الالفية الثالثة سواء اختص ذلك بمقدم الخدمة البحثية أو المستفيد منها.

عاشراً: تبنى استراتيجية لتدويل التعليم العالى.

تتبنى منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) تطبيق استراتيجية لتدويل التعليم العالى والبحث العلمى. ويعرف التدويل بأنه نشاط يؤدى إلى إضفاء بعد دولى. متعدد الثقافات - على العملية التعليمية والبحثية بالجامعات بغية الارتقاء بها وتعزيز قدراتها. ويخضع التعليم العالى والبحث الجامعى فى جميع انحاء العالم - فى الوقت الراهن - لعملية تدويل على نطاق غير مسبوق وبمعدلات سريعة. ويتعين على الحكومات ومؤسسات التعليم فى كافة أرجاء العالم ان تتكيف مع هذا الواقع الجديد وفق أبعاده المتعددة. ويقترح التقرير وضع استراتيجية تدويل أكثر شمولا للتعليم العالى المصرى ترتكز على مايلى:

إدماج القدرة على التدويل فى البيانات المتعلقة بمواصفات الخريج المصرى المتوقعة.

إعداد برامج توأمة مؤسسية بغرض إجراء البحوث ومنح الدرجات العلمية المشتركة.

التشجيع على تعلم لغة ثانية وثالثة فى كافة ارجاء نظام التعليم.

الترويج بطريقة مهنية لمصر بوصفها وجهة لطلاب البلدان الاخرى.

متابعة ورصد الحراك الاكاديمى للطلاب وأعضاء هيئة التدريس عبر الحدود والافادة عنها بصورة منتظمة.

الحد من الاجراءات التنظيمية البيروقراطية غير الضرورية المرتبطة بالتعاون الدولى.

تقديم الدعم المالى والعينى لطلاب مرحلة الليسانس والبكالوريوس لقضاء فترة دراسية بالخارج.

ويقترح فى هذا الصدد اضافة توجهين للتدويل هما:

المشاركة فى التجمعات الجامعية الاقليمية والدولية وشبكات الجامعات البحثية والتعليمية المتخصصة.

تشجيع زيارات أعضاء هيئة التدريس للمعامل والمراكز البحثية المتطورة بالخارج والاطلاع على التطورات الحديثة فى النظم والبرامج الاكاديمية.

حادى عشر: النماذج الرائدة والمشروعات النموذجية.

يؤكد التقرير فى نهايته، أن التحول من الاساليب القديمة والهياكل القائمة حاليًا إلى منظومة تعليمية أكثر حداثة وانفتاحًا على العالم الخارجى يحتاج إلى البدء بمشروعات نموذجية مصغرة قبل اعتمادها على نطاق واسع. وهى تجربة أثبتت نجاحها فى العديد من دول العالم لتقليل التكلفة المرتبطة بالابتكارات والافكار الحديثة قبل التوسع فى تطبيقها على المستوى الوطنى. ويمكن ان تتضمن هذه المشروعات النموذجية فى مصر - على سبيل المثال - اعداد معايير قبول متنوعة، وتحديث المناهج بمشاركة أرباب العمل والهيئات المهنية، واتباع اسلوب تنافسى لإنشاء عدد مختار من معاهد الدراسات العليا، وانشاء عدد محدد من الاطر المؤسسية البحثية بالجامعات ذات القدرات البحثية المتطورة مثل مراكز الابتكار البحثى والتطوير التكنولوجى.

ثانى عشر: ادارة المرحلة الانتقالية.

نظرًا لوجود فجوة واسعة بين السياسات والممارسات الراهنة للتعليم العالى فى مصر وتلك التى يجرى اعتمادها فى الأمم الرائدة، وبالنظر إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تعيشها مصر، فمن غير المتوقع سد هذه الفجوة بخطوة فورية واسعة واحدة. ومن ثم فإنه ينبغى التوجه نحو القيام بعملية تدريجية لتنفيذ مبادرات إصلاح محددة عن طريق التجربة لاختبار مدى قابلية وجدوى عملية التطبيق، ولبناء التأييد والقبول لدى شرائح المجتمع المشاركة فى والمستفيدة من التعليم العالى.

وبرغم ذلك، يتعين على مصر أن تكون واضحة فى تحديد أهدافها طويلة الأجل، وأن تركز جهودها على التحرك إلى الامام، وان تدير بشكل فعال عملية التحول نحو نظام وطنى للتعليم يتسم بالدينامية والاتساق والاستدامة. ■

المراجع:

١. منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولى، «مراجعات لسياسات التعليم الوطنية - التعليم العالى فى مصر»٢٠١٠.

٢. معتز خورشيد «التعليم العالى بين التنوع والهوية» مجلة وجهات نظر، السنة الثانية عشرة، العدد ١٣٦، مايو ٢٠١٠.

٣. معتز خورشيد «التعليم العالى فى مصر... من الاتاحة إلى الجودة» مجلة وجهات نظر، السنة التاسعة، العدد السابع والتسعون، فبراير ٢٠٠٧.



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٥)

لقد ناضل اليهود، يا سيادة الرئيس، فى أوروبا وهنا فى اميركا، من اجل أوطان لا طائفية تنفصل فيها الدول عن الكنيسة، وقاتلوا ضد التمييز على أساس الدين. فكيف يمكن لهم ان يرفضوا هذا النموذج الانسانى المشرف على الأرض المقدسة، أرض السلام والمساواة؟ وكيف يمكن لهم ان يستمروا فى دعم اكثر دول العالم انغلاقًا وتمييزًا وتعصبًا.

اننى اعلن امامكم هنا، كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وقائد للثورة الفلسطينية، اننا عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة من اجل فلسطين الغد، فنحن نشمل فى تطلعاتنا كل اليهود الذين يعيشون الآن فى فلسطين ويقبلون العيش معنا فى سلام ودون تمييز على أرض فلسطين.

اننى، بصفتى رئيسًا لمنظمة التحرير وقائدًا لقوات الثورة الفلسطينية، أدعو اليهود فردًا فردًا ليعودوا النظر فى طريق الهاوية الذى تقودهم عليه الصهيونية والقيادات الاسرائيلية، وهى التى لم تقدم لهم غير النزيف الدموى الدائم والاستمرار فى خوض الحروب واستخدامهم كوقود دائم لها.

اننا ندعوكم للخروج إلى مجال الاختيار الرحب، بعيدًا عن محأولات قيادتكم لغرس عقدة المأساة وجعلها قدرًا لكم.

اننا نقدم لكم أكرم دعوة، ان نعيش حقًا فى اطار السلام العادل فى فلسطيننا الديمقراطية.

من غازى القصيبى إلى نزار قبانى الذى سأل:

متى يعلنـــون وفـاة العـــرب؟

■■ نزار أزف إليك الخبر..
لقد أعلنوها وفاة العرب
وقد نشروا النعْيَ.. فوق السطور
وبين السطور.. وتحت السطور
وعبْرَ الصُوَرْ!!
وقد صدرَ النعىُ..
بعد اجتماعٍ يضمُّ القبائلَ
جاءته حمْيَرُ تحدو مُضَرْ
وشارون يرقص بين التهاني
تَتَابعُ من مَدَرٍ أو وبَرْ
و«سامُ الصغيرُ».. على ثوره
عظيمُ الحُبور.. شديدُ الطَرَبُ

■ ■ ■

نزار! أزفُّ اليك الخَبَرْ!
جادَ بها زعماءُ الفصاحة..
أتبتسمُ الآن؟!
هذى الحضارةُ!
ندفعُ من قوتنا
لجرائد سادتنا الذابحينْ
ذكاءٌ يحيّرُ كلّ البَشَرْ!

■ ■ ■

نزارُ! أزفُّ إليك الخَبَرْ!
وإيّاكَ ان تتشرّب روحك
بعضَ الكدَرْ
ولكننا لا نموتُ... نظلُ
غرائبَ من معجزات القَدَرْ
إذاعاتُنا لا تزال تغنّي
ونحن نهيمُ بصوت الوترُ
وتلفازنا مرتع الراقصات
فكَفَلٌ تَثَنّى.. ونهدٌ نَفَرْ
وفى كل عاصمة مؤتمرْ
يباهى بعولمة الذُّل
يفخر بين الشعُوب
بداء الجرب
ولَيْلاتُنا... مشرقاتٌ ملاحُ
تزيّنها الفاتناتُ المِلاحُ
إلى الفجرِ...
حين يجىء الخَدَرْ
وفى «دزنى لاند» جموعُ الأعاريبِ
تهزجُ... مأخوذة باللّعب
ولندن. مربط أفراسنا!
مزادُ الجوارى... وسوقُ الذهَبْ
وفى «الشانزليزيه».. سَدَدنا المرور
منعنا العبورَ...
وصِحْنا: «تعيشُ الوجوهُ الصباحُ!»

■ ■ ■

نزارُ! أزفُّ إليك الخَبَرْ!
يموتُ الصغارُ... ومَا منْ أحدْ
تُهدُ الديارُ... ومَا مِنْ أحدْ
يُداس الذمار.. ومَا منْ أحدْ
«لبيريز»...
انتصر
وجيشُ «ابن أيوبَ»... مُرتَهنٌ
فى بنوك رُعاة البَقَرْ
و«بيبرس» يقضى إجازتهُ
فى زنود نساء التترْ
ووعّاظنُا يرقبُون الخَلاصَ
مع القادم... المُرتجَى.. المُنْتَظَرْ

■ ■ ■

نزارُ! أزفُ إليكُ الخَبَرْ
سئمتُ الحياةَ بعصر الرفات
فهيّىءْ بقُرْبكَ لى حفْرةً!!
فعيش الكرامة تحتَ الحُفَر.
ووعّاظنُا يرقبُون الخَلاصَ
مع القادم... المُرتجَى.. المُنْتَظَرْ

■ ■ ■

نزارُ! أزفُ إليكُ الخَبَرْ
سئمتُ الحياةَ بعصر الرفات
فهيّىءْ بقُرْبكَ لى حفْرةً!!
فعيش الكرامة تحتَ الحُفَر. ■

غازى القصيبى

عن ٧٠ عاما و٢٠ كتابا مثيرا للجدل، رحل غازى القصيبى. صاحب «شقة الحرية» التى تحكى واقع الشباب العربى فى منتصف القرن الماضى، فترة المخاض العربى الصعب وسط أجواء عاصفة بسياسات وتوجهات فكرية عدة.

ذهب القصيبى الوزير السعودى الذى كاد أن يرحل وكتبه أو معظمها ممنوعة من التداول فى بلده، إلى أن أصدر الدكتور عبدالعزيز خوجة وزير الثقافة توجيهاته قبل حوالى شهر من وفاة القصيبى بإتاحة جميع مؤلفاته.